الملك الظاهر بيبرس

تاليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الطبعة الاولى

١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت رقعة البلاد الإسلامية في توسع في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وجزء من حكم العباسيين ، ثم بدأت الخلافات الداخلية ، وعوامل الإضعاف تلعب دورها في نخر أعمدة الحكم العباسي حتى وصل الضعف بمراكز الحكم فيها إلى درجة أغرت الطامعين من غير المسلمين أن ينظموا حملات صليبية للاستيلاء على ممتلكاتها . وسواء كانت الأهداف دينية أو دنيوية فقد نجحت هذه الحملات فترة وجيزة من الزمن في اقتطاع أجزاء هامة من الشام ، ودامت المحاولات في تلك الفترة للاستيلاء على مصر وشمال افريقيا .

كانت بغداد ، وهي مركز الحكم العباسي غير قادرة على صد هجماتهم ، فأخذ عماد الدين زنكي ، أحد أمراء أطراف المملكة ، على عاتقه التصدي لهؤلاء الغزاة المسيحيين ، ووجد ، هو وابنه من بعده ، من حماس الناس وغيرتهم ما ساعدهما على بذر بذور المقاومة المخلصة ، ووضع أساس الكفاح الذي أثمر فيما بعد في الوصول إلى الهدف .

وخطا عماد الدين وابنه الخطوات الأولى في هذا السبيل ، ثم تسلم قيادة الجهاد منهما صلاح الدين الأيوبي ، فأبلى بلاء حسناً ، وأوقف تيار الزحف الصليبي ، وبدأ خطوات فعالة أثمرت في استرداد أجزاء هامة من البلاد الإسلامية .

إلا أن أمر الجهاد فتر بعد وفاته ، للخلاف الذي دب ثم استشرى بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين ، وتم تمزيق مملكته ، وتقسيمها بينهم . وصادف أثناء حكمهم أن ظهر على ميدان السياسة والحرب خطر جديد ، وهو زحف جيوش التتار غرباً من أواسط آسيا ، واكتساحهم ما أمامهم ، ثم تحالفهم مع الصليبيين في الشام على المسلمين ، وأخذهم لامارتهم فيه .

في هذه الفترة الحالكة من تاريخ الإسلام والمنطقة قاد بيبرس معارك المقاومة ، وكسر أمواج مد التتار ، وأضعف الصليبيين ، وبدأ سياسته الناجحة في استرداد ممتلكات الإسلام في الشام من التتار الوافدين ، ومن الصليبيين المقيمين .

في الصفحات التالية عرض عن بيبرس : عن حياته وكفاحه، وما حققه من الأهداف التي سعى إلى تحقيقها : سياسياً ، وحربيا ، واجتماعياً ، وعمرانياً .

عبد العزيز الخويطر

الفصل الاول : نشأة بيبرس

الفصل الثانى : سعيه للسلطة

الفصل الثالث : توليه الحكم



الفصل الاول

نشأة بيبرس

١ – فرقة البحرية :

كان جيش السلطان ، أثناء حكم الأيوبيين ، يتكون عادة من مماليكه الخاصين ، ومن المماليك الذين آلوا إليه من سلفه . ويضاف إلى هاتين الفئتين بعض مماليك من مات من القواد . وكذلك القواد الذين لا ينتمون إلى أحد ، ومعهم جندهم . وكان الحاكم حينئذ لا يثق من بين هؤلاء إلا بمماليكه الخاصين ، إذ أن غيرهم من قواد جنده قد يميل إلى حاكم آخر ، فيصبح هو في يدهم بعد توليه السلطنة . وقد أدرك الملك الصالح نجم الدين أيوب هذه الحقيقة منذ أن كان ولياً للعهد(١) ، فقرر أن يؤلف قوة خاصة به ، تتكون من مماليك أتراك ، يختارهم اختياراً دقيقاً ، ليحصر ولاءهم في شخصه . وقد بدأ بتنفيذ هذه الفكرة منذ عام ٦٢٧ هـ (١٢٢٩–٣٠ م) عندما كان نائباً عن والده أثناء غيابه في سوريا(٢) ،وقد ساعده منصبه حينئذ على البدء في تنفيذ هذا المشروع ، إلا أن زوجة أبيه كانت تهمها مصلحة ابنها العادل ، فأسرعت باخبار والد الصالح بما فعل ، وحذرته مما يبيته له ابنه ، من تخطيط يهدف لتنحيته عن الملك . وأكدت أن حيازته لهؤلاء المماليك إنما هي جزء من هذا المخطط(٣) ، فكانت نتيجة ذلك أن عاد الكامل مسرعاً إلى مصر ، ونحى الصالح عن ولاية العهد ؛ فحرم بذلك الصالح من إكمال مشروعه ، ومن ثقة والده فيه ، ولم يعد بإمكانه السير

---

(١) قلد هذا المنصب في عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ – ٨ م) . المقريزي السلوك ٢٢٥/١ .

(٢) المقريزي السلوك ٢٤٠/١ .

(٣) السلوك ٢٤٠/١ .

في سياسة شراء المماليك . وعندما عينه والده خارج مصر(١) شعر بالحاجة إلى جيش قوي ، وصادف أن الخوارزمية في الأيام الأخيرة قد ساءت علاقتهم مع غياث الدين ، سلطان الروم السلجوقي(٢) ، ففكر الصالح في تجنيدهم ، وكان حذراً في هذه المرة ، فاستأذن والده ؛ أما مماليكه فلم يزيدوا عن الثمانين عند موت والده(٣) . ولم يتمكن من استئناف شراء المماليك للغرض السابق إلا بعد فترة غير قصيرة من وفاة والده .

وقد عانى الصالح كثيراً ، أثناء سعيه للسلطة بعد وفاة والده ، من ضعف ولاء القواد الأكراد الذين كانوا في خدمته ، وعندما سجنه الناصر داود(٤) لم يبق بجانبه إلا مماليكه الخاصين ، فقدر لهم هذا الإخلاص ، وأدرك مدى حاجته لقوة ثابتة ، يعتمد عليها ، فبدأ يبني جيشه من المماليك وحدهم . وقد ساعدت حالة أسواق الرقيق في سوريا ومصر والعراق ، في تلك الفترة ، الصالح على الحصول على بغيته ، لأن تقدم المغول غرباً طرد قبائل القبجاق من أراضيهم ، فازدهرت أسواق الرقيق بمن وصل إليها من المأسورين من هذه القبائل ، ووصل عدد كبير منهم إلى الأسواق الإسلامية للرقيق . وكانت مصر في تلك الفترة مزدهرة اقتصادياً نتيجة لموقعها المهم في طريق التوابل بين أوروبا والهند مما ساعد الصالح مالياً على مقابلة مصاريف مشروعه ، وأعطاه الفرصة لاختيار الأجود من بين أعداد المماليك الكبيرة التي كانت تجلب للأقطار الإسلامية ، والتي كانت لديه الفرصة المواتية للاستفادة منها .

وكان المملوك ، بعد أن يشترى ، يدرب تدريباً حربياً ، ويزود بالسلاح ، ليحل محل غيره في الجيش ، ثم يهيأ تدريجياً للقيادة ، ليحل محل قائد آخر ممن لم يكن الصالح راضياً عنهم . وقد بدأ الصالح منذ عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ — ٤١ م) في اعتقال العناصر المشاغبة في جيشه ، فاعتقل عدداً

---

(١) بعد أن نحى الكامل ابنه الصالح من ولاية العهد أعطاه حصن كيفا ، إبعاداً له عن مركز الحكم . السلوك ٢٤٤/١ .

(٢) السلوك ٢٥٥/١ .

(٣) المقريزي المواعظ ٢٣٦/٢ .

(٤) السلوك ٣٠٠/١ ، ٣٤٠ .

من القواد الأشرفيين(١) وصادر أموالهم ، وقتل بعضهم(٢) ، واتخذ تصرفه هذا صورة منظمة ، وكان إقطاع القائد المغضوب عليه ، ينقل إلى حوزة القائد الجديد الذي حل محله ، حتى أصبح أغلبية قواد جيشه من الذين اختارهم شخصياً ، وقد اختار لسكنهم أرضاً في جزيرة الروضة في القاهرة ، وبنى عليها « قلعة بحر النيل » ومنها جاء اسمهم « البحرية »(٣) .

وكان الصالح ، في فترة تكوين جيشه من المماليك ، يتطلع إلى قوة خارجية ، يتحالف معها ، ليضمن الصمود أمام أفراد عائلته الآخرين . فكان هناك الخوارزمية ، وهم جزء من الجيش الذي حارب به جلال الدين المغول ، وقد تفرقوا في تلك الفترة في أراضي الشرق ، بعد أن هزم حاكمهم ، وهاجر عدد كبير منهم إلى سوريا ، حيث أصبحوا مصدر أذى لمنطقة أنطاكيه وحلب(٤) ، مما اضطر حكام سوريا ، ومن بينهم الناصر ، حاكم دمشق ، إلى محاربتهم ، وكان الناصر من أكبر المنافسين للصالح ، فلجأ هذا إلى التحالف مع الخوارزمية ضد الناصر(٥) وكان الخوارزمية أيضاً يؤملون أن يقطعهم الصالح في الشام إذا انتصر على الناصر(٦) ، واستولى على دمشق ، إلا أن أملهم خاب عندما استولى على دمشق ولم ينلهم ما أملوا ، فانقلبوا ضده ، وانضموا ، في عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ — ٤٦) م (٧) إلى عدويه الملك الصالح اسماعيل والناصر داود .

وقد اكتسبت فرقة البحرية خبرة حربية تامة من دخولها هذه الحروب ، وازداد عدد أفرادها ، فبدأ تأثيرها يظهر نتيجة لذلك . فصار الصالح يستفيد من رجالها في مقابلة الجيوش الأجنبية ، وإخماد الثورات الداخلية ، وبلغت سمعتها الحربية قمتها في عام ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) في معركة المنصورة

---

(١) مماليك الملك الأشرف الأيوبي .

(٢) المواعظ ٢٣٦/٢ .

(٣) السلوك ٣٤٠/١ .

(٤) السلوك ٣٠٣/١ .

(٥) السلوك ٣١٥/١ .

(٦) السلوك ٣١٦/١ ..

(٧) أبو الفدا المختصر ١٨٢/٣ . السلوك ٣٢٢/١ .

المشهورة(١) ، عندما تداركت الموقف ، وهزمت الافرنج هزيمة منكرة . وبرز بيبرس في هذه المعركة بالذات بما أظهره من شجاعة وحسن قيادة . ومنذ ذلك اليوم ظهرت أهميته في فرقة البحرية ، ولم يكن يساويه في هذه الأهمية إلا فارس الدين أقطاى قائد الفرقة .

٢ ـ طفولة بيبرس واسترقاقه :

يمكن اعتبار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي المؤسس الحقيقي لدولة المماليك(٢) ، فقد كان أول مملوك أصبحت السلطنة له ، ونجح حقيقة في توطيد حكمه في أغلب الأراضي الإسلامية ، وأدخل تغييرات جوهرية على إدارة الدولة ، وأوجد علاقات جديدة مع الدول المجاورة ، وأخذ على عاتقه القيام بسلسلة منتظمة من الحملات الحربية ضد ألد أعداء مصر من الافرنج وغيرهم .

والمعلومات التي لدينا عن حياته المبكرة قليلة ومنها(٣) أن قبيلته كانت تقيم في أراضي القبجاق ، حوالي عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ ـ ٢٨ م) عندما قام التتار بأول هجوم لهم على هذه المنطقة . وفي عام ٦٣٩ هـ (١٢٤١–٤٢ م) خافت قبائل القبجاق من هجوم ثان للتتار عليها ، فالتجأت إلى أنس خان ، حاكم الأولاق (أو البرغال) . وفي عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ ـ ٤٣ م) عبرت نهر السوداق ، ونزلت في واد بقربه . ولكن أنس خان هاجمهم فيه هجوماً غادراً ، فقتل بعضهم وسبي الأغلبيةمنهم ، وكان من بين السبايا بيبرس ، وعمره

---

(١) في الخامس من ذي القعدة « التاسع من فبراير ١٢٥٠ م » السلوك ٣٤٩/١ .

(٢) قبل عهد بيبرس حكمت شجرة الدر مدة قصيرة ؛ ثم حكم بعدها أيبك التركى (السلوك ٣٦٨/١) وقد تخلل حكمه تنصيب الملك الأشرف موسي الأيوبي مما أنزل أيبك إلي رتبة أتابك (راجع ما سيأتي ص١٥) وكانت مدة حكم أيبك قصيرة ، ولم يتعد حكمه مصر ؛ ومع أن ابنه خلفه إلا أنه كان قاصرا مما ساعد قطز (راجع ما سيأتي ص ١٩) على خلعه ؛ ورغم أن قطز كان مملوكاً إلا أنه هو أيضاً قتل بعد فترة قصيرة من حكمه وعلي عكس كل هؤلاء كان بيبرس ، فحكمه دام ما يقرب من سبعة عشر عاما ؛ وملكه امتد حتي شمل مصر وسوريا والحجاز .

(٣) هذه المعلومات أدلى بها عز الدين عمر بن شداد عن أحد الأمراء الذين كانوا في خدمة بيبرس . واسمه بدر الدين بيسري الشمسى ، وكان المغول قد سبوه مع بيبرس عندما كان شابا . النجوم ٩٥/٧ .

حينذاك ١٤ عاماً (١) . ولعل الذي سباه باعه إلى نخاس أحضره بعد ذلك إلى الشام ، حيث عرض للبيع على الملك المنصور مع مملوك آخر لعله بيسرى ، ولكن أم المنصور أقنعت ابنها بعدم شراء بيبرس ، لأن الشر — على حد تعبيرها — ظاهر في عينيه(٢) . وكان ركن الدين البندقداري أحد أمراء الصالح معتقلا في حماه لجرم ارتكبه ، فسمع بالمملوكين فاشتراهما .

٣ — في خدمة الملك الصالح :

بقي بيبرس في سوريا إلى أن أطلق سراح سيده الجديد ، فعاد معه إلى إلى مصر(٣) ويبدو أن بيبرس استرعى نظر الصالح بما أظهر من صفات دلت على تفوقه الذي ظهر فيما بعد ، فقد وضعه الصالح في فرقة البحرية مع جيشه الجديد ، وكانت فرصة لبيبرس لينمي استعداده الحربي ،ويبرزه ، فصعد السلم بسرعة فائقة . وكان أول مركز سمعنا عنه أنه احتله مركز جمدار(٤) ولا بد أن بيبرس أثبت جدارة فيما أسند إليه أكسبته رضى الصالح وكبار رجال جيشه ، لأنه عند موت الصالح أعطى القيادة على فرقة البحرية عندما كان أقطاى ، قائدها ، مبتعثاً لاصطحاب ولي العهد في عودته إلى مصر .

٤ — وفاة الصالح :

توفي الملك الصالح(٥) أثناء احتلال الافرنج لدمياط وقبل وقعة المنصورة . ونظراً للموقف الحرج الذي كان يحيط بالمسلمين حينئذ فقد اضطر البلاط إلى إخفاء موت الصالح ، خوفاً من تأثير مثل هذا الخبر على معنوية الجيش ، في وقت هم في أشد الحاجة إلى تقوية نفوسهم لمقاومة الافرنج . وكان على رأس الحكومة حينئذ شجرة الدر ، أرملة الصالح ، وكانت امرأة قوية الشخصية . فاستطاعت بمساعدة بعض المسؤولين أن تدير أمور الدولة إلى أن وصل توران شاه ، الابن الوحيد للصالح ، من حصن كيفا حيث كان يقيم(٦) . وقد زاد ، في هذه الأثناء ، ضغط الافرنج

---

(١) التغري بردي النجوم ٩٥/٧ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ٢٠٥/٢ . (٣) مفرج الكروب ٤٠٥/٢ .

(٤) محي الدين بن عبد الظاهر . الروض الزاهر م/٣ .

(٥) ليلة الأحد ١٥ من شعبان عام ٦٤٧ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) .

(٦) السلوك ٣٣٩/١ ، ٣٤٣ .

على المسلمين ، ودخلوا المنصورة نفسها ، وبقوا محافظين على موقفهم المنتصر(١) ، حتى خرجت عليهم فرقة البحرية ، فطردتهم من المنصورة ، وهزمتهم هزيمة منكرة ، فاهتبل المسلمون هذه الفرصة ، فتابعوا هجومهم وانتصارهم ، حتى استسلم الافرنج في آخر الأمر(٢) ، وأخلو دمياط (٣) ، وأسر قائدهم ملك فرنسا لويس التاسع .

---

(١) السلوك ١/٣٤٧ .

(٢) آخر هزيمة للأفرنج ، في هذه الحملة ، كانت في يوم الأربعاء الثالث من محرم ٦٤٨ هـ (السابع من أبريل ١٢٥٠ م) . السلوك ١/٣٥٥ .

(٣) السلوك ١/٣٦٣ .

الفصل الثانى

سعي بيبرس للسلطة

١ ـ مقاومته لتوران شاه :

وصل توران شاه ، ومعه أقطاي ، قائد فرقة البحرية ، إلى مصر ، بعد عشرة أيام تقريباً من بدء انتصار المسلمين على الافرنج ، ونصب في الحال سلطاناً مكان والده . ويقال(١) أنه وهو في طريقه إلى مصر كان قد وعد أقطاي بأن يعطيه لقب « أمير » إلا أنه عدل عن هذا بعد وصوله إلى مصر ، فأحفظ هذا أقطاي عليه ، ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقة بين السلطان الجديد وبين البحرية تفتر .

وكان البحرية قد توقعوا من توران شاه أن يهبهم بعض الهبات الجزيلة ، تقديراً لتضحيتهم في وقعة المنصورة ، وشجاعتهم الملحوظة فيها ، مما كان له أكبر الأثر في النصر . وكان البحرية ، بجانب افتخارهم بذلك ، يشعرون أن السلطان الجديد مدين لهم بوصوله إلى السلطنة ، لأنهم حرسوا مصالحه في الفترة التي تلت موت والده ، وسبقت مجيئه هو إلى مصر ، إلا أن توران شاه لم يشاركهم هذا الرأي ، ولعله داخله الرعب من قوة البحرية ، وسيطرتهم ، وتأثيرهم ، وتوقع أنهم سوف يكونون خطراً على ملكه ، فنظرتهم إليه تختلف عن نظرتهم لوالده ، الذي كانوا له عامل اطمئنان ، لأنهم مماليكه الخاصين ، وولاؤهم كان له وحده ، وإن صرفوه لابنه بعد موت والده فبصورة أضعف . وكان هذا الشعور عند توران شاه سبباً في إيجاد فكرة تنفيذ خطة بدأها تجاه الجيش ، وهى تبديل من حوله من البحرية بآخرين من خاصته(٢) فأدرك قواد البحرية مدى الخطر الذي ينتظرهم من جراء

---

(١) السلوك ٣٥٨/١ .

(٢) الروض م/٣ . والسلوك ٣٥٩/١ .

ذلك ، فبدأوا يفكرون في طريقة لحماية أنفسهم ، وأصبحت خيبة أملهم في نكران توران شاه للجميل الذي أسدوه إليه تتضاءل أمام ما اعتقدوه نقصاً في التمييز عند اختيار ضباط الجيش ، الذين اختيروا ، في نظرهم ، من طبقة أقل من المستوى المعتاد(١) فأوجب هذا اعتراضهم .

واستمر الشك يتضاعف عند البحرية حول نية توران شاه في أضعاف فرقتهم ، وكسر شوكتهم ، ليبني لنفسه قوة حربية أخرى ، يضمن ولاءها ، ولم يجد البحرية وسيلة يمنعون بها السلطان من السير في مخططه إلا تنحيته عن السلطنة ، عن طريق اغتياله في أقرب فرصة قبل أن يتمركز في الساطة(٢) ، ويتمكن من الاستعانة ببعض القادة الآخرين . وفي يوم الاثنين قبل نهاية شهر محرم بثلاثة أيام من عام ٦٤٨ هـ (٢ مايو ١٢٥٠ م) هاجمته جماعة من البحرية ، فضربه بيبرس ، كعادته ، الضربة الأولى(٣) . وبقتل توران شاه كسب بيبرس للمرة الثانية احترام زملائه وإعجابهم . بهذا العمل أيضاً زادت أهمية البحرية تحت قيادة فارس الدين أقطاي ومساعده بيبرس .

٢ ـ مقاومته لأيبك :

قرر قواد الجيش والمسؤولون ، بعد موت السلطان توران شاه ، أن ينصبوا شجرة الدر خلفاً له . وأهمية شجرة الدر تأتي من أنها أرملة السلطان الصالح ، والمماليك البحرية لا يزالون وفيين لذكراه(٤) وهي خير من يعرف مقامات قواد الجيش ، ورجال الحكومة(٥) ورغم أنه اعترف بها من أول الأمر إلا أن كونها امرأة جعل سلطتها محل تساؤل . وفي العاشر من صفر ٦٤٨ هـ (١٤ مايو ١٢٥٠ م) اختار المسؤولون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي ، المعروف بالتركماني ، أتابكا للجيش(٦) وكان في أول حياته مملوكاً تركياً لأحد أبناء التركماني ، الذي كان يدعي أنه من نسل بني رسول ، حكام اليمن . وكان قد انتقل إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب ، ووصل

(١) الروض م/٣ .
(٢) الروض م/٤ .
(٣) المختصر ١٩٠/٣ والروض م/٤.
(٤) السلوك ٣٦١/١ .
(٥) الروض م/٥ والسلوك ٣٦١/١ .
(٦) المختصر ١٩٠/٣ .

عنده إلى رتبة جاشنكير(١) . وكان الجدل على انتقال الملك إلى يد امرأة على أشده ، حتى أن الخليفة العباسي في بغداد عاب على المسؤولين إخفاقهم في العثور على رجل كفيء يتولى هذا المنصب ، وعرض أن يزودهم به(٢)، وأنه وإن كان هناك إقتناع بوجوب تنحية شجرة الدر ، وهو أمر صعب ، إلا أن اختيار من يحل محلها أمر أصعب . لأن المنافسة شديدة بين من يمكن أن يختاروا مما قد يؤدي إلى حرب أهلية ، لا محالة منها ، ولهذا تمت تنحيتها بالتدريج ، وعلى مراحل ، فأول مرحلة منها زواجها بأيبك(٣) وقد توج سلطاناً حينئذ ، ولكن المسؤولين اضطروا في أوائل عام ٦٤٨ ﻫ (أغسطس ١٢٥٠ م) إلى إقامة أحد أبناء الأيوبيين سلطاناً . ولعل السبب في ذلك أنهم ندموا على إعطاء مثل هذه السلطة لأيبك ، أو لأنهم شعروا أنهم يحتاجون إلى أسس قانونية قوية ، يستطيعون معها أن يقفوا أمام منافسة الأيوبيين في الشام . وقد وقع اختيارهم على موسى بن يوسف ، حفيد الكامل ابن العادل ، فأقيم سلطاناً ولقب بالملك الأشرف ، وعين أيبك أتابكاً له(٤) ولكن أيبك لم يقطع أمله في استرداد السلطنة إلا أنه يدرك أن بعض القواد لن يمكنوه من تحقيق طموحه هذا بسهولة ، وعلى رأس هؤلاء قائد فرقة البحرية ، فهو وزملاؤه لا يعتبرون أيبك أعلى منهم ، وطوال الفترة التي لم ينشغل فيها البحرية بحرب ، وهو ما أوجدوا من أجله ، كان وجودهم في بلاطه ثقيلا عليه ، لأنه يحد من سلطته . وكان طموح أيبك يتعدى إلى أخذ الشام ، مما دعا حكام الشام إلى محاربته ، وهذه العداوة معهم اضطرته أن يحتفظ بصداقة فرقة البحرية(٥) ولكن الخليفة العباسي في بغداد تدخل بين أيبك وحكام الشام ، ونظم أمر الصلح بينهم(٦) فنتج عن ذلك أن قل نشاط البحرية ، واقتصر على القضاء على عصيان بعض الأعراب في صعيد مصر(٧) وتسبب عن بطالتهم أذى للناس وتهديد للحكومة(٨)

---

(١) السلوك ٣٦٨/١ . (٢) السلوك ٣٦٨/١ .

(٣) في ١٩ ربيع الثاني ٦٦٨ ﻫ (٢١ يوليه ١٢٥٠ م (السلوك ٣٦٨/١ .

(٤) السلوك ٣٦٨/١ . (٥) السلوك ٣٧٠/١ .

(٦) السلوك ٣٨٥/١ . (٧) السلوك ٣٨٦/١ .

(٨) السلوك ٣٨٤/١ .

فوجد أيبك ، وهو أتابك الجيش ، أنه لن يكون له سيطرة تامة على مصر ما دام البحرية بهذه القوة والعزة ، وما داموا لا ينصاعون إلا لأوامر قوادهم وعلى رأسهم أقطاي .

ارتفع شأن أقطاي ، وأبعد صيته ، بعد وقعة المنصورة ، وقمع العصيان في الصعيد ، فبدأ يطمع في سلطات اعتبرها أيبك له وحده بصفته أتابك السلطان(١) وكان أقطاي يدرك قوة الفرقة التي كان يرأسها ، ويعرف أن بإمكانه أن يعتمد عليها ، وعلى حب قواد الجيش له في حالة ما إذا حدث نزاع بينه وبين أيبك(٢) . ولم تمض مدة قبل أن يحدث مثل هذا إذ بدأ أيبك يظن أن أقطاي يسعى للقبض على السلطة ، وقوى هذا الظن طلب أقطاي أن يسكن مع زوجته الجديدة ، وهي أيوبية، في القلعة(٣) وهذا يعني أن يشارك أيبك مسكنه ، وقد أدرك أيبك أنه قد حصر في موقف لا يسمح له إلا بأحد أمرين ، إما أن يقبل طلب أقطاي ، فيسكنه مفسحاً بهذا للأسد أن يشاطره داره ، أو أن يرفض طلبه فيكشف له شعوره نحوه ، وبذلك يعجل الاصطدام الذي حاول أن يتفاداه(٤) .

على أي حال أصبح أيبك فيما بعد مقتنعاً بأهمية سرعة التخلص من أقطاي ، ولكنه يعرف جيداً أيضاً قوة البحرية ، وأنه ليس بإمكانه أن يهزمهم في معركة مباشرة في مكان مكشوف ، وأن الطريق الوحيد لنجاحه هو أن يعصف بأقطاي ، ويتبع هذا بالقبض على كبار قواد فرقته ، فإذا فقدت الفرقة رئيسها وقوادها أصبح بالإمكان التغلب على جندها .

وقد دبر أيبك مع بعض مماليكه أن يقتل أقطاي عند مجيئه للقلعة ، ولكن أقطاي لم يذهب إلى القلعة منفرداً ، وإنما رافقه بيبرس الذي لم يكن يحسن الظن بأيبك ، ويتوقع الشر منه لأقطاي ، ويبدو أن مماليك أيبك خافوا من

---

(١) فمثلا إذا ركب أقطاي ركب بموكب كامل . السلوك ٣٨٩/١ ومفرج الكروب ١١١/٢ .

(٢) الروض م/٥ ومفرج ١١٢/٢ .

(٣) السلوك ٣٨٨/١ .

(٤) اليميني ، الذيل ٥٨/١ — ٥٩ .

بيبرس مع أقطاي ، فلم يقدموا على تنفيذ الخطة . وقد لام أيبك فيما بعد مماليكه لاحجامهم . ثم عاد واستدعى أقطاي مرة أخرى ، مظهراً أن هذا لأمر هام(١) ورغم أن بيبرس ، كما يقال، نصح أقطاي بعدم العودة إلا أن أقطاي كان واثقاً من نفسه ، فعاد ، وهناك هجم عليه مماليك أيبك بقيادة قطز وقتلوه(٢) .

٣ — بيبرس في المنفى :

ولما لم يعد أقطاي من القلعة توقع زملاؤه بأن أمراً ما قد حدث له ، فأسرعوا إلى القلعة ، وهناك رمى رأسه عليهم . وعلى أثر ذلك اجتمع بيبرس بالقواد ليتفقوا على الخطوة التالية، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى خطة سليمة ، يضمنون بها سلامتهم . فلما جن الليل هرب بيبرس مع بعض القواد إلى الشام . وفي الصباح التاليقام أيبك باتخاذ إجراءات أنهت سلطتهم في مصر(٣) .

وبعد أن قضى أيبك على سلطة البحرية ، وتخلص من القيود التي فرضها قوادها على تصرفاته ، أصبح بإمكانه أن يخلع الملك الأشرف موسى وأن يعلن نفسه سلطاناً . وكان هذا في عام ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ — ١٢٥٥ م)(٤) .

ومع كل هذه الإجراءات فأيبك في الحقيقة لم يستأصل جميع عناصر الخطر في بلاده ، فهناك مثلا بعض قواد البحرية الذين لم يجد أيبك المبررات الكافية لمحوهم ، فبقوا في مصر غير مسلمين كلية لجميع تصرفات أيبك ، فقووا بذلك المعارضة ضده ، وهناك فئة أخرى من القواد تعتقد أن لها في الملك مثلما لأيبك ، وهناك فئة اعتقدت أن الإجراءات التي اتخذها أيبك ضد منافسيه كانت قاسية أكثر مما يجب ، مما جعلها تشعر بالعطف على البحرية ، وهناك زوجته شجرة الدر ، وقد شاهدت سلطتها تسلب تدريجياً منها ، وهي التي تعتبر البحرية مصدر قوتها(٥) ، لا بد أنها شعرت بالعزلة

(١) قتل أقطاي في الثالث من شعبان عام ٦٥٢ هـ (١٨ سبتمبر عام ١٢٥٤ م) السلوك ٣٩٠/١ .

(٢) الروض م/٦ .

(٣) الروض م/٦ .

(٤) المختصر ٣/ .

(٥) السلوك ٤٠٢/١ .

نتيجة لإضعافهم وازدياد طموح أيبك ، الذي فكر ، إمعاناً في إنقاص سلطتها ، أن يتزوج أيوبية من الموصل . ورغم أن كتب التاريخ تعزو قتلها أيبك إلى غيرتها من الضرة المنتظرة ، وغضبها عليه لذلك ، إلا أنه يبدو أن ما شعرت به من محاولة لانزال منزلتها ، والحد من سلطتها كان سبباً لا يقل عن ذلك .

أيا كان السبب فقد قررت أن تزيح أيبك ، وتقيم مكانه من تستطيع معه استعادة منزلتها . وكانت الوحشة حينئذ بينها وبين أيبك قد وضحت ، فتظاهرت شجرة الدر أنها تريد مصالحته ، فلما جاء إلى مسكنها قتل وهو يدخل الحمام ، وقد حدث هذا في ٢٤ ربيع الأول ٦٥٥ هـ (١١ أبريل ١٢٥٧ م (١) .

وأقدام شجرة الدر على مثل هذه الخطوة ربما يعود إلى اعتمادها على موافقة الفئات الساخطة على أيبك وتعضيدها ، وهى فئات سبق أن أظهرت مشاركتها في الشعور داخل البلاط وخارجه . وإذا صح هذا فقد ثبت أن تقديرها خاطيء ، فقد تهينت قوة مماليك أيبك ، عندما أصروا على أخذ الثأر لمولاهم ، ولولا حماية المماليك الصالحية لقتلها قطز وأعوانه بعد موت أيبك مباشرة ، وقبل أن يعلن موته(٢) .

وكان لأيبك ولد عمره خمسة عشر عاماً ، واسمه نور الدين على ابن أيبك ، ولقبه المنصور ، فاتفق الأمراء على أن يختاروه خلفاً لوالده ، واستطاع مماليك أيبك أن يضعوا في المناصب المهمة الأشخاص الذين يعتقدون أنهم سوف يساعدونهم في خططهم ، وأبعدوا أولئك الذين شعروا أنهم سوف يقفون عقبة في طريقهم . وأول عمل قاموا به التخلص من شجرة الدر ، ففي السابع والعشرين من ربيع الثاني عام ٦٥٥ هـ (١٤ مايو ١٢٥٧ م) قتلها جواري زوجة أيبك الثانية ، والدة السلطان الحاكم(٣) .

٤ ـ سيف الدين قطز :

كان أحد مماليك أيبك ، ويقال أن اسمه في الأصل محمود بن مودود ، وأن أباه ابن عم السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأن أمه كانت

(١) السلوك ١٠٣/١ .
(٢) السلوك ٤٠٣/١ .
(٣) السلوك ٤٠٤/١ .

أخته(١) وأن التتار بعد هزيمة خوارزم شاه أخذوه وباعوه لشخص يدعى ابن الزعيم ، وربما تم هذا في دمشق ، ومن ثم نقل إلى القاهرة . وقد تزعم فيما بعد مماليك أيبك ، وأصبح يده اليمنى أثناء اصطدامه مع المماليك البحرية ، والفترة التي تلت ذلك . وقد احتل منزلة مهمة في البلاط أيام حكم الملك المنصور(٢) ورغم أنه لم يكن أتابكاً للسلطان الجديد إلا أنه كان السبب في تعيين الأتابك فارس الدين أقطاي(٣)المعروف بالمستعرب . والدور الذي لعبه قطز جعله ينظر إلى نفسه على أنه أحق بالملك من السلطان القاصر ، لنضجه هو وخبرته في المسائل السياسية والحربية(٤) .

ودولة المماليك في مصر تدين بالفضل لقطز وزملائه في الوقوف في وجه المغيث ، صاحب الكرك(٥) . ولم يكن هذا هو الخطر الوحيد الذي هددها من ناحية الشرق ، وإنما كان هناك خطر التتار الذي بدأ يظهر في هذه الحقبة . وقد أدرك قطز مدى هذا الخطر ، وعرف أن قوة حربية مثل القوة التي يستطيع التتار أن يرسلوها لا يمكن بحال من الأحوال أن تقابلها حكومة يحكمها قاصر . فانتظر قطز الفرصة ليمسك بزمام السلطة ، وكان يعرف أنه ليس من السهل عليه أن ينفذ مثل هذه الخطة ما دام هذا العدد من القواد المهمين في المدينة ، لهذا أسرع عندما خرج أكثرهم لرمي البندق في شهر القعدة عام ٦٥٧ هـ (أكتوبر – نوفمبر سنة ١٢٥٩ م) ، فخلع السلطان ، وأعلن نفسه في مكانه ، واعتقل القادة عندما عادوا من رحلة الصيد(٦) .

٥ – نشاط بيبرس في الشام :

بعد أن ترك بيبرس مصر في عام ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ – ١٢٥٥) م ومعه بعض قواد المماليك اتجه إلى الشام ، فرحب به الملك الناصر صلاح الدين ،

(١) السلوك ٤٣٥/١ .

(٢) السلوك ٤٠٥/١ .

(٣) هوغير فارس الدين أقطاي ، قائد البحرية ، الذي مر خبر قتله في القلعة في زمن أيبك . وفارس الدين هذا لعب دوراً إيجابياً في تعيين بيبرس سلطاناً فيمابعد .

(٤) السلوك ٤١٧/١ ، ومفرج ٣٩٢/٢ .

(٥) الروض م/٩ .

(٦) السلوك ٤١٧/١ ومفرج ٣٩٢/١ .

حاكم دمشق ، وكان يطمع في أخذ مصر ، فحاول بيبرس أن يغريه بمهاجمة أيبك ، وأثمرت المحاولة ، وانتهى الأمر بغزوة باءت بالفشل . ثم نجح الخليفة العباسي في بغداد(١) في عقد صلح بين حكام مصر وسوريا ، فأقلق هذا بيبرس وزملاءه ، ولعله صحيح ما يقال من أنه على أثر هذا الصلح اتصل أيبك بالناصر ، وحذره من بقاء بيبرس في بلاطه(٢) ولهذا لاحظ بيبرس ومن معه من البحرية تغيراً من الناصر في معاملته معهم (٣) فخشي أن يقبض عليه ، فهرب إلى الكرك ، ملتجئاً إلى حاكمها الملك المغيث ، وكان يعرف عنه طموحه في أخذ وادي النيل .

وبعد وصول بيبرس إلى الكرك بوقت قصير قاد قوة مكونة من سبعمئة من أتباعه ، وهاجم أرض مصر ، ولكنه أيضاً هزم(٤) ، وكان مصمماً على مضايقة أعدائه في القاهرة ، وفي نفس الوقت لعله فكر أن يشغل أتباعه ، ولا يقطع أمل سيده الجديد في أخذ مصر ، فهاجمها مرة أخرى(٥) وتوغل في هذه المرة إلى غزة ، وأقنع الملك المغيث أن ينزل من الكرك ، ويستعرض جنده ، ومع أنه انضم إليه عدد من الجنود المصريين الذين كانوا قد هربوا من مصر إلا أنه هزم أيضاً على يد قطز(٦) .

وقد فقد ثقة الملك المغيث بعد هذه الهزيمة ، فكانت مقابلته له بعدها فاترة(٧) ، ولم يجد عنده قبولا للخطط التي عرضها عليه بعد ذلك . لقد كان بيبرس قائد فرقة حربية لا يبقى على تماسكها إلا الحركات الحربية ، ولكنه ، وقد دحرته قوات قطز مرتين ، لم يكن باستطاعته تحت خدمة سيده الحالي المغيث أن يقدم على أي عمل حربي ضد مصر . وحالته المالية والحربية والسياسية الحاضرة لا تسمح له حتى بمهاجمة الافرنج . ولم يبق له من مجال إلا أن يقوم بغارات ضد أراضي الناصر ، صديقه السابق ،

---

(١) الروض م/٧ .

(٢) السلوك ٣٩٣/١ والروض م/٨ .

(٣) الروض م/٧ .

(٤) الروض م/٧ .

(٥) وكان قد انضم إليه عدد من البحرية الذين هربوا من مصر ، فملاوا ثغرات عنده ، وكانت قد أوجدتها الغزوة السابقة .

(٦) الروض م/٩ .

(٧) الروض م/١٠ .

وعدوه الحالي . فهاجم بيبرس أراضيه في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ – ٥٩ م)(١)، أيام أن كان الناصر يفاوض حاكم مصر لعقد صلح بينهما ، وتوغل بيبرس في أراضيه حتى وصل إلى جوار دمشق ، وهزم قوة أرسلها إليه الناصر ، وكانت تعتبر أكبر من القوة التي كانت معه . ورد له هذا النصر بعض السمعة التي فقدها في هزائمه السابقة المتتالية على مصر ، ونجح في إزعاج الناصر الذي اضطر إلى اتخاذ إجراءات ضخمة ليقابل هذا الخطر الجديد ، وكان من بين استعداداته نزوله إلى الميدان بنفسه وانضمامه إلى عسكره . وقد نتج عن تصرفات بيبرس هذه أن تأثرت علاقة الناصر بالمغيث .

وفي هذه الأثناء بدأ خطر غزو التتار للشام يزداد ، ونتيجة لذلك وجدت الفئات المتنازعة أن عليها أن تتفق لتواجه الخطر الداهم المقبل ، فتم الصلح بين الناصر والمغيث ، وعفى الناصر عن بيبرس ، ووافق المغيث أن يسلم من عنده من البحرية للناصر(٢) .

٦ – عقد الصلح بين قطز وبيبرس :

إجتاح الشام رعب عظيم عندما اقترب التتار منه ، فرأى الناصر والمغيث أن يتوددا لهولاكو ، وكان بيبرس في هذه الأثناء في بلاط الناصر ، ولم يكن في يوم من الأيام من أنصار مهادنة التتار ، ولهذا اقترح مرة على الناصر أن يرسله على رأس قوة لمهاجمة التتار النازلين على بالس ، فرفض الناصر ولم ينجح بيبرس في إقناعه(٣) ولعل السبب في هذا أن الناصر كان يؤمل أن يصل إلى إتفاق مع التتار ، دون أن يلجأ إلى السلاح ، أو لعله لم يكن واثقاً من نجاح بيبرس مع فرقة صغيرة ضد التتار ، خاصة بعد انهزامه الأخير أمام المصريين ، أو لعله كان خائفاً على مركزه من بيبرس فيما لو انتصر ، وقد أدرك بيبرس من تردد الناصر أنه لا يتوقع منه القيام بعمل إيجابي ضد التتار(٤) .

كان التتار في هذه الأثناء يتقدمون نحو حلب ، وإذا ما سقطت هذه المدينة فسوف يكون الطريق إلى دمشق وجنوب الشام مفتوحاً أمامهم ، لهذا

(١) الروض م/١٠ .
(٢) الروض م/١١ .
(٣) الروض م/١٠ .
(٤) الروض م/١١ .

هرب الناصر من دمشق إلى برزه ، جنوب دمشق ، في أواخر عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وتبعه عدد كبير من الجنود والأهالي . وتأكد لبيبرس وبعض مماليك الناصر أنه لا ينتظر منه مقاومة ، فقرروا أن ينحوه ، ويضعوا مكانه شخصاً باستطاعته قيادة الجيش ضد التتار ، فتسربت هذه الأخبار إلى الناصر ، فهرب إلى قلعة دمشق(١) إلا أن بعض الأمراء أقنعوه بالعودة ، مما اضطر بيبرس إلى المغادرة إلى غزة ، حيث استقبله الشهرزورية ، ورحبوا به(٢) ويشير أبو الفداء إلى أن بيبرس ، وبعض المماليك الذين هجروا الناصر حاولوا أن يواصلوا تنفيذ خطتهم ، لإنقاذ الموقف ، فينصبوا الملك الظاهر غازي ، أخا الناصر ، سلطاناً في منطقة غزة في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ –٥٩م).

كل هذا والناصر يؤمل أن يصل إلى اتفاق مع التتار ، ومن بين ما عرضه عليهم أن يحكم الشام باسمهم ، رغم أنه لم يكن واثقاً منهم ، إلا أنه أيضاً لم يكن واثقاً من قطز في مصر ، إذ أن المماليك عندما وضعوا يدهم على حكم مصر تطلعوا إلى ضم الشام إليها ، ولهذا كله لما بدأ التتار زحفهم على الشام ، واضطر الناصر إلى ترك دمشق ، متجهاً إلى جنوبها ، لم يجرؤ أن يسير إلى مصر ، وأضاع وقته متلكئاً في الصحراء جنوب فلسطين . وبعد أن سقطت دمشق في يد التتار اضطر أن ينضم إليهم ، فأرسلوه إلى بلاط هولاكو ، ايلخان فارس(٤) .

يئس بيبرس من حكام الشام ، وأخذ يبحث عمن يمكنه أن يصمد معه للتتار ، فكانت مصر هى الدولة الوحيدة التي كانت قد استعدت لمقاومة

---

(١) المختصر ٢٠٩/٣ والسلوك ٤١٩/١ .

(٢) يقول عنهم المقريزي في السلوك ١٢/١ « وفيها (سنة ٦٥٦ هـ) فر طائفة من عسكر هولاكو ، يقال لهم الشهرزورية ، وقدموا دمشق ، وعدتهم نحو ثلاثة آلاف ، ومعهم أولادهم ونساؤهم ، فسّر بهم الملك الناصر ، واستخدمهم ليتقوى بهم ، فزاد عنتهم ، وكثر طلبهم ، حتى خافهم ، وأخذ يداريهم ، وما يزيدهم ذلك ألا تمردا عليه ، إلى أن تركوه ، وساروا إلى الملك المغيث بالكرك » . انظر أيضاً مادة الشهرزورية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) المختصر ٢٠٩/٣ .

(٤) نفى التتار الناصر إلى فارس ، فلما هزموا على عين‌جالوت (راجع ماسيأتي ص ٢٥) اتهم هولاكو بأنه غرر به ، حين هون في نظره قوة الجيش المصري ، وحمله مسؤولية الهزيمة ، فقتله هو وعدداً من عائلته .

المغيرين ، وجيشها محتفظ بهيبته ، وحاكمها قد أعلنها صريحة بأنه لا مكان في سياسته لمصالحة التتار رغم تهديداتهم(١) ، ولهذا لجأ إليها عدد كبير من العسكريين الذين سبق لهم أن اصطدموا حربياً بالتتار ، وكانت علاقة بيبرس بحاكم مصر ، كما أسلفنا ، سيئة جداً ، فقطز هو الذي اغتال أقطاي ، زميل بيبرس في الجندية ، وبيبرس كان طوال السنوات التي مرت يحرض حكام الشام على حكومة مصر ، وقاد الجيوش ضدها أكثر من مرة ، إلا أنه رغم كل هذا ، فالتتار عدو مشترك وخطير ، وانتصار هذا العدو يعني نهاية بيبرس وقطز ، ولهذا لم يكن مستغرباً أن يتقدم بيبرس باقتراح للصلح مع قطز ، وتكوين جبهة موحدة ضد التتار ، وقد قبل قطز هذا الاقتراح ، ورضي أن ينسى مؤقتاً النزاع القديم ، أمام هذا الخطر الجديد(٢) .

وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن وصل بيبرس إلى مصر يوم ٢٢ ربيع الأول ٦٥٨ هـ (٧ مارس ١٢٦٠ م) فاستقبله قطز نفسه ، وأقطعه ناحية قليوب(٣) مدللا بذلك على صفاء الجو بينهما . وقد كان قطز ، في هذه الفترة ، على اختلاف مع بعض القادة في مصادقة التتار ، لأن بعض هؤلاء القادة كان متردداً في خوض المعركة ضدهم لما سمعه عن قوتهم المخيفة ، وأعمالهم الرهيبة في شمال الشام(٤) خاصة وأن بعض الذين وصلوا أخيراً من الشام ، هرباً من التتار ، وصلوا ومعهم أخبار مغالا فيها عن قوة التتار ، وخططهم الحربية ، فثبط هذا من بعض العزائم ، لهذا ولأن قطز كان مصمماً على الوقوف في وجه التتار ، فلا بد أنه فرح أن ينضم إلى صفة شخص متحمس مثل بيبرس . وبمساعدة بيبرس فقط استطاع قطز فعلا أن يكمل استعداداته الحربية ، وأن يتحرك من القاهرة في الخامس عشر من شعبان عام ٦٥٨ هـ (٢٦ يوليه ١٢٦٠ م) (٥) .

---

(١) عندما راسله التتار قتل رسلهم ، ليقطع أي أمل في الصلح معهم ، (السلوك ٤٢٧/١) فكانت هذه ضربة قاسية وجهها إلى سمعتهم ، وقد بقيت في ذاكرتهم مدة طويلة ، واتخذوها حجة على بيبرس في وقت لاحق عندما تسلطن . راجع الروض ١٢٦ .

(٢) ابن خلدون العبر ٣٨٠/٥ .

(٣) السلوك ٤٢٦/١ .

(٤) السلوك ٤٢٦/١ .

(٥) الروض م/١٢ .

٧ ـ موقعة عين جالوت :

أكمل التتار الاستيلاء على حلب ودمشق دون أن يخسروا معركة واحدة(١) وبدأوا يستعدون للتقدم إلى مصر إلا أن هولاكو قائدهم اضطر إلى العودة إلى الشرق نتيجة لوفاة الخاقان منجو(٢)، فبقيت قوة التتار تحت قيادة كتبغا، وقد جمع هذا قواته عندما سمع بتحرك قطز من مصر، واستعد لملاقاته(٣).

وقد ترك قطز القاهرة في أواسط شعبان عام ٦٥٨ هـ (أواخر يولية ١٢٦٠م)(٤) وبعث بيبرس كشافاً للجيش إلي غزة مع فرقة من الجيش. وكان التتار معسكرين هناك، فلما سمعوا بمقدمه انتقلوا إلي مكان في الغور، ولعلهم كانوا يعتقدون أن مكانهم في غزة لايصلح مجالا لمعركة. وقد احتل بيبرس غزة في الحال، ثم لحق به قطز مع الجيش الرئيسى(٥) وكان على قطز، قبل أن يتقابل مع التتار، أن يتأكد أن الأفرنج المقيمين في سواحل الشام سوف لا يستغلون فرصة انشغاله مع التتار فيهاجمونه، وكان الأفرنج قد رأوا بعض أعمال التتار، فأقلقهم جوارهم المخيف(٦)، ولهذا لما طلب منهم قطز أن يكونوا على الحياد رحبوا، بل عرضوا المساعدة ببعض الجند إلا أن قطز رد عرضهم، لأنه في الغالب لم يكن ليثق بهم(٧).

لم يكن الجيش الإسلامي يعرف بالضبط الموقع الذي فيه التتاو(٨)، ولهذا أرسل قطز بيبرس مع طليعة من الجيش، ليحددوا موقع العدو(٩) فترك بيبرس منطقة عكا التي كان قد وصل إليها للتجسس والتحري،

---

(١) المختصر ٢١٤/٣.

(٢) السلوك ٤٢٧/١.

(٣) السلوك ٤٣٠/١.

(٤) الروض م/١٢.

(٥) السلوك ٤٢٦/١، وجامع التواريخ ٧٤/٣.

(٦) راجع رنسمان، تاريخ الصليبيين ٣٠٨/٣، ٣١١، وستيفن، الصليبيون في الشرق ٣٣٣.

(٧) السلوك ٤٢٩/١.

(٨) الروض ١.

(٩) شافع، حسن المناقب ٥، والسلوك ٤٢٩/١.

واستمر في سيره إلى أن جاء على طليعة جيش التتار ، فهاجمها ، وهزمها(١)، ووجد أن جيش التتار الرئيسي مقيم على عين جالوت ، فأرسل إلى قطز من يخبره بذلك . وفي الليلة التي بقي فيها بيبرس ينتظر وصول قطز مع بقية الجيش الإسلامي اتخذ بيبرس مركزه على جبل يطل على السهل الذي عسكر فيه التتار ، واستمر في مراقبتهم ، ونزل أثناء النهار لمناوشتهم(٢) ولم يلبث قطز أن وصل ومعه الجيش الرئيسي . وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة ٢٥ من رمضان عام ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر ١٢٦٠ م) تقابل الجيشان في استعداد للمعركة في السهل ، وكان موقف التتار في أسفل الجبل(٣) ، زيادة في التحصن ، وبدأت معركة حامية الوطيس ، لم تلبث معها ميسرة الجيش الإسلامي طويلا حتى اختل نظامها ، فلاحظ قطز ذلك ، فحث جنده ، وقاتل معهم مستميتاً ، واستطاع في النهاية أن يعيدهم إلى أماكنهم ، وإلى تنظيمهم السابق(٤) ويشيد ابن عبد الظاهر ، مؤلف سيرة بيبرس أيضاً بما أظهره بيبرس من شجاعة في هذه المعركة ، ويقول أن شجاعة بيبرس أوحت إلى الجند بأن يتقدموا ، ويزحفوا على العدو . وانتهت المعركة بانتصار المسلمين في ذلك اليوم ، وانهزام التتار انهزاماً ذريعاً ، أجبرهم على الهرب ، فأخذ المسلمون ساقتهم ، وتعقبوهم وعلى رأسهم بيبرس(٥) .

حاول التتار أن يلموا شعثهم ، ويعيدوا الكرة ، ليستعيدوا النصر ، فجمعوا قوتهم في بيسان ، حيث نشبت معركة ثانية ، وصفها المقريزي بأنها أشد من سابقتها . وفي هذه المعركة أيضاً اختل نظام الجيش الإسلامي ، وتشكيله ، أمام هجوم التتار العنيف ، وللمرة الثانية بذل قطز مجهوداً جباراً ليعيد الجيش إلى ما كان عليه من نظام ، وتم له ذلك ، وكسب للمسلمين النصر للمرة الثانية(٦) ويبدو أن هذه ليست آخر هزيمة للتتار في هذه الحملة ،

---

(١) السلوك ٤٣٠/١ .

(٢) الروض ١ والسلوك ٤٢٩/١ .

(٣) السلوك ٤٣٠/١ .

(٤) السلوك ٤٣٠/١ والذيل ٣٥/٢ ، راجع أيضاً رشيد الدين ، جامع التواريخ ٧٤/٣ .

(٥) الروض ٢ والسلوك ٤٣٠/١ .

(٦) السلوك ٤٣١/١ .

فهناك وقعة ثالثة مني فيها التتار بالهزيمة في الشمال على يد بيبرس ، عندما وجدهم قد جمعوا فلولهم في أفامية ، فأوصلهم بمطاردته لهم إلى حارم(١) .

ولعل هناك عاملين ساعدا على انتصار المسلمين في عين جالوت : الأول اكتمال استعداد الجيش الإسلامي ، أمام جيش التتار ، مما شد من روح المسلمين المعنوية ، وكانت قد تأثرت بسمعة التتار بأنهم لا يغلبون . والثاني اشتراك فرقة البحرية التي كانت موقعة عين جالوت بالنسبة لها أول مواجهة لها مع التتار ، ولا بد أن ما عرضته فرقة البحرية في المعركة من فنون الحرب ، وما بدا من تدريبها الممتاز قد فاجأ التتار الذين أعطتهم المعارك مع المسلمين في شمال الشام فكرة خاطئة عن قوة الجيش المصري .

أما مدى إدراك المسلمين لأهمية موقعة عين جالوت ،ومدى تقديرهم للنصر الذي أحرزوه ، فلعل أصدق شيء يمثله ما قام به بيبرس من تصميمه على تخليده بوضع تذكار على مكان المعركة(٢) .

وقد أعاد انتصار المسلمين هذا عليهم الثقة التي كانوا قد فقدوها ، ولا بد أن حكامهم في الشام ومصر قد أدركوا أنه بالاتحاد ، والتنظيم المتقن ، وإدخال تطورات جديدة على فن الحرب عندهم ، تستطيع جيوشهم أن تقف على الأقل في وجه التتار في أي معركة يخوضونها . ولا بد أن بيبرس خاصة ، وهو من عرف بطموحه قد وثق بأن الجيش الإسلامي إذا ما جهز بالمعدات اللازمة ، وتدرب طبقاً لمايتطلع إليه هو، يستطيع أن يعيد للمسلمين ما سلب منهم من أراض . على أي حال ، هذا النصر قد أعاد الطمأنينة إلى نفوس الناس في الأراضي الإسلامية ، خاصة بين أهل الشام ، إذ أنهم بدءوا يعودون إلى أوطانهم .

ومعركة عين جالوت لم تكن نهاية الكفاح ضد التتار ولكنها أبعدت اليأس الذي كان قد خيم إلى ما قبل المعركة على البلدان الإسلامية ، أما التتار فما لبثوا أن حاولوا أن يثأروا لأنفسهم ، فهيأوا قوة عظيمة لقتال المسلمين إلا أنهم قاوموهم من كل صوب ، بجيوش متجمعة ، وجيوش منفردة(٣) .

---

(١) الروض ٢ .

(٢) الروض ١١ .

(٣) الروض ١٤.

الفصل الثالث

تولى بيبرس السلطة

أولا – إستيلاؤه على الحكم :

أصبح قطز حاكم مصر والشام بعد أن هزم التتار في عين جالوت ، ولهذا سار إلى دمشق ، لينظم أمور الشام(١) ، وعين بعض الأشخاص ، ومن بينهم حاكماً لحلب ، ولعل هذا التعيين نبش العداوة القديمة التي كانت بينه وبين بيبرس ، لأنه قيل أن قطز ، قبل موقعة عين جالوت ، كان قد وعد بيبرس أن يعينه حاكماً على حلب ، وما يتبعها من البلدان ، وإذا صح أن هذا قد حدث فعلا ، فقد يكون قطز في ساعة يأس ، أو استجلاب لبيبرس ، قد وعده بذلك ، وأمل أن المعركة ربما تكفيه مؤونة الوفاء بوعده له ، أما وقد عاش بيبرس فإن بر قطز بوعده يساعده على تقوية بيبرس ، بإعطائه حصناً منيعاً بعيداً عن القاهرة ، وهى منحة خطيرة يظهر أثرها لو أراد بيبرس أن يخرج عن طاعته ، لهذا لم يف قطز بوعده ، وبدلا من توليته حاكماً على مدينة حلب ، عين علاء الدين الحاكم السابق للموصل . وقد أثار هذا حفيظة بيبرس ، كما قيل ، إلى الحد الذي جعله يقرر أن يشهر السلاح في وجه قطز ، وقد توقع قطز هذا منه ، ولهذا فبدلا من أن يتجه إلى شمال الشام لتنظيم بعض الشؤون الإدارية الأخرى ، كما كان مقرراً ، أسرع بالعودة إلى مصر ، ومعه بيبرس(٢) .

ومن الصعب أن يعتقد الإنسان أن مسألة عدم تعيين بيبرس على حلب هى السبب الرئيسي للعودة إلى العداوة بين بيبرس وقطز ، وأن كان لا يستبعد أنها خطوة هامة في اختبار بيبرس لنية قطز ، بعد الصلح الأخير ، ومظهر لانعدام الثقة بينهما . ولكن هناك أسباباً عميقة الجذور ، جعلت

---

(١) السلوك ٤٣٢/١ .

(٢) المواعظ ٣٠١/٢ .

الاختلاف بينهما شيئاً لا بد منه ، وخاصة أن كلا منهما طموح إلى بلوغ أرفع المناصب ، ولن يسمح بوقوف أي معارضة في طريقة . وقد اختفى الآن السبب الذي أوجب الصلح بينهما ، ولم يبق أحدهما في حاجة إلى مساعدة الآخر ، فظهرت العداوة القوية ذات الجذور العميقة على أثر تعيين حاكم لحلب .

ولم يكن أفراد فرقة البحرية لينسوا أن قائدهم أقطاي لقى حتفه على يد قطز(١) ، أو يثقوا من أن قطز لن يضرب ضربة أخرى ، وقطز يعرف البحرية ، وشعورهم العدائي نحوه ، ويعرف أنه سوف يضطر إلى مقاومة معارضتهم قرب الزمان أو بعد . وكان قائدهم في السابق أقطاي ، والآن بيبرس ، وهذا عدو أخطر ، وما وصل قطز من أخبار عن تذمر بيبرس ، وما يبيته جعل قطز يصمم على العمل على التخلص منه بأسرع وقت ممكن(٢).

لم تكن الشام وموقعها خير مكان للتخلص من بيبرس ، لأن قطز بعد التعيينات التي أجراها لم يعد واثقاً من ولاء القواد الذين معه ، وكان يخامره الشك حتى في ولاء بعض قواده المقربين ، وهم المسموح لهم بالسكن معه في القاهرة(٣) ولذا فالقاهرة هي المكان الوحيد المناسب للانقضاض على بيبرس ، وهذا هو سبب سرعة عودة قطز إلى مصر .

وقد أخبر بيبرس بنية قطز نحوه ، فأخذ حذره منه ، وترقب الفرصة ليتخلص من قطز وهما في طريقهما عائدين إلى مصر(٤) ، ولعله وجد أن أضمن فرصة لقتله هي في الانقضاض عليه في الطريق قبل أن يصل إلى مصر . ولا يعرف ما إذا كان قد نظم الخطة لهذا قبل أن يترك دمشق أو بعد أن تركها .

سار قطز إلى مصر مع جيوشه ، وبدا الأمر أن بيبرس لن يستطيع تنفيذ خطة الاغتيال ، إلا أن الفرصة سنحت يوم الخامس عشر من ذي العقدة

---

(١) ابن خلدون ، العبر ٣٨٠/٥ .

(٢) المواعظ ٣٠١/٢ .

(٣) يقال أن من بين المتآمرين مع بيبرس على اغتيال قطز سلاح دار قطز ، حسن المناقب ، ٨ .

(٤) المواعظ ٣٠١/٢ .

عام ٦٥٨ هـ (٢٢ أكتوبر ١٢٦٠ م) (١) عندما جنح قطز وبعض قواده عن الطريق العام للصيد(٢) بعد أن تركوا الغوالي بجوار الصالحية ، ولا يعرف بصورة مؤكدة ما إذا كان للمتآمرين يد في اقناعه بالصيد ، إلا أن المعروف أنهم لم يضيعوا الفرصة لتنفيذ خطتهم ، فأطلقوا أرنباً كانوا يخفونه ، فظنه قطز برياً ، فانطلق خلفه(٣) ، فساق المتآمرون خلفه ، وهجموا عليه ، وقتلوه ، وهو في طريقه عائداً من هذا الصيد(٤) .

وأثار قتل قطز مشكلة تولي الملك من جديد ، ولم يمر وقت قبل أن تتخذ الخطوات الضرورية لاختيار السلطان الجديد ، وكان الجزء الأكبر من الجيش ، وكذلك القواد الذين أبعدوا في الصيد (٥) قد تأخروا عن الوصول إلى المعسكر الذي نصبت خيامه في المرحلة الثانية كالمعتاد ، ليجده السلطان جاهزاً عند وصوله . فسبق بيبرس ورفاقه إليه ، واجتمعوا بالقواد الذين وصلوا معهم ليختاروا سلطاناً ،وكان من بين المجتمعين أحد كبار القواد ،واسمه الرشيدي ، وكان أيبك قد سجنه في الإسكندرية ، ثم أطلقه قطز قبل خروجه إلى التتار(٦) وكان الرشيدي بجانب كبر سنه يتمتع باحترام زائد من رفقائه ،

---

(١) السلوك ٤٣٥/١ ، وللمقارنة راجع المختصر ٢١٦/٣ فهويذكر أنه قتل يوم ١٧ ، واليميني في الذيل ٣٠/٢ يذكر أن يوم ١٦ هو يوم مقتله .

(٢) السلوك ٤٣٥/١ .

(٣) حسن المناقب ٨ .

(٤) وتختلف المراجع في تفاصيل الطريقة التي قتل بها قطز ، فالقاضي محي الدين مثلا يصر على أن بيبرس قام وحده بقتل قطز ، وفي وسط الجيوش (سيرة بيبرس م/١٤) إلا أن شافع (ورقة ٨) يرد هذا ، ويذكر أن الذي قتل قطز هو سلاح داره ، فهو الذي ضرب الضربة الأولى ، وأن بيبرس لما رأى ضعف الضربة أكمل قتله ، أما التغري بردي ، فيذكر أن المتآمرين اشتركوا جميعاً في القتل ، كل بالسلاح الذي معه (النجوم ٨٣/٧) « راجع الروض ص ٠٠ عن رأي محي الدين وشافع » .

(٥) وهذا دلت عليه جملة في الروض الزاهر إذ أن الأتابك أشار على بيبرس ألا ينتظر بقية الجيوش ، و الأفضل أن يسير إلى مصر في الحال ، ويتأكد من الاستيلاء على القلعة ، ويترك الحلقة تظن أن قطز راكب مع الأمراء ، والأمراء يظنون أنه مع الحلقة . الروض ٤ .

(٦) حسن المناقب ٩ .

فكادوا يختارونه سلطاناً ، لولا أن الأتابك فارس الدين أقطاي(١) ، وكان حتى هذه اللحظة معوقاً في خيمة نائية ، دخل فجأة إلى خيمة الاجتماع ، واستطاع أن يقنع المجتمعين بأن يختاروا بيبرس سلطاناً . وحجة فارس الدين أن بيبرس أكد أنه قام وحده بقتل قطز ، وقانون الترك ينص على أن من قتل ملكاً أصبح هو الملك (٢) وكان بعض القادة الحاضرين مع الرشيدي في السجن ، ومروا بالاجهاد الذي مربه ، فلما طلب منهم بيبرس أن يبايعوه أسرع الأتابك ، خوفاً من أن يرفضوا ، فاقترح على بيبرس أن يعدهم أولا أنه سوف يسرع في إزالة أسباب تظلمهم ، ولعل قصد الأتابك من هذا أن يعيد لهم إقطاعاتهم ، ويوفي عنهم ديونهم ، وما إلي ذلك ، فوافق بيبرس على هذا ، فبايعه الحاضرون قواداً وجنداً .
واهتم بيبرس في استحصال بيعة القادة الذين لم يصلوا إلى المعسكر ، فاقترح الأتابك عليه ألا ينتظر ، وأن يسير الى قلعة القاهرة رأسا ، لأن الاستيلاء عليها مهم جداً (٣) فأخذ برأيه ، وتسلم مندوبو بيبرس القلعة ، أما بقية قواد الجيش فقد تمت بيعتهم لبيبرس عندما وصلوا إلى القاهرة فيما بعد(٤) .

---

(١) ويعرف بالمستعرب ، مما يفرقه عن فارس الدين أقطاي قائد البحرية المقتول أيام أيبك .

(٢) حسن المناقب ٩

(٣) قلعة الجبل في القاهرة كانت مقراً لسكنى السلطان ومماليكه ، تحميه من العصيان المفاجيء ، ومن هجوم الأمراء المنافسين ، وقد جرت العادة ، إذا ما سافر السلطان ، أن يكل أمرها لأمير يثق به ، ويترك معه حامية قوية لحفظها ، لأن السلطة دائماً في يد من يستولي على القلعة ، ولهذا يحرص كل سلطان ألا يسكن معه فيها إلا من وثق من ولائه ، فمثلا لما طلب فارس الدين إقطاي ، قائد البحرية أن يسكن مع أيبك في القلعة ، رفض أيبك الطلب ، لأنه لم يكن واثقاً من أقطاي ، واعتقد أن طلبه هذا تمهيد للاستيلاء على القلعة (راجع ما سبق ص ١٦) .

(٤) الروض ٤ .

ثانيا – سياسة بيبرس الداخلية :

لم يرض تولي بيبرس السلطنة جميع الناس ، وإن لم يبد أغلبهم معارضة ظاهرة ، إلا أن هناك من لم يكن مسروراً من عودة البحرية إلى السلطة لأن البلاد سبق أن عانت الكثير من تعنتهم بعد وفاة الصالح أيوب(١) .

(أ) العداء بينه وبين الحلبي

كانت هناك معارضة شديدة وسافرة لبيبرس في كل من دمشق وحلب ، ولعل لبعدهما عن القاهرة أثر في اطمئنان من فيهما إلى عدم إمكان إتخاذ خطوات سريعة ضدهما من قبل حكومة القاهرة ، وقد تزعم المعارضة الأولى علم الدين الحلبي ، حاكم دمشق من قبل قطز . وكان الحلبي أتابكا للملك المنصور في القاهرة ، مما جعله حينئذ من أهم المنافسين الخطرين لقطز (٢) ، ولهذا قرر قطز تعيينه حاكماً لدمشق ، إبعاداً له ، بطريقة فيها تبجيل له ، ورفع لمقامه ، وإشباع لطموحه(٣) ، وأصبح بإمكان قطز أن يفكر بإدارة أمور المملكة دون تدخل من الحلبي ، بفرضه وجوده في العاصمة ، وأهميته بين القادة . وقد يكون من بين أسباب معارضة الحلبي لتولي بيبرس السلطة ما كان قطز قد وعد به القادة عند خروجه للتتار من أنه بعد عودته من هذه الحملة سوف يترك لهم اختيار السلطان(٤) . والآن بعد أن مات قطز ، وهزم التتار ، فقد أصبح بإمكان الحلبي أن يجد سبباً للمطالبة بما سبق أن تطلع إليه ، خاصة وأنه غير واثق من علاقته المقبلة مع بيبرس ، وعما إذا كان سوف يبقيه في مركزه أم لا .

وقد حدث في أول عهد بيبرس أن الحلبي قد قرر خطأ أن سلطة بيبرس لن تدوم ، فنصب نفسه سلطاناً ، لمدة محدودة من شهر ذي الحجة من عام ٦٥٨هـ (نوفمبر – ديسمبر ١٢٦٠م) (٥) ، ثم عاد فتردد بين الاعتراف ببيبرس وبين الاستقلال بدمشق .

---

(١) السلوك ٣٨٠/١ ، ٤٣٧ . والنجوم ٩/٧ . والنويري النهاية ٢/٢٩ .

(٢) مفرج ١٢١/٢ ، ١٢٢ (المكتبة الوطنية بباريس ، عربي ١٧٠٣) .

(٣) الروض ١٢ .

(٤) السلوك ٤١٨/١ .

(٥) الروض ١٣ ، السلوك ٤٣٨/١ .

لم يكن بيبرس في هذه الأثناء في موقف يسمح له بأن يلجأ إلى القوة ، فاضطر إلى الاكتفاء بالوعد والوعيد ، لاجتذاب الحلبي ، وتركه ما هو فيه من عصيان ، إلا أن هذا لم يأت بثمرة ، فاضطر بيبرس في آخر الوقت إلى القوة . وكان القائد علاء الدين أيدكين حينئذ ، مقيماً في دمشق ، وكان من أتباع بيبرس ، فأعلن هو وبعض القادة ولاءهم لبيبرس ، وخرجوا عن دمشق ، فألحقهم الحلبي قوة ما لبثوا أن هزموها(١) ، فأتبعها الحلبي بأخرى قادها بنفسه فهزمت أيضاً ، وأجبر على العودة إلى دمشق ، والالتجاء إلى قلعتها . وكان بيبرس طوال هذه المدة يرسل للقواد في دمشق التشاريف(٢) والأموال ، اجتذاباً لهم(٣) فساعد هذا ، مع الهزيمتين اللتين مني بهما الحلبي ، وما تبع ذلك من تزعزع ثقة مناصريه فيه ، على القضاء على سمعته . وأصبح في خطر من بقائه في دمشق ، فهرب إلى قلعة بعلبك ، فقبض عليه هناك ، وأرسل إلى بيبرس في مصر(٤) . وسجن بعض الوقت ، ثم أطلق سراحه ، وعين في منصب مناسب(٥) .

(ب) إختلافه مع العزيزية والناصرية

بقي مماليك الناصر حاكم دمشق ، العزيزية والناصرية ، بدون سيد ، بعد انسحاب التتار ، وموت الناصر . وأصبح عليهم أن يقرروا مصيرهم . فلما تولى بيبرس السلطة عاملهم بحذر شديد ، لأنه سبق لهم أن أظهروا ما يدل على نزعتهم إلى الاستقلال ، وذلك عندما خلعوا الملك السعيد ، وكان قطز قد عينه والياً على حلب ، واختاروا مكانه واحداً منهم ، اسمه حسام الدين الجوكندار العزيزي(٦) ولم يتخذ ضدهم بيبرس ، أثناء نزاعه مع الحلبي ، أي إجراء ، بل اعترف بقائدهم ، ولم يختلف موقفه معهم إلا بعد أن أخذ دمشق ، وأصبح بإمكانه أن يخطط للاستيلاء على بقية الشام .

وكان قطز ، قبل سفره إلى الشام قد عين البرلي حاكماً لغزه والساحل الشامي ، فلما تولى بيبرس الحكم لم يقتصر على تثبيته في مركزه ، وإنما أبدى عطفه عليه بأن زاد في إقطاعه(٧) ، وأمره أن يشترك مع أيدكين في

---

(١) الروض ١٣ .

(٢) جمع تشريف ؛ رمز من التكريم .

(٣) السلوك ٤٤٤/١ .

(٤) الروض ١٣ .

(٥) عين حاكماً لحلب ، الروض ١٤ ، الذيل ٩٢/٢ .

(٦) الروض ١٤ .

(٧) الروض ١٤ .

حملته ضد الحلبي . فلما هزم الحلبي ، وجد بيبرس الفرصة مواتية لتعقب الأمراء الشاميين الذين شعر بضعف طاعتهم له . فأصدر أمره إلى أيدكين ، وكان حاكماً مؤقتاً في دمشق ، بأن يقبض على بهاء الدين ، وشمس الدين أقوش البرلي ، وآخرين من بين الأمراء الناصريه والعزيزية(١) ، فبادر أيدكين إلى القبض على البغدي ، ويظهر أن هذا جفل بقية القادة فانضموا إلى البرلي ، وتركوا دمشق إلى المرج ليلا ، فخاف أيدكين أن يعم العصيان الشام ، فأرسل إلى البرلي رسالة أكد له حسن نيته ، ولكن البرلي لم يلتفت إلى هذا التأكيد ، وواصل سيره إلى حمص ، لعله يكسب تعضيد حاكمها الأشرف موسى بن شيركوه ، ولكنه أخفق في هذا فاتجه إلى حماه ، وحاول أن يقنع حاكمها الملك المنصور الأيوبي بالمطالبة بالملك ، بمساعدة البرلي وأتباعه(٢) ووسيلته في محاولة إقناعه أنه لم يبق من بيت الأيوبيين غيره ، إلا أن المنصور لم يصغ له ، فحنق من المنصور ، وقام بتشعيث الأراضي التابعة لحماه ، ووضع يده على بعض مؤن حلب . ثم ضم إلى أتباعه بعض العرب والتركمان ليستعين بهم في مقاتلة جيش أرسل إلى شمال الشام من مصر(٣) .

أدرك بيبرس خطر هذا النشاط ، وضرورة سرعة القضاء على عصيان البرلي ، ليتفرغ للتصدي لغارات التتار المتوقعة . فأرسل قوة تحت قيادة جمال الدين المحمدي ، انضم إليها في الطريق قوة أخرى بقيادة فخر الدين الحمصي ، ثم ثالثة بقيادة الحلبي بعد أن عفى عنه مؤخراً . فلما علم البرلي بهذه القوة انسحب من حلب إلى شرقي الشام ، واحتل البيره ، الثغر الحصين على الفرات ، إلا أنه سرعان ما أدرك أنه ليس نداً للتتار ، أو لبيبرس ، فاستسلم له ، واستقبله بيبرس في القاهرة في الثاني من ذي الحجة عام ٦٦٠هـ (١٨ أكتوبر عام ١٢٦٢م) (٤) .

كان بيبرس في تلك الأثناء يرتب الأمور الداخلية للدولة ، ويطور بعض الدوائر الحكومية ، وينشيء بعض الأقسام ، ويعين بعض موظفين جدد(٥) . وقد كان مهتماً ، بصفة خاصة بالبريد(٦) ، فصرف له جزءاً

---

(١) المختصر ٢١٩/٣ .

(٢) الذيل ١٢١/٢ .

(٣) المختصر ٢٢٠/٣ .

(٤) المختصر ٢٢٣/٣ ، والروض ٢٨ .

(٥) الروض ١٣ ـ ١٤ .

(٦) الروض ١٣ .

كبيراً من عنايته . ونظر في الضرائب ، وألغى بعضاً منها ، مما كان قطز قد فرضه ، عند سفره لقتال التتار .

(ج) القضاء على المغيث

كان الملك المغيث حاكماً للكرك والشوبك ، الحصنان المنيعان في جنوب فلسطين ، وكان هو الوحيد من بين الأمراء الأيوبيين الذين لم يسلموا لبيبرس ، ولم يبن مثلهم صداقات مع بيبرس ، تساعده على الوصول معه إلى اتفاق(١) ، بل إنه كان يتوقع شراً من بيبرس ، لأنه في زمن مضى ، أثار غضب بيبرس عندما سلم البحرية ، الذين كانوا عنده في الكرك إلى الناصر في عام ٦٥٧هـ (١٢٥٨ – ٥٩م) (٢) ، وبيبرس لا يزال يذكر ذلك منه ، ويذكر أيضاً سوء معاملته لزوجته عندما كانت في الكرك(٣) ، ورغم أن هذه الأمور كافية لأن ينحيه بيبرس ، إلا أن هناك سبباً أهم يتصل بالحاضر ، وسلامة الملك ، وهو استراتيجية بلاد المغيث . فبيبرس أمامه جهاد طويل ومرير مع الافرنج والتتار ، يحتاج معه إلى تفرغ كامل ، وقرب أراضي المغيث من مواقع معارك جهاده الطويل المقبل مع الافرنج والتتار ، وقربها من مصر ، قلب المملكة ، وحصانة الكرك والشوبك ، جعلت بيبرس يفكر جدياً في القضاء عليه ، والاستيلاء على ممتلكاته ، وبيبرس لن يضمن تفرغه لعدويه المذكورين ما دام ملك المغيث قائماً ، فهو لا يزال يذكر نجاح المغيث في إغراء الشهرزورية في الانفصال عنه(٤) ، فأصبح من الحكمة ألا يدخل في معارك حربية ضد الأفرنج في الشام ، أو ضد أي عدو آخر على حدوده البعيدة ، ما دام مثل هذا العدو الخطير ، المغيث ، في مؤخرة جيشه .

---

(١) لم يكن هناك بارقة أمل في اتفاقهما ، لأنه لم يكن بيبرس ليطمئن على ملكه ، ما دام المغيث حراً طليقاً ، فالمغيث يفضل بيبرس المغتصب للملك ، لأنه من سلالة الأيوبيين ، أسياد بيبرس وأصحاب الملك الأصليين . ولم يكن بيبرس لينسي أن البرلي ، أحد أعدائه ، أراد أن يستفيد من هذه الحجة ، ليقنع الملك المنصور ، حاكم حماه ، أن ينهض ضد بيبرس ، ومع هذا فبيبرس لم يشعر بخوف من الأمراء الأيوبيين مثل الخوف الذي شعر به نجاه المغيث لأنه يسيطر على جهة استراتيجية (راجع ماسيأتي ص ٣٦) .

(٢) مفرج ٣٩١/٢ ، والسلوك ٤٢٠/١ ، وما سبق ص ٢١ .

(٣) المختصر ٢٢٠/٣ .

(٤) الذيل ١٠٧/٢ .

كانت هناك مراسلات بين بيبرس والمغيث ، لعل الغرض منها شغل المغيث ، حتى ينتهي بيبرس من تنظيم أمور دولته ، إذ أنه لم يمض وقت حتى اتهم بيبرس المغيث بأنه يغري الشهرزورية بالانضمام إلى صفه ، وهذا أمر خطير ، لأن بيبرس ، وهو في بداية حكمه ، لم يكن يستغني عن جندي واحد في جيشه ، فما بالك بجزء كامل ، ينفصل عنه ، وينضم إلى منافسه الخطير .

لقد أغضب بيبرس قيام المغيث باستمالة الشهرزورية(١) ، فقابل هذا بالهجوم على أراضيه ، واحتل حصن الشوبك(٢) ولم يقف نشاط بيبرس تجاهه عند هذا الحد ، بل أرسل جيشاً ليحاصر الكرك ، مقر المغيث ، ولكنه اضطر لسحبه ، لأنه احتاجه ضد البرلي حينئذ في الشمال(٣) ، وعندما أراد بعد ذلك إرسال جيش آخر ، توسط الخليفة ، فأوقف نشاطه ضده مؤقتاً(٤). ولعل بيبرس بعد أن عقد المعاهدات مع الأفرنج في الشام ، في تلك الفترة ، وعاد إلى مصر ، فكر في أن الوقت قد حان ، لإرغام المغيث على الصلح معه مؤقتاً . وسوف يكون في نهاية فترة هذا الصلح لقمة سائغة له ، بعد أن يضعف موقفه ، بنفاذ خيرات الكرك ، ودخلها المحدود . وحيث أنه ليس باستطاعة المغيث إرسال الشهرزورية للغزو ، فسوف يضطر إلى الانفاق عليهم من مخزونه ، إلى أن ينضب ما في خزائنه من مال ، أو يمنع عنهم عطاءه من الأساس ، مما يضطرهم إلى تركه ، وطلب الانضمام إلى بيبرس(٥)

(١) الروض ٣٨ .

(٢) ولا بد أن بيبرس كان قد أرسل الجيش ضد الشوبك قبل أن يغادر الشام ، فقد وصل هو إلى مصر حوالي السابع عشر من ذي الحجة عام ٦٥٩هـ (١٢ نوفمبر ١٢٦١م) وكان سقوط الشوبك في يده قبل السادس والعشرين من هذا الشهر (٢١ نوفمبر (. الروض ٢٣ ، ومفرج ٢/٤٠٠ .

(٣) الروض ١٥ ، ٢٣ .

(٤) الروض ٢٣ . ونظراً لما هو ثابت من ضعف تأثير الخليفة على بيبرس فقد يكون التدخل مقصوداً به خدمة بيبرس ، لأنه ربما لم يكن في نيته ارسال جيش ، ولكن أشاع ذلك ليرهب المغيث . أو لعل بيبرس كان فعلا يقصد ارسال جيش ، إلا أنه جد خطر في جهة أخرى ، اضطر أن يوجه قوته إليه .

(٥) الحالة التي وجد عليها بيبرس فيما بعد خزائن المغيث تدل على صدق تقديره . الروض م/٦١ ، والذيل ٢/٢٩٩ .

وكان قد سبق أن أرسل المغيث ابنه العزيز إلى هولاكو ، ليتفاوض معه ، وعند عودته مر بدمشق ، حيث أمسك ، وأرسل إلى القاهرة ، واعتقل فيها ، واستفاد منه بيبرس رهينة لإجبار والده المغيث على الصلح(١) .

ورغم مهادنة المغيث لبيبرس ، إلا أن بيبرس كان يتحين الفرصة للقضاء على المغيث نهائياً ، وقد سنحت هذه الفرصة في أوائل عام ٦٦١ ﻫ (١٢٦٣ م) عندما وجد نفسه دون ارتباطات حربية ملحة . وكان المغيث حينئذ في حالة ضعف متناهية ، لأن أكثر أتباعه قد تركوه إلى بيبرس ، ولأن خزائنه لم تعد تكفي لتموين من بقي منهم معه ، فأصبح بإمكان بيبرس ، حينئذ ، استدراجه إلى نهايته .

وبينما كان بيبرس في رحلة صيد ، قابل والدة المغيث في غزة ، وقد يكون هذا مرتباً بينهما ، ففاوضته نيابة عن ابنها ، واستطاعت أن تأخذ منه يميناً بسلامة ابنها(٢) ، إلا أن بيبرس لم يكن ينوي الوفاء بوعده لها ، رغم اليمين الذي حلفه ، وما أعطى من تأكيدات . وكان قد فكر ، مقدماً ، في الأسباب التي سوف يعتذر بها لاعتقاله ، عندما يصل . وقد عقد لذلك مجلساً تلا فيه التهم ضد المغيث ، فحكم له المجلس بالجزاء الذي أعده . وكان الملك المغيث قد وصل إلى بيسان ، فتلقاه بيبرس بالترحاب ، ولكنه أمر باعتقاله عند وصولهما إلى الطور ، متهماً إياه بالتآمر ضد المسلمين . ويقال أن المغيث في مراسلاته مع هولاكو(٣) كان قد وعده بأن يعطيه الأراضي الممتدة بين بصرى وغزة ، وأن يعضده بجيش مؤلف من عشرين ألف فارس ، ليستطيع أن يأخذ بهم مصر(٤) ، وقد أرسل بيبرس المغيث إلى مصر حيث اعتقل هناك(٥) .

ومع أن هذا حدث في أواخر جمادي الأولى عام ٦٦١ ﻫ (أبريل ١٢٦٣ م) إلا أن بيبرس كان لا يزال بينه وبين الأفرنج بعض الأمور التي تحتاج إلى أن تعالج . ولهذا فلم يتقدم لأخذ الكرك إلا في الثالث والعشرين من جمادي الآخرة (الرابع من مايو ١٢٦٣ م) . وقد نجح حينئذ في إخفاء وجهة سفره ، حتى وصل إلى الحصن نفسه . وكان العزيز بن المغيث حاكماً

---

(١) الروض ٤٠ .
(٢) الروض ٣٤ .
(٣) الروض ٥٢ .
(٤) مفرج ٤١٤/٢ .
(٥) الروض م/٥٣ .

فيه مدة غياب والده . فكان ظهور بيبرس المفاجيء في المنطقة سبباً في خوف حكومة الكرك ، وعلى رأسها العزيز بن المغيث لأنهم يعرفون أن لا قبل لهم بمواجهة بيبرس ، فسارعوا لتسليمها(١) .

(د) الخلافة العباسية في مصر :

كان اعتراف الخليفة بالسلطان من الأمور التي يحرص كل حاكم يتولى الحكم حديثاً على الحصول عليها ، ليضفي على حكمه الصبغة الشرعية لتوطيد حكمه . وقد حرص أيبك عندما تولى الحكم أن يحظى بهذا الاعتراف من الخليفة في بغداد عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ — ٥٧ م) ، ليتقوى به أمام قواده المنافسين ، إلا أنه عندما تولى بيبرس الحكم ، لم يكن هناك خليفة ، ليؤخذ منه هذا الاعتراف ، وكان بيبرس في حاجة إلى مثل ذلك ، للطريقة التي استولى بها على الحكم(٢) .

لما استولى التتار على بغداد ، واستأصلوا الخلافة فيها ، فر منها أحد العباسيين ، واسمه أحمد بن الظاهر ، واستقر عند بعض القبائل العربية في غربي العراق . ولعله فكر أنه بمساعدة القبائل العربية في هذه المنطقة يستطيع أن يحرز نصراً على التتار ، أو على الأقل يضايقهم بقربه من بغداد ، إلا أن استتاب الأمور في الشام ومصر تحت حكومة قوية أقنعه بالمجيء إلى هذه الديار ، فوصل إلى الشام مع خمسين رجلا من قبيلة خفاجة ، فاستقبله فيها حاكمها من قبل بيبرس ، وتأكد من شخصيته ، وأوصى بحسن معاملته ، وسمح له بالسفر إلى مصر ، فوصلها في التاسع من رجب ٦٥٩هـ (٩ يونيه ١٢٦١ م)(٣) .

وقد رأى بيبرس أن إحياء الخلافة العباسية سوف يعلي صيته ، ويقوي سمعته في الأقطار العربية ، وسوف ينزل ضربة قاسية على التتار ، ومثل هذه المساعدة للخليفة لن يكون ثمنها أقل من الاعتراف الذي يرجوه بيبرس منه . ولهذا لما سمع بيبرس بمجيء أحمد بن الظاهر ، سارع باستقباله في مصر ، ونادى به خليفة . وقد اتفقا على أن يقود الخليفة قوة من الجيش ضد التتار لاسترجاع بغداد(٤) .

---

(١) الروض م/٦٠ — ٦١ .

(٢) وقد احتاج قطز إلى مثل هذا الاعتراف حين لم يكن هناك خليفة ، فسمع عن أحد أبناء العباسيين في الشام ، فتطلع إلى تنصيبه خليفة بعد عودته إلى مصر . المفضل ٤٣٥/١ ، والذيل ٤٨٥/١ .

(٣) الروض ١٥ .

(٤) السلوك ٤٢/١ .

وكان بيبرس ينوي في الأساس إرسال قوة كبيرة ، تحت قيادة الخليفة ، فإن انتصر فسوف يكون الفضل لبيبرس لسعيه لحماية الإسلام ، وإعادة الخلافة إلى مقرها في بغداد ، لتكون مركز النشاط الحربي ضد التتار . ولا يبـــدو حينئذ أن بيبرس كان يخشى أن تطغى شخصية الخليفة على شخصيته(١) .

خرج بيبرس ليودع الخليفة في رحلته إلى الشرق ، ويقال أنه جاءه من نبهه إلى خطورة إحياء الخلافة ، لأنه ربما انقلب الخليفة ضده ، وحاول إخراجه من مصر(٢) ، وهذا السبب هو ما فسر به المقريزي إرسال بيبرس قوة صغيرة(٣) مع الخليفة بعد أن كان ينوي إرسال عشرة آلاف فارس معه . على أي حال لقد أنزل التتار بالخليفة هزيمة فادحة ، واختفى خبر الخليفة بعد هذه الوقعة(٤) .

إنه من الصعب أن نتصور أن بيبرس يحتاج إلى تبصير بالعواقب التي قد تترتب على استرداد الخليفة لبغداد . وإذا فرضنا أن بيبرس قد وصل إلى علمه أنباء جديدة ، فلا نتصور أنه يعجز عن التفكير في حل أفضل من إرسال الخليفة ليلقى حتفه . وكان بإمكانه أن يفكر في عدة طرق لوضع الخليفة في موضع لا يصله منه ضرر ، دون أن يعرض سمعة المسلمين للخطر ، وكان قد طال انتظارهم لرفعها ، وسعدوا باستعادتها في وقعة عين جالوت . وإذا تدبرنا مقدرة بيبرس التي اعتاد أن يدير بها أموره الحربية فضلنا ما أورده محي الدين من أن الخليفة أهمل فلم يستدع الجيوش التي كان بيبرس أرسلها لترابط على الحدود الشمالية ، تحت طلبه ، تحسباً لهجوم التتار المفاجيء ، أو هجوم حلفائهم(٥) . ولو أراد بيبرس حقاً أن

(١) في وقت لاحق عندما نصب بيبرس خليفة آخر ، وأقام هذا الخليفة في مصر تأكد بيبرس من تقليص سلطته ، والحيلولة دون ظهوره في المجتمعات . حسن المناقب ٣١ .

(٢) السلوك ٤٦٢/١ .

(٣) ثلاثمئة فارس ، السلوك ٤٦٢/١ .

(٤) الوقعة كانت في محرم عام ٦٦٠هـ (نوفمبر — ديسمبر عام ١٢٦١م) . السلوك ٤٢٧/١ ، والذيل ١١١/٢ .

(٥) الروض ١٨ .

يتخلص من الخليفة لما سارع بتنصيب خليفة عباسي آخر عند الوهلة الأولى التي سمع فيها عن وجوده(١) .

(هـ) جوانب من ضبطه للأمور :

كان بيبرس نفسه جندياً في فرقة البحرية ، تدرج في مراتبها ولهذا فقد كان من خيرة من يعرفها جيداً ، ويقدر مستواها الحربي ، والدور الذي باستطاعتها أن تلعبه في الصراع المقبل ، وكان يعرف أيضاً كيف يمكن أن تطور ، فحرص لذلك أن تبلغ درجة عالية من الكمال في الأسلحة والتدريب ، حتى لا تقل ، على الأقل ، عن مستوى أعدائها .

لهذا لا يستغرب من يعرف نشأة بيبرس الحربية العناية والاهتمام اللذين أبداهما تجاه الجيش . وشدة الحماس التي أبداها دعاه إليها وجود عدو لدود على طول حدوده ، فكان كلما عظم الخطر على أراضي بيبرس زادت درجة نشاطه لمواجهة الموقف ، والسيطرة عليه ، ولا شك أن هذا التهديد المستمر ساعده أيضاً على التغلب على الصعوبات الاجتماعية والمالية الداخليه . رغم أنه من المعروف أن بعض حملاته الحربية لم تعد عليه بما يغطي تكاليف هذه الحملات ، مما برر أخذ الضرائب التي وجد أنه من الضروري جمعها ليستطيع أن يستمر في حملاته .

أما ظروف زمن بيبرس فقد لا يكون لها فضل إلا في أنها أوجدت مجالا طبيعياً يعرض فيه مواهبه الطبيعية ، ونتائج خبرته . وفي سيرته الكثير مما يدل على تفهمه الوافي لظروف زمنه ، وعلى قدرته على التغلب على المواقف الهامة الصعبة التي كانت تهدد سلامة دولته . وقد تبدو بعض الإجراءات عادية إذا ما أخذت منفردة ، إلا أنها إذا جمعت جميعاً دلت على نوع فريد من المقدرة ، وتوفرها في زمن حاكم واحد يدعو حقاً إلى الدهشة .

وفي الصفحات التالية محاولة لإلقاء الضوء على بعض جوانب شخصيته ، والطرق الإدارية التي ساعدت على نجاحه .

---

(١) وصل الحاكم ، الخليفة العباسي الثاني في مصر ، في ربيع الثاني عام ٦٦٠هـ (فبراير – مارس عام ١٢٦٢ م) المفضل ٤٣٤/١ .

مظاهر الجـــد عنده :

لعل فترة الاضطراب التي كانت تمر بها البلاد نمت اتجاه بيبرس إلى أن يكون رجلا جاداً ، وهو أمر أيضاً لوحظ في سيده الملك الصالح أيوب ، واختيار أيوب له ليكون من مماليكه ربما كان سببه تقديره لهذه الصفة فيه . وبيبرس قدر أهمية الصفات الطيبة في الملك الصالح فاختار أن يحذو حذوه(١) وطلب من أتباعه أن يكونوا عليها .

شـــدته :

أكمل حزم بيبرس مظهر الجد عنده ، فهو لا يقبل إلا أن يبادر بتنفيذ أوامره ، وعقاب من خالف هذا أو تهاون ، أقرب إلى القسوة منه إلى قبول العذر ، دون استثناء لأحد ، وكثير من العقوبات الصارمة التي كان ينزلها بقواده كانت لتهاونهم في تنفيذ الأوامر ، خاصة وأن بعضهم ، في أول حكم بيبرس ، كان يشعر أنه لا يقل عنه في المنزلة ، مما يجعله يقدم على إصدار أوامر لأتباعه تخالف ما أصدره بيبرس ، ولم يكن بيبرس يجهل قدر هؤلاء القادة ، في حدود صلاحياتهم ، إلا أنه ، مع هذا ، مضطر أن يقدم مصلحة الدولة على أي اعتبار . وليتمكن من مزاولة سلطته الكاملة وجد أنه لا بد أن يتأكد من حصوله على طاعة عمياء ، واحترام تام من جميع أتباعه ، وما قام به البرلي والرشيدي ما هو إلا أمثلة من عنايته في ذلك(٢) .

حرصه على سرية أعماله :

إذا جرت العادة في إعطاء عهد من العهود صفة تميزه فعهد بيبرس امتاز بالسرية التامة في التخطيط للأمور وتنفيذها ، وإلى بعض الميزات بعينها يعود كثير من نجاح بيبرس ، فقد استفاد فائدة قصوى من التجسس على أعدائه ، واتبع طرقاً فريدة للحصول على المعلومات التي ساعدته على شل نشاط أعدائه ، داخل مملكته ، وخارجها ، فالعدد الكبير من القادة الطموحين حوله ، والمسؤولين الذين أخضعهم ، والعناصر الكثيرة المتعددة التي أغضبها لسبب أو آخر ، والطرق التي سلكها للوصول إلى الحكم ، أوجبت عليه أن يكون دائماً حذراً ومتيقظاً .

---

(١) الروض ٥ ، وم/٢ .   (٢) الروض م/٦٥ .

ويبدو أن نشاط التجسس تركز في ناحيتين : الأولى في المراقبة والتحري، والثانية في الحملات الحربية وما يواكبها من تحركات . وكانت نتائج المراقبة والتحري أنه لم يجرؤ قائد من قواده أن يخطط لأي عصيان ضده ، فبيبرس رغم بعد عاصمته عن بعض مناطق مملكته إلا أنه برحلاته السرية أفهم أمراء المناطق أنه يمكن أن يكون قريباً منهم في أي وقت من الأوقات ، أما عن الحربية ، فإن السرية فيها تكاد تكون جزء لا يتجزأ من أي عملية حربية يقوم بها ، فسهولة حصول جواسيس الأفرنج على أخبار تحركات الجيش الإسلامي دعته إلى إيجاد نظام متقن ، لا فساد ذلك عليهم ، ولهذا اعتاد أن يحتاط جيداً في بقاء تحركات جيوشه سرا ما أمكنه ذلك ، فهو يخفي حتى عن قواد الجيوش نفسهم الجهة التي يريد منهم أن يغيروا عليها أو يحاصروها. ويحصل القائد أحياناً على جزء من التعليمات التي تكفي فقط لإيصاله إلى أقرب مرحلة في الطريق ، وهناك يجد من يعطيه خطاباً يعين له الخطوة التالية ، وهذه الطريقة تعاد أحياناً عدة مرات إلى أن يجد القائد في النهاية التعليمات الأخيرة في خطاب مقفل ، عليه ألا يفتحه إلى أن يصل إلى مكان يعين له(١). ويبدو أنه كان يعتمد كثيراً على جدوى استعمال مثل هذه الخطابات المختومة ، فكثيراً ما يعطى قائداً من قواد جيوشه خطاباً مختوماً لا يفتحه إلا عندما يبدأ المسير إلى الجهة المحددة(٢) .

وقد نجحت هذه التحركات السرية في أن تسبب الحيرة لأعدائه خاصة الأفرنج ، إذ أن الأمر يستوجب منهم أن يكونوا يقظين دائماً، ولكنه كثيراً ما يخدعهم بتصرفاته هذه . واحتلالهم لمساحات واسعة إذا قيست بعددهم جعلت حصونهم ناقصة الحراس ، وعدم تأكدهم من الجهة التي سوف يهاجم منها بيبرس اضطرتهم إلى ترك كل حصن يدافع عن نفسه ، دون مساعدة من الحصون الأخرى ، وبهذا لم يستطيعوا أن يركزوا جيوشهم في النقطة التي يظنون أنها قد تهاجم ، لأن ما قد يظهر لهم من اتجاه في الهجوم قد يكون خدعة من بيبرس(٣) .

ومن الوسائل التي كثيراً ما يعمّي بها بيبرس لإخفاء وجهة هجومه رحلات الصيد ، فطبيعتها ، والاستعداد لها ، يمثل ستاراً متقناً لتغطية الغرض الحقيقي من الحملة ، وقد استفاد من ذلك كثيراً في مفاجأة أعدائه .

---

(١) الروض ١٠١ .	(٢) الروض ٨١ .

(٣) الروض ٧١ ، ٧٩ ، ١٠٩ .

الجاسوسية :

كان التجسس من الأمور التي اتصف بها عهد بيبرس ، وقد تطلبتها أهداف داخلية وأهداف خارجية ، دفعت بيبرس إلى أن ينشيء مرفقاً مستقلا للجاسوسية . وقد قام جواسيسه بدور هام في المحافظة على ما ملكه ، فعلاقاته مع بعض قواده كانت تتسم بعدم الثقة ، وكان جزء كبير من نشاط هذا المرفق يذهب في مراقبة بعض قواده ممن لا تتوفر فيهم الثقة ، وكانت التقارير عن تصرفاتهم ضافية ، تكشف لبيبرس ما كان يحدث في محيطهم ، وكان لا يخبيء عنهم بعض ما يعرفه عنهم ، مما يجعلهم لا يثقون بجلسائهم ، ويشكون في كل إنسان حتى ذويهم ، ونتج عن هذا أن استحال على أي قائد أن يفكر في عمل جماعي ضد بيبرس ، خوفاً من أن يكون بعض المتآمرين معه جاسوساً . وأصبح من المعتاد أن يكلف بيبرس شخصاً بمراقبة آخر ، أنيطت به مراقبة ثالث(١) .

وقد أدت الطرق التي سلكها لمراقبة تصرف المسؤولين أهدافها ، إذ أنهم حرصوا على القيام بواجباتهم بدقة وعناية . فقد اعتاد أن يتجول متنكراً مما ساعد على منع رجاله من سوء التصرف مع الناس(٢) . ومما يذكر في هذا المجال أنه في إحدى الليالي في عام ٦٦٣ ﻫ (٤ — ١٢٦٥ م) تنكر واختلط بالناس ، فشاهد من أحد المسؤولين من رجال دولته ما لم يرقه ، فأمر بمعاقبة هذا المسؤول وأتباعه ، عقاباً شديداً ، شمل قطع أيديهم أمامه .

وقد تعدى نشاط هذا المرفق إلى خارج مملكته ، فلأنه كان يقدر الخطر الذي يمكن أن يتعرض له جواسيسه ، فقد أغدق الأموال على أولئك الذين يزودونه بأخبار أعدائه(٣) فأصبح له جواسيس في كل بلد من بلدان أعدائه ، وقد توغلوا حتى وصلوا إلى بلاط الايلخانيين (٤) . فهولاكو عندما أرسل مرة جاسوسين إلى بيبرس ، أعلمه جواسيسه بهما ، وأعطوه أوصافهما ، وكانت حلقات سلسلة الجواسيس الذين علي الطريق توافيه بأخبار تنقلاتهما إلى أن وصلا إلى دمياط حيث اعتقلا (٥) وفي هذا المجال بالذات استفاد

---

(١) ابن شداد ، التاريخ ٢٢١ ، ٢٢٤ .

(٢) النهاية ٢٧/٢٩ — ٢٩ ، والسلوك ٥٤٠/١ .

(٣) الروض ٢٩ .

(٤) هورث ، تاريخ التتار ٢٢٦/٢ .

(٥) الروض ٤٨ .

بيبرس من عرب خفاجة القاطنين على حدود العراق، لأن موقعهم يسمح لهم بالتوغل في بلاد الأعداء ، دون أن يشتبه فيهم ، وزيادة على موافاته بالأخبار ، فقد كانوا حلقة وصل بين جواسيسه في الشام وبين جواسيسه في بلاد إيران ، وكان عن طريقهم يتصل بحاكم شيراز في إيران(١) .

وبجانب الجواسيس الذين يعينهم لهذا الغرض ، هناك من يتطوع لموافاته بالمعلومات المفيدة عن أعدائه ، وأغلب من يقوم بهذا المسلمون المقيمون داخل الأراضي التي يحتلها أعداؤه . أما الدور العظيم في هذا المجال فقد لعبه التجار الذين كانوا يترددون إلى الأسواق التجارية في مصر . والتجار الذين يتاجرون مع سواحل البحر الأبيض المتوسط ، أو أسواق بلاد المغول ، غالباً ما يعودون ومعهم أخبار جديدة مفيدة عن الأحداث وتطوراتها(٢) .

وكان اهتمامه منصباً على تلك المناطق التي يحتلها الأفرنج ، وتزداد حاجته إلى معرفة أخبارها عندما ينوي الخروج في حملة ضدها ، وكثرة عدد المسلمين المقيمين فيها يسهل عليه تعيين أي عدد منهم هناك للتجسس ، وعن طريقهم يمكنه الحصول على المعلومات عن الحوادث المحلية ، وبعض الدلائل التي توحي بالاستعدادات الحربية في أوروبا(٣) .

وقد تعدى نشاط جواسيسه في بعض الأحيان جلب المعلومات إلى اتخاذ خطوات إيجابية تجاه بعض المسؤولين المهمين في حكومة أعدائه ، فبيبرس قد يكتب لأحد الأشخاص الذين يود أن يستأصلهم ، موهماً أن هذا الخطاب حلقة في سلسلة خطابات متتالية ، وأن هناك نوعاً من الاتفاق مع هذا الشخص المخاطب . ثم يترك جاسوس بيبرس الخطاب في مكان يتأكد أن السلطة القائمة سوف تكتشفه ، ولا يعدم مثل هذا التصرف أن يبذر على الأقل الشك في قلب الحاكم عن ولاء هذا الشخص المسؤول ، ويبدو أن إرسال مثل هذه الخطابات المبيتة كان على الأقل ناجحاً ضد ممثل التتار في بغداد ، وكان مسيحياً اتهم بمعاملته الجائرة للمسلمين من رعيته(٤) . وهناك خدعة مماثلة ، أيضاً ، أجبرت أحد الأمراء التابعين لأيلخان إيران أن يخضع لطلب بيبرس في هجر التتار ، والانضمام إلى صفه(٥) .

---

(١) الروض ٤٨ .

(٢) الروض ١٤٥ ، و١٤٩ .

(٣) الروض ١٤٥ و١٤٩ .

(٤) الروض ١٦٩ و ١٧٠ .

(٥) نهاية الأرب ١٢٦/٢٩ .

البريـــد(١) :

كان بيبرس يقضي جزءاً من وقته في عاصمة بلاده القاهره والجزء الآخر في الشام لقربها من أراضي أعدائه الواسعة ، خاصة أيام الحرب ، فليسيطر وهو في مصر ، سيطرة تامة على الشام ، ويضمن حمايتها من الأخطار المحدقة بها ، ولتقديره للإدارة الممتازة ، اتخذ وسيلة متقنة للاتصال السريع ، فأولى البريد عنايته(٢) ، وأدخل إصلاحاً على جوانبه المتعددة ، فزاد من محطاته على الطريق ، وجهزها بخيل مراحه ، وصل عددها في كل محطة إلى عشرة ، في عمل اليوم الواحد ، وصرف المرتبات والهبات الوافرة على رجالها(٣) . وحرص على الاستماع بنفسه على محتويات خطابات البريد ، سواء ما جاء فيها هاماً أو تافهاً . ففي إحدى المرات مثلا كان بيبرس في الحمام ، فخرج وتلقى البريد وهو عار(٤) وكان لا يؤخر رد جواب البريد أكثر من الوقت الذي تأخذه كتابته(٥) .

وكانت نتيجة العناية الفائقة بالبريد أن أصبح منتظماً وسريعاً ، مما مكن ساعيه أن يصل من دمشق إلى القاهرة في أربعة أيام ، ومن حلب في ستة ، ومن عينتاب في عشرة(٦) ، وإذا كان الأمر بالغ الأهمية أرسل البريد مع الحمام ، وقد بلغ تنظيم بريد الحمام في زمنه حداً متناهياً من السرعة والاتقان ، مما جعله وسيلة هامة من وسائل المواصلات .

ومما ساعد على تطور هذا المرفق وكفاءته الرحلات السرية التي كان يقوم بها بيبرس على خيل البريد ، لأن توقع رجال البريد أن يفاجئهم بإحدى رحلاته هذه جعلهم يبذلون جهدهم في أن تكون الخيل مستعدة دائماً . ولا بد أن مجرد سفره عليها ووقوفه في المحطات المتعددة في الطريق جعله على اطلاع دائم على حالتها واحتياجها ، فيبادر بتحسينها وتطويرها .

---

(١) للحصول على معلومات أكثر عن البريد في الزمن المتقدم انظر ابن خرداذبه ، وقدامة بن جعفر ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الروض ٣٥ .

(٣) ابن شداد ، التاريخ ٢٢٣/٢ .

(٤) الروض ١٤٠ ، وابن شداد التاريخ ٢٢٢/٢ .

(٥) الروض ١٣ ، ومفرج (المكتبة الوطنية) ٤٢٣/٢ .

(٦) ابن شداد ٢٢٣/٢ .

وقد تمكن بيبرس عن طريق البريد الجيد أن يدير أمور الشام وهو في مصر ، فقد كان نذيراً سريعاً في أوقات الهجوم الخارجي ، أو الاضطرابات الداخلية ، ومسعفاً في نقل المعلومات اللازمة لصدها أو قمعها ، وكان بالإمكان أن تتجسم بعض الأمور ، ويصعب حلها ، لو لم يواف بيبرس بأخبارها مبكراً ، فيتخذ لها الإجراءات اللازمة السريعة ، وكان الفضل في نجاحه على أعدائه الذين أرادوا أن يكيدوا له ، يعود إلى تنظيمه المتقن للبريد .

ثالثا : السياسة الخارجية :

(أ) العلاقة مع حكام القبيلة الذهبية :

لقد وجه المسلمون إلى التتار ضربتين هزت كل منهما سمعتهم الحربية ، كانت الأولى انتصار قطز عليهم في موقعة عين جالوت ، والثانية انتصار المماليك العزيزية والناصرية في شمال الشام ، وقد أراد بيبرس أن يردف ذلك بما ينخر في كيانهم ، فعمد إلى زرع بذور الشقاق بين أقوى حاكمين لهم هولاكو وبركه ، رئيس القبيلة الذهبية ، فهو إن كسب صداقة بركه ، وتحالف معه ، فإن باستطاعته أن يعتمد عليه في تطويق قوى هولاكو عند الحاجة ، فحلفه هذا سوف يجعل قوى هولاكو في العراق مطوقة من ناحيتين تتقدم إحداها أمرة بيبرس من الغرب ، بينما تتحرك الأخرى تحت إمرة بركة ضد الايلخانيين من الشمال الشرقي تقريباً(١) .

العداء بين بركة وإيلخان إيران :

في الوقت الذي فكر فيه بيبرس أن يتصل ببركه أملا في أن يكسب صداقته ، كانت العلاقة بين بركه وهولاكو قد ساءت . وفتور العلاقة بين بركه وهولاكو كان أمراً قائماً قبل موت منكوخان بمدة غير قصيرة(٢) ، إلا أن الاصطدام المكشوف لم يحدث إلا بعد موت منكو ، ولا يعرف ، بصورة مؤكدة ، السبب الحقيقي لهذه العداوة ، إلا أن هناك عوامل قد تلقي ضوء عليه ، فمجرد إنشاء حكومة الأيلخانيين في إيران ربما أنذر سلالة جوشي بمنافسة من الدولة الجديدة ، وقد سبق لها أن أضرت بمصلحة هذه السلالة عندما ضم منكو إلى هولاكو مقاطعتي ارّان وأذربيجان ، وكانت في السابق تتبع بيت جوشي(٣) . ومما يحتمل أن يكون سبباً للعداوة أن

---

(١) الروض ١٥٩ .

(٢) توفي في اليوم الحادي عشر من شهر أغسطس عام ١٢٩٥م ، كروسي تاريخ الصليبيين ٥٩٢/٣ .

(٣) هورث تاريخ المغول ١١٤/٢ .

بركه ، وهو مسلم ، مج الطريقة التي عامل بها هولاكو الخليفة عند سقوط بغداد(١) .

كان هولاكو ، عندما توفي منكو خان ، يحارب في الشام ، فترك كتبغا وبيدرا في الشام للمحافظة على البلدان المفتوحة حديثاً ، وعاد هو إلى الشرق ، ليحضر اختيار الخان الأكبر للتتار(٢) . وأياً كانت أسباب العداوة التي حدثت بينه وبين بركة فإنها أدت إلى اصطـدام عنيف بين جيوشهما ، عاق هولاكو من متابعة جهوده في الأراضي الإسلامية . وقد استغل بيبرس الموقف الذي كان فيه هولاكو ، للوصول إلى هدفه ، واجتهد في أن يطيل فترة الخصومة بين بركة وهولاكو ، وحاول أن يضفي على الخلاف صبغة دينية ، ليزيد من حدة العداوة .

الاتصال بين بيبرس وبركه :

كان الخبر الهام الذي بلغ بيبرس عن بركه هو اعتناقه للإسلام(٣) فكان هذا مدخلا كافياً لبيبرس ليلج منه إلى توسيع شقة الخلاف بين حاكمي التتار ، لهذا كتب في عام ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ – ٦١ م) (٤) كتاباً إلى بركه ، حاول فيه أن يثيره على هولاكو ، وركز فيه على ميزة المسلم فيه ، وما يجب عليه من الاحتذاء بالرسول الكريم في قتاله أقرباءه ، لأجل الإسلام ، ونبهه إلى سياسة هولاكو في تفضيله المسيحية دين زوجته على الإسلام ، وأشار إلى منصب الخليفة في بغداد ، وأنه سلم إلى مسيحي . وقد أنهى بيبرس الخطاب بوصف مسهب عما يقوم به بيبرس من حروب لحماية الإسلام . وكان هذا هو أول كتاب أرسله إلى بركه ، محاولا أن يعرف مدى استعداده لمقاومة هولاكو . وقد أرسل الخطاب مع أحد التجار من العلان(٥) .

استجابة بركه :

كان إرسال بيبرس لهذا الخطاب خطوة ناجحة ، لأنه يبدو أنه وصل مباشرة قبل أن يشتد الخلاف بين بركة وهولاكو ، ولهذا لما اصطدما حربياً

---

(١) هورث ١١٤/٢ . ولقد ذكر بركه في أحد خطاباته لبيبرس أنه لم يكن راضياً عن أفعال هولاكو تلك ، وقال انه لجأ إلى السلاح ليأخذ بثأر الخليفة والمسلمين ، الروض ٣٥ – ٣٦ .

(٢) السلوك ٤٢٧/١ .

(٣) الروض ١٠ .

(٤) السلوك ٤٦٥/١ .

(٥) الروض ١٠ .

قدر بركة صلة بيبرس به . كان واجب بركه ، تجاه إمبراطورية التتار ، يقتضيه أن يرسل فرقاً من جيشه لتشارك في فتوحات هولاكو في الغرب ، ولكنه عندما اصطدم مع هولاكو أمر جيوشه أن تنسحب وتتقهقر إلى أراضيه ، فإن وجدت صعوبة في ذلك ، فعليها أن تذهب إلى بيبرس(١) وقد رحب بيبرس بهذه الثقة عندما وضعها فيه بركه(٢) . وعرف بيبرس من هؤلاء الجند معلومات أكثر عن بركه ، خاصة عن منازله ، وبلاطه ، والطريق إليه(٣) .

البعثة السياسية الأولى :

أعطت المعلومات الجديدة التي استقاها بيبرس من جند بركه ثقة في نجاح الخطوة التي سوف يخطوها بيبرس ، تجاه توثيق الصلة بينه وبين بركه ، وقد أرسل في هذه المرة بعثة يصحبها فقيه ، ويرأسها أحد كبار الأتراك ممن يتكلم لغة تلك البلاد ، ورافق هذه البعثة إثنان من جند بركه ، وصلا حديثاً ، لمعرفتهما بالطريق . وكتب بيبرس كتاباً اعتنى بصياغته ، وقرىء مرتين قبل إرساله ، القراءة الأولى كما يبدو على بيبرس نفسه منفرداً ، والثانية عليه وعلى القادة مجتمعين ، وقد اشتمل الكتاب على حث لبركه على جهاد هولاكو ، وإشادة بقوة بيبرس الحربية ، ووصفا لوصول جند بركه إلى مصر ، والترحيب الذي استقبلوا به من أجله ، ولم يغفل أن يذكر أمراً هاماً ، وهو مبايعة خليفة جديد ، وقد عقد بيبرس العزم على استغلال إحياء الخلافة إلى أبعد الحدود(٤) وقد أوصى بيبرس الرسل أيضاً بإبلاغ بركه رسالة شفوية ، احتوت على مضمون الكتابة ، وفيها ، مثل ما هو في الغالب في الخطاب ، أكد بيبرس صداقته لبركه ، ومساندته له ضد عدوهما المشترك ، والدلالة العامة لهذه التأكيدات هي أنه يبدو أن حلفهما لا يزال في مراحله الأولى . وبيبرس ربما رأى أن رسالته التحريرية سوف تكون ذات تأثير

(١) الروض ٣٠ .

(٢) أول فصيل من هذا الجيش كان عدده أكثر من مئتي جندي . وقد وصلوا القاهرة في أواخر شهر ذي الحجة عام ٦٦٠هـ (نوفمبر ١٢٦٢ م) ، الروض ٣٠ .

(٣) الروض ٣٠ .

(٤) حتى أنه أرسل شجرة نسب الخليفة إلى بركة ، موقعة من قبل قاضي القضاة الذي اعترف به خليفة . الروض ٣١ .

أكثر ، إذا عضدتها شهادة جند بركه ، الذين وصلوا مؤخراً ، وأحسن بيبرس معاملتهم .

تركت البعثة مصر في محرم ٦٦١ هـ (نوفمبر – ديسمبر سنة ١٢٦٢ م) ومرت في طريقها ببلاد الامبراطور ميخائيل حاكم القسطنطينية ، فأرسل هذا معهم من أوصلهم(١) .

رسل بركه :

لقد كان بيبرس حتى هذه المرحلة هو الذي سعى للاتصال ببركه ، وقد لاقت هذه الخطوة قبولا من بركه ، يدل على هذا ما أصدره بركه من أمر لجنوده الذين كانوا عند هولاكو بأن ينسحبوا إلى مملكة بيبرس ، أما أول رسل أرسلهم بركه فقد وصلوا عندما كان بيبرس منشغلا في احتلال الكرك في أواخر جمادي الثانية ٦٦١ هـ (٤ مايو ١٢٦٣ م) ، وتكونت البعثة من رسولين مع كل منهما خطاب احتوى على السلام والشكر لبيبرس ، وطلب الانجاد على هولاكو ، والإعلام بمخالفته لجنكيز خان وشريعة أهله ، وذكر بركه أنه تصدى ، هو وإخوته الأربعة ، لهولاكو . وأقاموا منار الإسلام(٢) ، ويلتمس من بيبرس أن يتقدم هو وإياه إلى العراق ، هو من جانبها الشرقي ، وبيبرس من جانبها الغربي . فيطردا هولاكو من أراضيها ، ويتسلمها بيبرس(٣) . وختم خطابه بتوصية منه بعز الدين ، صاحب بلاد الروم ، وعدو هولاكو(٤) .

توطد الصداقة بينهما :

لقد ابتهج بيبرس بالكتب التي وردته من بركه ، وبالغ في إكرام رسوليه ، وأقام لهما المآدب ، وألبسهما الخليفة ثياب الفتوة ، وحضرا خطبته ، والاجتماع به للحث على الجهاد ، وأمر بيبرس أن يزورا أماكن العبادة ، وأن يدعى لبركه بعده في خطبة الجمعة ، في مكة والمدينة . هذا كله يؤيد فرحة بيبرس بما تطورت إليه العلاقة بينهما(٥) .

---

(١) وفي بلاط ميخائيل قابلوا رسل بركة الذين سبق أن أرسلهم ، وسافروا في معيتهم إلى بركة .

(٢) الروض ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) مفضل ٤٥٢/١ ، الروض ٣٦ ، الذيل ٥٣٤/١ . راجع أيضاً الروض ٥٩ مما يوحي باقتراح من منكوتمر مماثل لهذا .

(٤) الروض ٣٦ .

(٥) الروض ٣٦ – ٣٧ .

وقد رافق عضوي البعثة عند عودتهما إلى بلادهما(١) رسل من بيبرس . ومعهم خطاب ضاف من بيبرس لبركه ، دعا فيه بيبرس إلى الجهاد ورغب فيه ، وعدد أماكن العبادة في بلاده ، وأشار إلى ميله إليه ، وختم خطابه بوصف الجيوش المصرية بالكثرة وإقبالها على نصرة الإسلام(٢) ، ويدل حجم هدية بيبرس ، وخطابه لبركه على مدى ما وصلت إليه الصداقة بينهما(٣) ولهذا حق له أن يغضب عندما علم أن رسله قد عوقوا في بلاط الامبراطور اليوناني ميخائيل ، مما أهلك أغلب الحيوانات التي اشتملت عليها الهدية ، وكان الغرض الأساسي لهذه البعثة حث بركة على مهاجمة هولاكو ، وتأكيد استعداده لمؤازرته ، وهذه الإعاقة من ميخائيل قد تضيع الغرض ، وزيادة على هذا كله فقد يتسبب عنها إحراج لبيبرس في هذه المرحلة التي هو حريص ألا يؤثر شيء فيها على علاقته مع بركة ، ومع هذا فبيبرس يشعر أنه يجب أن يحتفظ بصداقة ميخائيل في المدى الطويل ، ولهذا كتم غيظه ، وحاول أن يتسبب في إفساد العلاقة بين بركه وميخائيل .

وكان ميخائيل نفسه حريصاً على إبقاء حسن العلاقة بينه وبين كل من هولاكو وبيبرس ، إلا أنه وجد نفسه في موقف صعب لما وصله رسل بيبرس في طريقهم إلى بركه ، وكان في هذه الأثناء يحتفل في بلاطه برسول من قبل هولاكو ، فلم يرد أن يعرف هولاكو عن وجود رسل بيبرس ، ولهذا وجد أنه لابد له من تأخيرهم ، وإبقائهم منتظرين ما يقرب من العام . وقد سمع بركه بهذا التعويق ، فأرسل جيشاً لمحاربة القسطنطينية ولم ينسحب منها إلا عندما ذكره رسول بيبرس بأن ميخائيل حليف لبيبرس (٤) .

وقد اضطر ميخائيل في النهاية أن يأذن للرسل بالسفر ، فتلقاهم بركه عند وصولهم بالترحاب ، وأخذ منهم معلومات عن بلادهم ، وعندما عادوا إلى بلادهم زودوا بيبرس بمعلومات وافية عن معسكر بركه وعاداته ،

---

(١) وقد غادروا مصر يوم ١٧ من شهر رمضان ٦٦١هـ (٢٥ يوليه ١٢٦٣م) .

(٢) الروض ٣٦ . (٣) الروض ٣٦ .

(٤) الروض ٥٢ ، ٥٣ . المعلومات التي أوردها مفضل تختلف بعض الشيء عما أورده محي الدين ، فمفضل يذكر أن جنود بركة انسحبوا على أثر خطاب من رئيس البعثة لم تذكر فيه الحقيقة ، أكد فيه لبركة أنهم لم يجبروا على البقاء ، وإنما تأخروا رغبة منهم في ذلك (٤٥٦/١) وفي الفصل الآتي عن علاقة بركة بميخائيل معلومات أخرى عن هذه الحادثة .

وعن قواد جيشه ، وأفراد عائلته ، ولعلهم جاءوا أيضاً بأخبار عن علاقة بركه بهولاكو ، وهذه أمور ، لاشك ، أن بيبرس يتطلع إلى معرفتها . وكان رسل بيبرس لما تركوا بلاط بركه(١) رافقهم رسل من بركة لبيبرس ، فوصل الجميع مصر في العاشر من ذي القعدة عام ٦٦٢هـ (٣ سبتمبر ١٢٦٤م) حيث استقبلوا استقبالا حافلا .

علاقة بيبرس بخليفة بركة :

انشغل بركه في السنتين الأخيرتين بمحاربة هولاكو وابنه أبغا ، فقل اتصاله ، أثناءهما ، ببيبرس ، وقد استؤنفت المكاتبات بمناسبة موت بركه(٢) ، إذ أن بيبرس أرسل بعثة في شهر صفر ٦٦٦هـ (أكتوبر — نوفمبر ١٢٦٧م) لتعزية منكوتمر ابن أخيه ، وانتهز هذه الفرصة فحرض منكوتمر على أبغا(٣) ، وقد كان خلف أباه هولاكو بعد موته(٤) .

وفي عام ٦٦٧هـ (١٢٨٨ — ١٢٦٩م) غادرت البعثة التي كان قد أرسلها بركه قبل موته بلاط بيبرس ، ومعها خطاب منه عن الأمور التي تهم الطرفين ، واحتوى الخطاب ، فيما احتواه ، تأكيداً من بيبرس باستمرار العداوة بينه وبين بيت هولاكو ، وزوده بمعلومات عن ممالكه وجيوشه ، وفي الختام أخبره بالاتفاقية الأخيرة التي أبرمت بينه وبين امبراطور اليونان ميخائيل ، وانتهز هذه الفرصة ليتوسط له عند منكوتمر(٥) وجرياً على عادته في تجهيز رسل سلفه أعطى رسله ، عند عودتهم ، هدايا لمنكوتمر(٦) .

---

(١) وصلت أخبار مغادرتهم إلى بيبرس في شوال عام ٦٦٢ هـ (يوليه — أغسطس ١٢٦٤ م) .

(٢) يقال إن هذا حدث في عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦ — ٧ م) ، والسلوك ٢٦١/١ .

(٣) الروض ٩٩ .

(٤) في عام ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ — ٧ م) .

(٥) انظر الفصل لعلاقتهما لمعرفة مدي تدهور العلاقة بينهما .

(٦) الروض ١٢٤ .

صلته بمسؤولين في القبيلة الذهبية :

يقال أن منكوتمر لم يكن مثل سلفه مسلماً(١) وإنما كان من عبدة السماء ، ولم يكن هذا ليخدم هدف بيبرس ، وهو من كان الاسلام منطلقه في تحريض بركه على الايلخانيين ، ولهذا بدأ بيبرس يبحث عن رجال مسلمين من بين المحيطين بحاكم القبيلة الذهبية الجديد ، ويوجه لهم نداءه لنصرة الإسلام . وكان من أبرزهم بيسونوغاي ، أحد أقرباء بركة ، وقائد جيوشه ضد الايلخانيين ، ويبدو أن أهميته لا تقتصر على كونه صاحب جيوش خاصة به ، وإنما لمرتبته في تولي الملك ، مما جعله ، بعد موت منكوتمر ، يشارك خلفه في الملك ، ويبدو أن معرفة بيبرس بأهمية بيسونوغاي جعلته يحرص على التأكد من دينه ، فيستجوب « أربغا » ، ولعله رئيس البعثة الأخيرة التي أرسلها بركه ، ولم يضع هذا الاهتمام ، فعندما ورد خطاب بيسونوغاي في أوائل عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م)(٢) احتوى ، بعد الشكر لبيبرس ، والتحية له ، على سرور كاتبه لتساؤل بيبرس عمن أصبح مسلماً من أقرباء بركه ، وتجاوباً مع هذا التساؤل أكد بيسونوغاي اعتناق أصحابه للإسلام ، وبقائهم على سياسة بركة ، وختم الخطاب بالتأكيد على اتفاقه ومن معه على مناصرة بيبرس (٣) .

وقد سر بيبرس بهذه الرسالة ، ورد عليها مخبرا بوصولها ، ومبدياً سروره بما جاء فيها ، واجتهد في رده أن يحرض بيسونوغاي على أبغا ، وختم خطابه مشيراً إلى ما يبذله في الجهاد غربي الفرات ، وهو يماثل ما يبذلونه هم في نواحيهم(٤) .

تقوية الروابط مع منكوتمر :

استمرت في هذه الأثناء المراسلات بين بيبرس ومنكوتمر ويبدو أن آخر وفد أرسله منكوتمر كان في عام ٦٧٠هـ (١٢٧١ – ٧٢م) وكان مروره بأراضي الامبراطور ميخائيل(٥) ، وقد تأخر في الطريق ، لأنه ،

---

(١) فرنادسكي ، مقدمة مفرج الكروب ، ١٦٥ .

(٢) الروض ١٤٣ .

(٣) الروض ١٤٤ .

(٤) الروض ١٤٤ .

(٥) هذه آخر رسل تبودلت مما سجله محي الدين ومؤرخي الفترة اللاحقة لعصره .

في شهر ذي القعدة من هذه السنة ، وقعت السفينة التي تقلهم إلى مصر في يد المرسيليين ، فأحضروها إلى عكا ، فخاف بيبرس أن يرسلها الأفرنج إلى أبغا ، فطلب الافراج عنهم حالا ، وتم هذا بعد مفاوضات مع الافرنج ، وقد تشدد بيبرس مع التجار المرسيليين في الاسكندرية وغيرها من الموانيء المصرية ، فمنعهم من المتاجرة ، أو مغادرة القطر ، حتى يدفعوا ما أخذه مواطنوهم من الوفد(١) .

وعندما وصل الوفد كان يحمل معه أكثر من خطاب ، ربما كانت من عدد من رؤساء جيش منكوتمر ، لبيبرس عنواناً لصداقتهم معه ، وإبداء لعطفهم على الأقطار الإسلامية التي تحت سيطرة بيت هولاكو . مع رجاء منهم لبيبرس بمد يد العون لهم للقضاء على أبغا(٢) .

وعندما عاد الرسل في شعبان ٦٧١هـ (فبراير — مارس ١٢٧٣م)(٣) ، أرسل معهم بيبرس وفداً من قبله إلى منكوتمر ، ومعهم خطابه إلى خان القبيلة الذهبية(٤) ، يعلمه بأن أبغا(٥) قد أرسل له وفدا ، وأنه كذلك هاجم البيره ، ولكنه هزم على الفرات(٦) ، ولا يعرف رد منكوتمر على هذا الخطاب .

ومع أن علاقة منكوتمر مع أيلخانات إيران قد تحسنت(٧) إلا أن علاقته مع بيبرس ، كما يظهر ، بقيت طيبة ، ومع هذا فلابد أن تحسن العلاقات بين كبيري التتار قد آلمت بيبرس ، وجعلته يبحث عن مصدر قوة آخر يساعده على الوقوف في وجه أبغا ، وهذا قد يفسر عزم بيبرس على القضاء على قوة التتار في آسيا الصغرى(٨) .

---

(١) الروض ١٥٩ ، ومفضل ٥٤٩/١ .

(٢) الروض ١٥٩ ، وابن شداد ٥/٢ .

(٣) ابن شداد ١٩/٢ .

(٤) الروض ١٦٤ .

(٥) راجع علاقة بيبرس بالايلخانيين (ص ٥٤) .

(٦) راجع ما سيأتي ص ٦٤ .

(٧) راجع الفصل الخاص بعلاقة بيبرس بالايلخانيين ص ٥٤ .

(٨) راجع ما سبق ص ٥٢ .

(ب) علاقة بيبرس بايلخانات ايران

كان مركز بيبرس عندما تولى ملك مصر وسوريا صعباً ، فالتتار عدوه الرئيسي ، يحتلون العراق ، ولهم ولايات تتبعهم في أرمينيا وآسيا الصغرى ، وقد هزم المسلمون التتار حديثاً ، فهم يستجمعون قوتهم لأخذ الثأر . والافرنج ، وهم عدو لدود آخر ، يحتلون الأراضي الساحلية للشام ، فلو عزم التتار على مهاجمة المسلمين لانتهز الافرنج الفرصة لتوسعة أملاكهم في الشام ، وربما هددوا مصر ، أو لو وصلت إليهم إمدادات جديدة من أوروبا فإنهم سوف يشكلون خطراً لا يقل عن خطر التتار ، ولهذا حرص بيبرس على أن يرمي بثقله في جميع الاتجاهات ، فشن الحروب ، وكوّن العلاقات الدبلوماسية ، ليتفادى هذه الأخطار المحدقة به .

إنشغال أيلخان إيران :

عندما توفي منكو خان ، حاكم التتار ، في عام ٦٥٨هـ (١٢٥٩—٦٠م) اضطر هولاكو أن يترك الشام ، ويعود إلى الشرق ، حيث ينصب حاكم التتار الأعلى ، وبعد سفره بمدة وجيزة مني جيشه بهزيمة ذريعة في عين جالوت ، ولم يستطع أن يثأر لجيشه لانشغاله في متابعة تنافس كوبيلاي وأرك بغا ، المرشحين للحكم ، وكان يعضد كوبيلاي أدبياً وحربياً ، فحرص أن يكون قريباً من مركز الحوادث .

وانشغال هولاكو بهذه الحوادث أعطى بيبرس وقتاً لتنظيم أمور مملكته ، فأمضى جزء من عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وكامل السنة التالية تقريباً في تدعيم سلطته ، وتقوية مركزه (١) .

وحتى بعد سنة ونصف من هزيمة التتار في عين جالوت ، لم يكن هولاكو مستعداً لمتابعة حروبه في البلاد الإسلامية ، فقد أجبرته الحوادث أن يتجه شمالا ضد بركه ، خان القبيلة الذهبية ، لأن العداوة بينهما كانت تزداد حدة أثناء حكم منكوخان ، وقد تطورت أخيراً إلى الاصطدام الحربي ، مما منعه من الالتفات كلية إلى بيبرس(٢) .

---

(١) راجع ما سبق .

(٢) امبراطورية المغول ، مايكل برودن ٣٦٥ .

هجوم التتار على الشام :

أصبحت الحدود الشرقية والشمالية الشرقية للشام معرضة في هذه الفترة ، لبعض الاضطرابات والقلاقل ، والتحفز ، نتيجة النشاط العسكري الذي قام به التتار في الأراضي المجاورة لها . وأول هجوم قاموا به بعد وقعة عين جالوت كان قرب نهاية عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) (١) ولم يكن بيبرس حينئذ قد وطد حكمه في الشام ، ولهذا لما عبر التتار الفرات سارع حاكم حلب بإرسال قوة لصدهم ، فهزموا قوته هذه ، مما شجعهم على التقدم إلى حلب ، وأخذها ، إلا أنهم عندما تقدموا إلى حمص ، قابلتهم قوة إسلامية مجمعة ، فهزمتهم ، وأجبرتهم على التقهقر إلى حلب ، فبقوا هناك حتى جمادى الأولى من السنة التالية (ابريل — مايو ١٢٦١م) ، فانسحبوا من حلب ، كما يقال ، على أثر سماعهم إرسال بيبرس جيشاً في أوائل ربيع الأول (فبراير — مارس (٢) . وقام التتار أيضاً بهجوم آخر ناجح في عام ٦٦٠هـ (١٢٦١ — ٦٢م)(٣) وكان موجهاً في هذه المرة ضد الموصل ، فتمكنوا من احتلال المدينة قبل أن تصلها النجدة التي أرسلها بيبرس(٤) .

هذا النشاط كله تم أثناء انشغال بيبرس في ترتيب الأمور الداخلية لمملكته ، ولهذا فهو لم يشارك فيها أصلا ، أو لم تصل جيوشه للمساهمة إلا بعد فوات الأوان ، وعلى كل حال لم يجد بيبرس أن هذه الغزوات كانت بالقوة التي توقعها منهم ، محوا للعار الذي لحقهم في عين جالوت ، إلا أنه في عام ٦٦٠هـ (١٢٦٠—٦١م) لما علم أنهم يستعدون لإرسال حملة ضخمة لجهة غير معلومة ، اهتم كثيراً ، وأخذ الاجراءات التي تضمن له النصر ضد هولاكو ، فيما لو قام بهجوم على بلاده(٥) .

حركات بيبرس في العراق وإيران :

لقد استفاد بيبرس كثيراً من الوقت أثناء انشغال هولاكو في نزاعه مع بركه (٦) . وفي عام ٦٦١هـ (١٢٦٢ — ٦٣م) زيادة على الخطوات

---

(١) نهاية الأرب ، ٨/٢٩ .

(٢) نهاية الأرب . ٨/٢٩ ويقول النويري أن القوة التي أرسلها بيبرس ، رداً للتتار ، رآها الإفرنج في غزة ، فأخبروا التتار بها ، راجع أيضاً الذيل ٤٤٠/١ و ٩٣/٢ .

(٣) السلوك ٤٧٥/١ .

(٤) الروض ١٩ .

(٥) الروض ٢٩ .

(٦) هورث ١١٥/٣ — ١١٦ .

التي قام بها لتقوية جيشه ، سعى لإضعاف قوة التتار في العراق ، إذ كان من بين القبائل التي تسكن على حدود العراق قبيلة خفاجة القوية ، وقد دخل بعضها تحت طاعة التتار(١) . بينما انتشرت أجزاء أخرى منها على الضفة الغربية للفرات ، واعتبروا في جانب بيبرس ، ولطبيعة حياة البادية ، والسهولة التي يستطيع بها أفراد هذه القبيلة التنقل ، وعبور الفرات إلى البر الشرقي منه ؛ صعب على التتار معرفة الذين معهم منهم من بين الذين عليهم . وقد أدرك بيبرس هذه الطبيعة ، فاستفاد من توغل رجال قبيلة خفاجه في العراق دون أن يشتبه فيهم ، لكسب آخرين لجانبه ، وليضايقوا تلك الجهات ما أمكنهم ذلك . ولم يقتصر نشاط بيبرس على العراق ، وإنما حاول أن يكسب أصدقاء داخل ممالك التتار ، فوصلت جهوده في هذا إلى شيراز ، وأثار حاكمها ضد التتار(٢) ويبدو أن محاولته هذه كانت ناجحة لأنه في السنة التالية ٦٦٢هـ (١٢٦٣ – ٦٤م) وصل إلى بلاط بيبرس رجال من خفاجه مفيدين أنهم كانوا يقومون بغارات على التتار وأنهم توغلوا إلى أبواب بغداد والبصرة ، وأن حاكم شيراز هزم قوة للتتار ، فكتب له بيبرس وشجعه(٣) .

ومن الاحتياطات التي قام بها بيبرس تحسباً لهجوم التتار أنه قوّى حصونه التي على الحدود الشرقية للشام ، خاصة ثغر البيره المهم . فهذه المدينة بقلعتها المنيعة تقوم على حراسة الجانب الشامي ، وهي مركز هام للغارات على مواقع التتار المتطرفة . ففي عام ٦٦٢هـ (١٢٦٣ – ٦٤م) مثلا وجهت الغارات منها إلى المنطقة الممتدة إلى قلعة الروم(٤) .

رد الفعل عند التتار :

كان لابد أن يثير نشاط بيبرس في العراق ، رد فعل عند التتار المسؤولين هناك . وقد تمثل هذا في عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤ – ٦٥م) في حصارهم للبيرة في ربيع الأول ، ومعهم سبعة وثلاثون منجنيقاً (٥) .

---

(١) ولهم دور فعال في الحرب التي دارت رحاها بين بيبرس والتتار . انظر مثلا : الروض ١٧٢ .

(٢) الروض ٤١ .

(٣) الروض ٤٨ .

(٤) الروض ٥٢ .

(٥) الروض ٦٣ .

ويقال ان التتار اختاروا وقت الهجوم بناء على نصيحة من الأفرنج لهم بأن العساكر الإسلامية لا تستطيع أن تقوم بنشاط في فصل الربيع ، لتفرق خيلهم في المراعي ، وقد دام الحصار شهرين(١) . ويمكن أن نتصور الصعوبة التي قابلها بيبرس لتجميع القوى اللازمة لرد العدوان ، وقد أخذ هو مكانه في منطقة مجاورة للأفرنج . في حين أن التتار انسحبوا مسرعين أمام النجدة التي بعثها(٢) .

ويدل حجم الحملة التي أرسلها بيبرس لنجدة البيرة(٣) والجند الكثير الذي قاده بنفسه على مدى اهتمامه للموقف ، وقد أزعجته كثيراً النصيحة التي أسداها الأفرنج للتتار في تبصيرهم بأحسن وقت للهجوم ، مما أوحى إليه بوجود حلف بين أعدائه ، وهذا يفسر تمركزه مع جيش كبير بجوار مناطق الأفرنج بدلا من السير مع النجدة التي أرسلها إلى البيرة . وقد تفرغ لأخذ الثأر من الأفرنج عندما انسحب التتار من البيرة ، وتأكد من أنه لن يضطر إلى أن يقاتل عدوين في آن واحد ، إلا أنه قبل أن يلتفت للأفرنج(٤) كان لابد له من تقوية البيرة ، وتحصينها تحصيناً يجعلها تقاوم مدة طويلة أي هجوم يقوم به التتار ، وقد تم تجهيزها بمؤن وذخيرة ، تكفيها عشر سنوات(٥) .

تتويج أبغا :

مات هولاكو في التاسع عشر من ربيع الثاني ٦٦٣هـ (٨ فبراير ١٢٦٥م)(٦) وخلفه ابنه أبغا(٧) . وقد ورث أبغا عن أبيه عداوته للقبيلة

---

(١) هناك خبر يصف مقاومة أحد الأبراج للضرب لمدة شهرين . الروض ٦٥ .

(٢) الروض ٦٤ .

(٣) أرسل ثمانية آلاف فارس ، وقوة أخرى جاء بها الملك المنصور معه من حلب .

(٤) راجع ما سيأتي عن علاقته مع الافرنج .

(٥) الروض ٦٥ – ٦٦ .

(٦) جامع التواريخ ٩٤/٣ ، راجع أيضاً السلوك ٥٤١/١ وابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ٣٥٣ .

(٧) تولى أبغا السلطة في الثالث من رمضان عام ٦٦٣هـ (١٩ يونية ١٢٦٥م) . جامع التواريخ ٩٥/٣ . راجع أيضاً ابن الفرات ٣٥٣ .

الذهبية ، ومثل والده لم يستطع أن يتحلل من ارتباطاته في الشرق ، وينصرف كلية لبيبرس ، وهو من ارتاح في هذه الفترة من تهديد التتار فدفع مخططه ضد أعدائه الآخرين .

خطر تتري جديد :

ورد أول خبر عما يعده التتار من هجوم ضد منطقة حلب ، في حدود جمادى الأولى ٦٦٦هـ (يناير — فبراير ١٢٦٨م) ولعل هذا الهجوم قد وكل إلى جيوش التتار المرابطين في جنوب آسيا الصغرى ، انتهازاً لفرصة وجود بيبرس بعيداً في مصر ، إلا أن هذا الهجوم لم يتم ، إما لأن الخبر انتحله بيبرس ، ليضلل عن الغرض الحقيقي ، وهو غارته على بعض ممتلكات الأفرنج في الشام(١) أو لأن التتار علموا باستعداداته العظيمة ، فاختاروا ألا يصادموه(٢) .

استمرار إنشغال أبغا :

دخلت علاقة أبغا بمنكوتمر في طور جديد في عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧ — ٦٨م) ، فانتصار كبلاي على أخيه الأصغر أريك بغا أوصل الرجل الذي يعضده هولاكو وابنه أبغا إلى الحكم ، وقد أدرك كبلاي الأضرار التي ألحقتها الحرب الأهلية بايلخانات إيران فحرص أن يصلح بين الأمراء المتنازعين(٣) وقد سهل هذا أن منكوتمر لم يكن مسلماً ، ومع أن الاتفاق النهائي لم يتم إلا في عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩ — ٧٠م) تقريباً(٤) إلا أنه يبدو أن الأزمة بدأت تخف منذ عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧ — ٧٨م) ولكن هذه السنة التي شهدت بادرة السلم ، وإمكانية اطلاق يد الايلخانيين ليستأنفوا حملاتهم الحربية على الشام ، شهدت أيضاً مولد خطر جديد يتمثل في تهديد براغ ، حاكم قبيلة جوغتاي ، لحدود أبغا الشرقية(٥) مما اضطر أبغا أن يثني عزمه عن الشام ويتجه إليه . تاركاً لبيبرس ، للمرة الثانية ، أن ينطلق حراً في توسيع ممتلكاته على حساب أعدائه المقيمين على حدوده الطويلة .

---

(١) راجع علاقته بالافرنج ٢٣٤ . (٢) الروض ١٠١ .

(٣) راجع خطاب أبغا إلى بيبرس فيما يخص الاتفاق بين أمراء التتار المتنازعين . الروض ١٢٦ — ١٢٧ .

(٤) فرنادسكي ، المغول وروسيا ١٦٥ .

(٥) هوارث ٢٢٨/٣ — ٢٢٩ ، الذيل ٤١١/٢ ، ٤٣٤ — ٤٣٦ ، ابن الفرات ٣٥٧ .

مفاوضات للسلام :

لقد أصبح بيبرس حاكما قوياً ، لا تسمح ظروف أبغا بهدم قوته ، وحليف أبغا ، الامبراطور ميخائيل ، بينه وبين بيبرس صداقة ، ولهذا حاول ميخائيل أن يقرب بين أبغا وبيبرس باقتراح محادثات أمل أن توصل إلي اتفاق . سوف يستفيد منه ميخائيل . وسوف يساعد ميخائيل في هذا المسعى انشغال أبغا عن بيبرس مما يجعله يرحب بالفكرة . لذا انتهز ميخائيل الفرصة في عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨ - ٦٩م) فكتب إلى بيبرس مقترحاً فكرة الصلح ، إلا أن بيبرس قدر الموقف الصعب الذي كان فيه أبغا . فرفض أن يتفاهم مع الايلخانيين (١) .

واستتباب السلام بين بيبرس وأبغا لا يفيد ميخائيل وحده ، وإنما هناك آخرون من حلفاء أبغا أو أتباعه ، فهيثوم حاكم سيس ، كان بحاجة ماسة لمثل هذا السلام ، لأنه كان تابعاً للتتار ، ويتوقع أن يشترك في أي نشاط حربي يقوم به أبغا وهيثوم . بعد هزيمة بيبرس له في نهاية السنة ٦٦٥/١٢٦٧م وفي سبيل إطلاق سراح ابنه اضطر إلى توقيع هدنة مذلة ، تنازل فيها عن عدد من حصونه المنيعة ، وتعهد ألا يبني أو يرمم أي حصن ، ووافق على ارسال هدية سنوية إلى بيبرس(٢) ولهذا فهيثوم وهو بهذه الحالة من الضعف لم يكن بإمكانه أن يساعد التتار ضد عدو مثل بيبرس ، ولكنه لم يكن أيضاً يستطيع أن يرفض اقتراح التتار بالهجوم على أراضي بيبرس ، أو الاشتراك في مثل هذا الهجوم . ولهذا فالسلام بين بيبرس وأبغا ينهي أمر هذه المشكلة ، إلا أن أبغا وبيبرس لم يكونا متحمسين ، مثل هيثوم ، للصلح ، مما جعل موقفه أكثر حرجاً ، ولما أخفق هيثوم في أن يجعل بيبرس يثق به في إجراء محادثات السلام تجرأ فأخذ الأمر على عاتقه ، وقدم هو طلباً إلى أبغا - لعله باسم بيبرس - وعرض أن يكون وسيطاً بينهما(٣) ، وقد أنكر بيبرس ، فيما بعد ، تفويضه بذلك . وهذه الخطوة لم تأت بفائدة في طريق المفاوضات .

ومع هذا فيبدو أن محاوت هيثوم لم تخل من نتيجة ، إذ أن أبغا أرسل رسولا إلى بيبرس بصحبة حاكم سيس عند عودته من بلاط أبغا ، وقد

(١) الروض ١٢٤ . (٢) الروض ١٧٤ .

(٣) المباحثات التي دارت فيما بعد بين بيبرس وأبغا ، والخطابات التي تبودلت ، تدل على أن هيثوم قد قام بإبلاغ أبغا رغبة بيبرس ، دون أن يطلب منه ذلك . الروض ١٢٦ .

حمل الرسول معه خطاباً لبيبرس ، مكتوباً من بغداد ، ومؤرخاً في ٢٠ ربيع الآخر ٦٦٧هـ (٢٧ ديسمبر ١٢٦٨م) ومشتملا على المسائل الآتية(١) :

« فهم أبغا – ولعل هذا عن طريق صاحب سيس – أن قطز هو الذي قتل رسل التتار الذين أرسلوا إليه في عام ٦٥٨ هـ (١٢٥٥م) . وهناك ما قد يدل على أن التتار لا يريدون أن يتهموا بيبرس ظلماً بهذه الفعلة(٢) . وأبغا يعرف أن بيبرس يود اطلاق سراح بعض الأسرى المعتقلين في الأردو . ثم يأتي بعد هذا إشارة إلى نزاع منع أبغا من أن يقوم بحملة على بلاد بيبرس ، ولعل النزاع المقصود هو الذي حدث بين كبلاي ، وأركرابغا ، بعد وفاة منكوخان(٣) . ويبدو أن التتار قد فهموا أن بيبرس كان مستعداً أن يخضع لأبغا(٤) لأن هناك اقتراحاً مؤداه أنه على بيبرس أن يرسل أحد أولاده أو قواده ليفاوض في إبرام اتفاق مع التتار ، ومع هذه الدعوة فهناك جملة في الخطاب تدل على أن الايلخان غير متأكد من أن بيبرس سوف يفي بوعده الذي سبق أن قطعه على نفسه . ويختم أبغا خطابه بالفخر بأنه قد فتح العالم .

وهناك شيء آخر أضافه المقريزي ، مشيراً أنه كان ضمن الخطاب :

« ان الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ، ومن خالفه هلك وقتل ، فأنت لو صعدت إلى السماء ، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا . فالمصلحة أن نجعل بيننا صلحاً » .

---

(١) الروض ١٢٦ (بعض المعاني في الكتاب غامضة ، وقد يكون سبب ذلك أن الناسخ قد أشكلت عليه بعض الكلمات التترية ، والتركيبات المتقطعة في ترجمة الأصل ، ولهذا فالملخص المثبت هنا بني أغلبه على الحدس) .

(٢) أما فيما يختص بهذا الجزء من خطاب أبغا ، فإن شافع يذكر أن أبغا عاب على بيبرس قتله قطز ، فأجاب بيبرس : « إنما قتلت قطز للملكي ، فإن الملك لي بالإجماع » ١٢٣ – ١٢٤ . هذه الجملة الغامضة عن قطز وبيبرس قد يكون دخل عليها بعض الخطأ، وهذا التعليل الضعيف لتصرف بيبرس ، قد يعطي فكرة على أنها أضيفت في زمن متأخر

(٣) راجع ما سبق .

(٤) نسخة الخطاب في هذا الجزء بالذات غامضة ، وهذا المعني استخرج من رد بيبرس ؛ راجع الروض ١٢٦ – ١٢٧ .

ويستمر المقريزي فيقول : إن الرسل أبلغوا بيبرس الرسالة الشفوية الآتيـــة :

« أنت مملوك ، وأبعت في سيواس ، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض »(١) .

وقد يكون الرسل حملوا هذه الرسالة الشفوية في حالة ما إذا لم تفد لهجة أبغا اللينة في الخطاب .

ويتلخص جواب بيبرس في الآتي :

« إنه لم يطلب من التكفور هيثوم إلا أن يبلغ أبغا رد الرسالة التي أحضرها سنقر الأشقر ، بعد أن أطلق التتار سراحه حسب الاتفاق مع التكفور . أما قتل الملك المظفر قطز رسل التتار فإن بيبرس فعل عكسه ، فأعاد رسل أبغا سالمين ، ومع هذا فهو لم يجب إلى ما طلب(٢) . وهو يتعجب كيف يقع بينه وبينهم اتفاق(٣) ومملكته أعظم من مملكة جنكيزخان . ورد على افتخار أبغا بأن جميع من بين مطلع الشمس ومغربها قد أطاعوه ، بأن تساءل ساخراً عن مصير كتبغا ، قائد جيوش التتار(٤) » .

ويعود بيبرس في آخر الرسالة فيشير إلى :

« أنه لو بقي أبغا عند كلمته وأرسل أحد اخوانه أو أولاده أو قواده الكبار لسير بيبرس إليه من طلبه من أبنائه أو كبار قـــواده(٥) » .

ورد بيبرس على رسالة أبغا الشفوية بأن طلب جميع الأراضي التي احتلها التتار في إيران والجزيرة وبلاد الروم والشام(٦) .

وكان لابد من اخفاق هذه المفاوضات التي سيطرت عليها روح غير مخلصة . وكلا الفريقين كان يدرك أن الصلح لم يكن الهدف ، أما الرسل الذين ترددوا فلم يكونوا إلا جزء من الاجراءات الرسمية التي جرت العادة أن تتخذ إذا ما بدئت المفاوضات .

---

(١) السلوك ٥٧٤/١ .

(٢) لم يذكر ما طلبه بيـــبرس ؛ وربما كان يشير إلى بقيـــة المسلمين الذين لا يزالون محتجزين عند التتار ؛ والذين كان بيبرس قد أبدي رغبة في اطلاقهم .

(٣) ولعله يعني بهذا اتفاقاً يرتكز على خضوعه للتتار .

(٤) وكان قد قتل عند انهزامهم في موقعة عين جالوت .

(٥) الروض ١٢٧ . (٦) النجوم ١٤٤/٧

بادره عداء :

رغم أنه يبدو أن مظاهر العداوة بين بيبرس والتتار قد خفت بعض الشيء نتيجة لهذه المفاوضات إلا أنه ذكر أن التتار في العراق قد أعدوا قوة ، بارشاد بعض الأعراب ، لاستكشاف طريق الحجاز . وقد يكون هذا أحد الأسباب خلف عزم بيبرس على الحج عام ٦٦٧هـ (١٢٦٩ م) ويقال أن التتار عندما علموا بعزمه هذا غيروا خطتهم (١) .

التحالف بين التتار والإفرنج :

كانت حركة التتار التالية على منطقة حلب ، وقد شنوا هجومهم هذا في ربيع الأول ٦٦٨هـ (أكتوبر — نوفمبر ١٢٦٩م) وكان قلق بيبرس من جراء هذا الهجوم عظيماً ، لأنه علم أن التتار قد اتفقوا مع الأفرنج على أن يهجموا معاً في نفس الوقت(٢) وقد أبرم هذا الاتفاق رسل ملك أرجون ، وكانوا قد وصلوا عن طريق سيس ، ووصل بقية أتباعه إلى عكا(٣) إلا أن التتار بعد أن هاجموا حلب انسحبوا على أثر سماعهم بوصول بيبرس إلى الشام . وقد أوقف بيبرس نشاطه لبقية هذه السنة عن الافرنج والاسماعيلية(٤) ، ولم يحاول التتار أن يشنوا أي هجوم آخر في هذا العام(٥) .

وكان أبغا ، في هذه الأثناء ، منشغلا كثيرا عن بيبرس ، وكانت قوة بيبرس تزيد مع مرور الأيام ، ولم يكن بإمكان أبغا أن يعتمد على المحادثات وحدها لتوسعة نطاق ملكه ، ولهذا فلم يستغرب منه أن يلتفت إلى الافرنج ، ألد أعداء بيبرس ، يلتمس منهم العون عليه ، فقد أرسل وفداً إلى البابا ، أرسله البابا عن طريقه إلى انجلترا وفرنسا وأسبانيا ، وكانت ثمرة جهود هذا الوفد حملة صليبية قادها لويس التاسع ، ملك فرنسا ، إلا أنها صرفت إلى تونس(٦) فسلم بيبرس من هجوم مركز أراد أبغا أن يوجهه إليه(٧) .

---

(١) الروض ١٣٦ (٢) الروض ١٣٨ .

(٣) الروض ١٣٩ . (٤) راجع علاقته مع الافرنج

(٥) لا يستبعد أن يكون أبغا هو صاحب فكرة التحزب هذه .

(٦) راجع علاقة بيبرس بالأفرنج .

(٧) امبراطورية المغول ، براون ٣٧٠ .

رد الفعل عند بيبرس :

فقد بيبرس ، بعد أن تم الصلح بين أبغا ومنكوتمر ، عنصراً هاماً في صرف أبغا عن الهجوم على الشام ، وقد قابل نشاط أبغا الدبلوماسي مع الأفرنج بأن بدأ يذكي جذوة العداوة بين أبغا والقواد الكبار في خدمة منكوتمر . وركز على الناحية الدينية كما سبق أن فعل عند تحريضه بركة ضد الايلخانيين ، وكان بيسونوغاي — قائد جيوش القبيلة الذهبية — مسلماً ، فبدأ بيبرس الاتصال به لهذا الهدف(١) .

هجوم تتري :

كان ادوارد ، ملك انجلترا ، من بين المشتركين في الحملة الصليبية على تونس إلا أنه وصلها متأخراً فلم يشترك في القتال ، فتابع رحلته إلى الشام أملا في أن يحوز بعض النجاح على المسلمين فيه . وكان الأفرنج في الشام قد سروا بأخبار الحملة الصليبية في أوروبا ، إلا أن خيبة أملهم لفشلها في تونس كانت أعظم ، إذ أنهم أدركوا مدى الخطر الذي يحيط بهم من بيبرس ، ولهذا التمسوا مساعدة أيلخان إيران ، فأجاب طلبهم بأن أمر قائده في آسيا الصغرى بمهاجمة أراضي بيبرس(٢) .

كان بيبرس في أوائل عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) في الشام وقرر أن يبقى هناك ليصد أي هجوم على أراضيه(٣) ، وقد جاء الهجوم في ١٥ ربيع الأول عام ٦٧٠هـ (٢١ أكتوبر ١٢٧١م) على عين تاب وحارم ويقال أن هذه الحركة التي قام بها التتار كانت باتفاق مع الأفرنج ، فقد هاجم الأفرنج قاقون في ربيع الثاني ٦٧٠هـ (نوفمبر — ديسمبر ١٢٧١م) (٤) فأرسل بيبرس في الحال قوة للهجوم على التتار النازلين على حارم ، وأخذ هو مكانه في منطقة حلب قريباً من الأفرنج ، ولعل تصرف بيبرس السريع في اعداد القوة اللازمة حال دون وقوع هجوم قائد التتار في آسيا الصغرى(٥) .

---

(١) راجع علاقته بخانات القبيلة الذهبية .

(٢) هوارث ٢٤٢/٣ — ٢٤٣ .

(٣) الروض ١٥٦

(٤) الروض ١٥٧ .

(٥) نهاية الأرب ٤٨/٢٩ .

وقد أجبر الجو القارس في الشام بيبرس أن يؤجل انتقامه من الأفرنج ، لغاراتهم على قاقون ، فسار إلى مصر ووصلها في الثالث والعشرين من جمادى الأولى (٢٧ ديسمبر ١٢٧١م) ، إلا أن انسحابه من الشام شجع التتار على التقدم إلى حران وبلغته أخبار وصولهم إليها في رجب (فبراير — مارس ١٢٧٢ م) .

وفي الثالث من شعبان (٥ مارس) كان قد استعد لمغادرة القاهرة إلى الشام (١) ، وقد أدرك التتار أنه ليس باستطاعتهم أن يحتفظوا بحران فخربوها في رمضان (أبريل)(٢) ، وفي أثناء حدوث ذلك كان بيبرس قد وصل إلى الشام ، وبدأ محادثات صلح مع الأفرنج(٣) .

مفاوضات مع التتار :

في هذه الفترة التي أحس فيها بيبرس بمدى خطر تحالف التتار والافرنج عليه ، بدأ اتصالاته بالشخصيات الإسلامية المهمة في آسيا الصغرى ، وكانت العلاقة حينئذ بين صمغر ، قائد التتار في آسيا الصغرى ، والبرواناه متدهورة ، ولعل ذلك يعود إلى تجسس صمغر عليه ، ومضايقته له ، ومطالبته إياه بالمساهمة في نصرة التتار ، وكان من السهل على بيبرس أن يدرك هذا عن طريق شبكة تجسسه اليقظة هناك ، ولا يستبعد أن يكون البرواناه ، لما أصبح يكنه للتتار من كره ، قد اتصل ببيبرس ، واقترح عليه أن يفاوض صمغر على الصلح(٤) ، فالهدنة بالنسبة لبيبرس ، تمكنه من الهجوم على الافرنج ، وهذه الخطوة إن نجحت فسوف تجعله في موقف الند للتتار ، وتمهد الطريق لطموحه لتحرير آسيا الصغرى منهم ، وكان اقتراح البرواناه أنه عندما يرسل بيبرس رسله ، فإن البرواناه سوف يساعد في اقناع قائد التتار بجدوى الصلح ما دام أبغا منشغلا في الشرق . وقد وصلت رسل صمغر والبرواناه في السابع من شوال ٦٧٠هـ (٧ مايو ١٢٧٢م)(٥) ومعها الرد على خطاب بيبرس(٦) ، وكان ذلك بعد أن عقد

---

(١) الروض ١٥٨ .

(٢) ابن شداد ٣ .   (٣) الروض ١٥٨ .

(٤) ولعل الهدنة التي سلمها رسل بيبرس للبرواناه ، عند وصولهم إليه ، تدل على التفاهم بينهما . راجع الروض ١٥٩ .

(٥) ابن شداد ٤/٢ .   (٦) الروض ١٥٨ .

الصلح مع الافرنج . وقد اقترح صمغر في خطابه لبيبرس أن يعقد صلح بينهما ، وأوصى رسله أن ينبهوا بيبرس إلى أنه منذ أن وصل صمغر إلى آسيا الصغرى لم يتصل به بيبرس ، ولو كان فعل لحقق له صمغر رغبته ، وأردف هذا بنصحه لبيبرس بأن من المصلحة لبيبرس وأبغا أن يرسل بيبرس إلى أبغا من يطلعه على رأيه ، وسوف يساعد صمغر في بذل الجهد لإقناع أبغا به(١) .

ويظهر أن هذا الاقتراح قد راق لبيبرس بدليل أنه أكرم الرسل ، وأعادهم مع رسله إلى صمغر ، ثم اصطحبهم البرواناه إلى الأردو حيث يقيم أبغا . وقد أخبر رسل بيبرس أبغا بأن صمغر قد نقل إلى بيبرس رغبة أبغا في أن يصله وفد من بيبرس . وقد تضمنت شروط بيبرس للصلح إعادة أبغا لأراضي المسلمين التي سبق أن احتلها ، وقد رفض أبغا هذا ، وعرض أن يحتفظ كل منهما بما في يده(٢) .

ويدل تشدد بيبرس في الشروط أنه لم يكن في الحقيقة حريصاً على الوصول إلى اتفاق مع أبغا ، لأنه ربما كان يعتقد أن مثل هذا الاتفاق سوف لا يضمن سلاماً دائماً ، وإنما يتيح لأبغا راحة هو في أشد الحاجة إليها ، وأي سلام مع أبغا ربما أضر بالصداقة التي بدأ بيبرس بناءها مع كل من بيسونوغاي ثم مع منكوتمر ، ومع البرواناه في آسيا الصغرى ، وعلاقته مع البرواناه ، بالذات ، سوف يتبين مدى أهميتها في السنوات المقبلة ، أثناء اصطدام بيبرس بالأيلخانيين . ويؤكد عدم حرصه على الاتفاق مع أبغا ما نقله رسله لأبغا من أن منكوتمر قد كرر عرضاً لبيبرس في أن يتقدم كل منهما من جانبه على أراضي الأيلخانيين ويتملك ما يستولى عليه منها(٣) ، وعلى أي حال لم يصل بيبرس وأبغا إلى اتفاق ، وهو ما يمكن أن يتوقع في مثل هذه المحادثات غير الهادفة .

تجدد العداوه :

أدرك أبغا ألا أمل في الوصول إلى اتفاق مع بيبرس ، فبدأ يستعد للهجوم على أراضيه ، فعلم بيبرس بهذا ، وقد أسرّ في الخامس من محرم عام ٦٧١ هـ

(١) ابن شداد ٤/٢ ، والذيل ٤٧١/٢ — ٤٧٢ .
(٢) ابن شداد ٤/٢ ، والذيل ٤٧٢/٢ .
(٣) الروض ١٥٩ .

(أغسطس ١٢٧٢ م) إلى بعض أمرائه عندما كان في دمشق من تخوفه من هجوم التتار بغته ، خاصة وأن رسله قد تأخروا عند أبغا ، فخشى أن يكون ذلك لطمأنته ، حتى يتمكن التتار من إكمال استعدادهم في غضون هذه الفترة . وخاف أن يهجموا قبل أن يكون مستعداً لهم بالرجال والمؤن والذخائر . ولهذا سافر إلى مصر في السادس من محرم ، وعاد إلى الشام في الثالث من صفر ، بعد أن رتب أمور الجيوش التي سوف تتبعه(١) .

وقد عاد رسل بيبرس من بلاد أبغا في ١٥ صفر ٦٧١ هـ (١٢ سبتمبر ١٢٧٢ م)(٢) ، وربما كان وصول رسل أبغا معهم في نفس الشهر . ورغم تشدد بيبرس في الشروط إلا أن رسل أبغا أظهروا ، في أول الأمر ، رغبة في الصلح ، وتوسط سنقر الأشقر بينهما ، إلا أنهم ، فيما بعد ، غيروا فحوى رسالتهم ، وفهم منهم بيبرس أنه لا بد أن يذهب للمفاوضة في الصلح ، بيبرس نفسه ، أو أحد قواده ، ممن يليه في المنزلة (٣) .

وقد يكون من الواضح أن أبغا كان يرمي من وراء ذلك إلى كسب الوقت ، ولم يكن يرجو أن يصل رسله إلى صلح البته ، لأن جيوشه في الحقيقة كانت قد تحركت عندما كان رسل أبغا في بلاط بيبرس(٤) .

وتقدم التتار لمهاجمة البيرة والرحبة ، ولكنهم فكوا الحصار عن الرحبة ، عندما سمعوا باقتراب بيبرس ، فلما وصل إلى الفرات ، وجد أن عددهم خمسة آلاف ، وأنهم قد تحصنوا في الشاطيء الشرقي من النهر(٥) ، فعبر النهر مع جيوشه إليهم في اليوم الثاني ، وهو يوم الأحد ١٨ من جمادي الأولى ٦٧١ هـ (١١ ديسمبر عام ١٢٧٢ م)(٦) ، واشتبك معهم في معركة حامية انتهت بهزيمة التتار ، وأسر قائدهم جنقر الأكبر ثم قتله(٧) ثم عاد بيبرس فعبر النهر ، في اليوم الثاني ، عائداً إلى الشاطيء الغربي ، فبلغه أن درباي أحد قواد التتار ، المحاصر للبيرة ، قد انسحب منها ، وقد خرج من في البيرة أثر انسحابه منها ، فأخذوا أمتعته(٨) .

---

(١) الروض ١٦٠ . (٢) ابن شداد ٤/٢ . (٣) الروض ١٦١

(٤) غادر الرسل الشام في شهر ربيع الأول ، ووصلت أخبار هجوم التتار إلى بيبرس في السادس من هذا الشهر . الروض ١٦١ .

(٥) الروض ١٦١ . (٦) مفضل ٣٨٠ .

(٧) الروض ١٦١ . (٨) الروض ١٦١ .

إزدياد نشاط التتار :

مر باقي هذه السنة دون أن يتعرض بيبرس لأذى من التتار ، وحتى محرم من السنة التالية ٦٧٢ هـ (يوليه — أغسطس ١٢٧٣ م) لم تبلغه أي أخبار عن تطور في نشاطهم ، أما هو فقد غادر مصر إلى الشام مع بعض قواده المقربين(١) وفي طريقه إليها علم أن أبغا بنفسه كان في بغداد ، فأفزعه هذا النبأ ، وأمر الجيش المصري ، ومعه القوات الاحتياطية من العرب ، أن يتوجهوا من مصر إلى الشام ، فوصلها بعضهم في التاسع من ربيع الأول (٢٣ سبتمبر)(٢) ، ومنعتهم رداءة الطقس من أن يتقدموا أكثر من مرحلتين بعد يافا ، ثم أمرهم بيبرس بالعودة إلى مصر ، فوصلوها في التاسع من شهر جمادي الآخرة (٢١ سبتمبر)(٣) .

ويحتمل أن وجود أبغا في بغداد ، كان بسبب الهزائم المتكررة على جنده في العراق ، مما حداه أن يأتي ليدرس الموقف بنفسه ، وقد أزعج هذا بيبرس إلى الحد الذي جعله يأمر كل رجل في مملكته ، يملك فرساً ، أن يلحق به ، وفرض على كل قرية في الشام أن تجهز فرساناً قدر طاقتها(٤) . وهذه هى المرة الأولى التي يتخذ فيها بيبرس مثل هذه التصرفات المشددة ، مما دل على شدة قلقه ، ولكنه سرعان ما أعاد الجيوش المصرية إلى مصر ، ولعل سبب ذلك أنه عرف غرض أبغا الحقيقي ، وأدرك أن الخطر ليس ملحاً ، وأكد له هذا أنه لم تبلغه أخبار عن أي نشاط حربي جديد عند التتار(٥) . فوجد ألا مبرر لتعريض جيوشه للطقس القاسي في الشام ، والمشاق التي سوف يتكبدونها بسبب بقائهم فيه(٦) ، ومع هذا فليس هناك ما يمنع التتار من الهجوم في هذا الطقس الرديء عندما يعرفون انسحاب الجيوش المصرية ، ولكنهم لو فعلوا فبيبرس واثق أن الجيوش الشامية كافية لأداء ما يتطلب منها .

وقد جاء فيما بعد أخبار عن تحركات للتتار على نطاق ضيق ، أعد لها ما يضمن التغلب عليها ، ومن جملة ذلك أنه أمر قبائل الشام أن تغير على

---

(١) الروض ١٦٨ .
(٢) ابن شداد ٢٩/٢ .
(٣) ابن شداد ٣٠/٢ .
(٤) الروض ١٦٩ .
(٥) الروض ١٦٩ .
(٦) وقد فرضت ضرائب ، وبدأ جمعها في ١٥ شعبان ٦٧٢هـ (٢٥ فبراير ١٢٧٤م) ولكنها ألغيت في ١٧ من ذي القعدة (٢٥ مايو) نظراً للشدة التي كان فيها الناس ، أو لعله لسخطهم من فرضها . ابن شداد ٣١/٢ — ٣٢ .

أراضي العراق ، فتوغلت إلى الأنبار ، وفيها حامية للتتار ، وحيث أنه لم يكن معروفاً حينئذ مقر بيبرس ، فقد ظن التتار أن هذه القبائل هم بيبرس وجيوشه ، فانسحبوا إلى الشاطيء الشرقي من الفرات ، فاصطدمت قبائل الشام مع عرب خفاجة الموالين للتتار في منتصف شعبان (أواخر فبراير ١٢٧٤ م)(١) ،ويبدو أن ذلك كان في مكان على الشاطيءالغربي للنهر .

ويعطي محي الدين (٢) هذه الموقعة أهمية كبرى ، مبديا أن أبغا ، وقد جاء يفتش على ممتلكاته في العراق ، قد أجبر على الإنسحاب ، ولم يشر المؤلف إلى المكان الذي كان يقيم فيه أبغا وقت وقوع هذه المعركة ولا إلى إلى الجهة التي انسحب إليها . وإذا كان ما ذكره محي الدين صحيحاً(٣) فلئنّ أبغا أخطأ تقدير القوة التي مع بيبرس . وقد يكون الواقع أن أبغا ربما ظن أن بيبرس كان يحاول أن يستدرجه إلى معركة لم يكن مستعداً لها ، ومجرد عدم دخولها يكشف ضعفه .

مفاوضات بين بيبرس والبرواناة :

أفادت المفاوضات التي أجراها بيبرس ، قبل سنتين ، مع البرواناه ، والنشاط الذي أبداه ، فقد سعى البرواناه لدى الأردو لاستدعاء أجاي ، الممثل الثاني لأبغا ، للعداوة التي بينهما ، وقد ندم البرواناه ، فيما بعد ، على ذلك ، وخاف من أجاي ، فسارع عام ٦٧٢/٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، واتصل ببيبرس ، وعرض أن يخضع له ، إن هو أعطاه الحماية(٤) ومع أن بيبرس قبل هذا العرض مشروطاً ، إلا أنه أوضح أنه لا يستطيع أن يقود حملة إلى بلاد الروم قبل السنة التالية .

الهجوم على سيس :

لا بد لبيبرس قبل أن يقود حملة إلى بلاد الروم أن يخضع الأراضي التي في الطريق إليها ، ولهذا نهب سيس في السنة التالية ، وكان دخوله إليها في أواخر رمضان عام ٦٧٣ هـ (مارس ١٢٧٥ م) وقد أوصلها إلى حالة

---

(١) الروض ١٧٢ . (٢) الروض ١٧٢ .

(٣) وإذا لم يكن انسحاب أبغا لهذا السبب فقد يكون لأنه أنهى المهمة التي جاء من أجلها ، ولم يجد أن الموقف يقتضي بقاءه .

(٤) ابن شداد ٣٤/٢ .

من الخراب لا تستطيع معه الحاق ضرر بجيوشه عند مرورها في السنة التالية(١) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام من هذه الحملة مباشرة استدعى أبغا ، وكان حينئذ في أذربيجان ، البرواناه ، وممثلي التتار في بلاد الروم ، فسافروا إليه في ذي الحجة ٦٧٣ هـ (مايو — يونيه ١٢٧٥ م)(٢) .

ولا بد أن أمر النزاع الذي بين أجاي والبرواناة ، ونشاط بيبرس في بلاد الروم ، قد بحث في هذه المقابلة . على أي حال لقد تسلم كل من البرواناه ، وممثل أبغا ، عند عودتهما إلى بلاد الروم ، أوامر من أبغا بمهاجمة البيرة .

حصـــار البيرة :

في الثامن من شهر جمادي الآخرة عام ٦٧٤ هـ (٢٩ نوفمبر ١٢٧٥ م) حاصر ثلاثون ألفاً من الجنود البيرة ، منهم خمسة عشر ألفاً من التتار(٣) ، ولم يدم الحصار طويلا ، فقد انسحب التتار يوم السبت ١٧ من جمادي الآخرة (٨ ديسمبر(٤) . ويمكن تفسير هذا في ضوء الحقائق التالية : لم يكن باستطاعة التتار أن يقرروا حصاراً طويلا للبيرة ، لأنهم بالتجربة عرفوا أن باستطاعة بيبرس أن يرسل لها النجدة المطلوبة ، ولهذا فالأمل في التغلب على حصن منيع مثل البيرة ، يستوجب سرعة وجيشاً كبيراً ، وهذا يستلزم مؤونة ضخمة لا تتناسب مع خفة تحركات التتار ، التي تمكنهم عادة من الإنسحاب لو عاجلهم الأمر ، لهذا كله ، ولعلمهم بقرب بيبرس ، لعلهم أدركوا أن الاستيلاء على البيرة بجيشهم الحالي يحتاج إلى وقت أطول مما كانوا قدروا(٤) ، وتموين أكثر مما باستطاعتهم توفيره(٥) . وفوق هذا كله ، فقد اكتشفوا خيانة البرواناة ، وكان على رأس الفرقة السلجوقية في جيش التتار ، وقد اتهم بأنه كان يراسل بيبرس ، وأنه قد وعده بالهجوم على فرقة التتار التي بالقرب منه ، بمجرد أن تبدو طلائع جيش بيبرس . وهذا وحده كاف لانسحاب التتار . .

---

(١) ابن شداد ٥٧/٢ .

(٢) ابن شداد ٧٠/٢ .

(٣) ابن شداد ٧٢/٢ .

(٤) ابن شداد ٧٤/٢ .

(٥) ابن شداد ٧٤/٢ .

(٦) النهــاية ٥٦/٢٩ .

وكان بيبرس قد بدأ زحفه نحوهم ، ولكنه لما علم بانسحاب التتار عاد إلى دمشق (١) .

المفاوضات بين بيبرس والبرواناة :

لم يعد البرواناه ، بعد الانسحاب من البيرة ، يأمن التتار ، بعد أن قوى شكهم في تآمره مع بيبرس ، وقد استدعاه أبغا إلى بلاطه ، ولا بد أن التأكد من موقفه معهم كان بعض أهداف هذا الاستدعاء(٢) . وقد أدرك البرواناه أن سلامته تتوقف على بلوغ المفاوضات بينه وبين بيبرس هدفها ؛ فمنه سوف يحصل على القوة التي سوف تساعده على طرد التتار من بلاط الروم ، وتبقى عنده حماية له ، وسوف يطلب منه أيضاً الإبقاء على السلطان السلجوقي غياث الدين ، وعلى نفسه ، كل في منصبه ، وسوف يدفعان له ، مقابل ذلك ، الجزية التي كانا يدفعانها للتتار ، ولعل إسراع البرواناه في أخذ يمين بعض القواد السلاجقة ، وإرساله إلى بيبرس كانوسيلة لإقناعه بقبول هذا الاقتراح(٣) . وقد أبدى بيبرس حذراً شديداً نحو هذا الأمر ، فرغم إغراء هذا العرض إلا أنه لم يقدم على مخاطرة قد تؤدي إلى نكبة تأتي على السمعة التي بناها بيبرس بحكمته وحسن تدبيره ، فاستراتيجياً وجد أنه من المستحيل أن يرسل إلى بلاد الروم جيشاً يكون الأرمينيون في مؤخرته ، ويكون هو تحت رحمتهم ، وسياسياً بعض قادة السلاجقة في بلاد الروم لم يشاركوا في قبول الاقتراح ، واقتصادياً ليس من صالح بيبرس أن يبقى جيشاً قائماً دون أن يتأكد من مؤونته ، وحتى الطقس في هذا الوقت من السنة لم يكن مشجعاً على إرسال جيش إلى مكان ناء كبلاد الروم ، وأخيراً لعل بيبرس لم تكن عنده الثقة الكافية بالبرواناه ونواياه ، وقد ثبت ظنه هذا فيما بعد . لهذا كله شكر بيبرس البرواناه على عرضه ، وأبان له أنه لا يستطيع أن يأتي إلى بلاد الروم قبل السنة التالية لشح المياه في الآبار التي علىالطريق(٤) .

ولما أدرك البرواناه أن بيبرس لن يأتي إلى بلاد الروم ، في ذلك العام ، اضطر إلى أن يجيب أبغا إلى دعوته المتكررة لزيارة بلاطه ، وسافر في اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة عام ٦٧٤ هـ (٢٧ مايو ١٢٧٦ م) .

---

(١) ابن شداد ٧٤/٢ .
(٢) ابن شداد ٩٥/٢ .
(٣) ابن شداد ٧٥/٢ .
(٤) ابن شداد ٧٥/٢ .

مراسلاته مع قواد السلاجقة :

عندما حانت الفرصة لبيبرس بدأ يراسل قواد السلاجقة ، فأثار معهم أمر بلادهم ، وصلتها بالتتار ، وكان ذلك في شهر محرم من عام ٦٧٥ هـ (يونيه – يوليه ١٢٧٦ م) (١) فكتب خطابات إلى قواد السلاجقة ليوطد مع كل واحد منهم علاقته ، وقد استجاب بعضهم لدعوته ، وتحمس ، وأقام في صفر ٦٧٥ هـ (حوالي أواخر يوليه ١٢٧٦ م) في وجه التتار المقيمين هناك ، قبل الوقت الذي أراده بيبرس ، فتسبب ذلك في انقسام قوة السلاجقة وإضعافها ، ودب الاختلاف بينهم ، ويبدو أن القواد الذين قاموا على التتار قاموا بذلك اجتهاداً منهم ، وليس بتحديد من بيبرس للوقت ، لأنهم عندما أعلموه بما تم ، وطالبوه بالمساعدة ، عاتبهم على توقيت ما قاموا به ، وذكرهم بما بينه وبين البرواناه من ترتيب ، وبصرهم باستحالة مجيئه إلى بلاد الروم ما دامت جيوشه في مصر ، وليس معه في الشام إلا قوة طفيفة(٢) .

ولا يعرف النص الكامل لخطاب بيبرس المرسل إلى قواد السلاجقة ، ولكنه يستبعد أن يكون قد غرر بهم ليقوموا بما قاموا به ، أما السبب في سرعة تصرفهم فيعود في الغالب إلى غياب البرواناة في بلاط أبغا ، وسماعهم عن قرب عودته ، وهو لم يكن كما يبدو على وفاق مع بعضهم ، ولهذا فلعلهم إذا نهضوا ونجحوا دون مساعدة من البرواناة ، فإنهم ينفردون بالفضل في ذلك عند بيبرس . هذا وعودة البرواناة تعني مجيء عدد جديد من كبار التتار تحتاج مقاومتها إلى قوات ضخمه .

وبيبرس ، رغم عطفه المتوقع على حركتهم ضد التتار ، لم يندفع لمساعدتهم ضد الصعوبات التي حلت بهم ، فعندما طلبوا منه إرسال جيش يساعدهم على الانسحاب من بلاد الروم لم يتمكن في هذه الفترة من إجابة طلبهم ، وإنما نصحهم بتحصين أنفسهم في قلاعهم إلى فصل الشتاء ، وهو الوقت الذي تتوفر فيه المياه في الآبار التي على الطريق(٣) إلا أنه في النهاية استجاب لرجائهم ، فأرسل في ٢٥ صفر عام ٦٧٥ هـ (٨ أغسطس ١٢٧٦م) جيشاً إلى بلاد الروم ، ليرافقهم هم والسلطان غياث الدين ، إلا أن هذه

---

(١) ابن شداد ٩٥/٢ ب و ٩٨ . (٢) ابن شداد ١٠١/٢ .

(٣) ابن شداد ١٠٠/٢ .

القوة عادت بعد أن وصلت إلى الحدث الحمراء ، عندما علم بيبرس بوصول البرواناة في ربيع الثاني (سبتمبر - أكتوبر)(١) ، ومعه أخو أبغا على رأس قوة من التتار قوامها ٣٠,٠٠٠ فارس(٢) ، لأنه أصبح من غير الممكن لبيبرس مع وجود هذه القوة ، أن يفيد القواد السلاجقة ، بل شعر بعدم الأمان على نفسه في حلب وليس معه إلا قوة صغيرة ، وحجمها قد يغري التتار بالهجوم عليه(٣) ، ولهذا غادر حلب إلى دمشق .

موقف البرواناة :

رغم العصيان الذي قام به القواد في بلاد الروم ، فالتتار لم يجدوا سبباً كافياً لمعاقبة البرواناة ، لأنه كان دائماً يجد الوسيلة لإقناعهم ببراءته ، وقد استطاع في هذه المرة أن يثبت براءته بفضل القرار الحكيم الذي اتخذه ابنه مهدب الدين بعدم انضمامه إلى المنشقين(٤) ، ومع ذلك فإنه نتيجة للاعترافات التي أدلى بها بعض القادة أثناء التعذيب فقد أمسى لدى التتار دليل أوضح لما كانوا يشكون فيه من قبل ، ورغم أنهم لم يتهموا البرواناة صراحة إلا أنهم لم يعودوا يثقون فيه أبدا(٥) .

حملة بيبرس إلي بلاد الروم :

إن الجيش التتري الذي وصل أخيراً الي بلاد الروم قد أفزع بيبرس ، فقد أدرك مدى ما قد يأتي منه من خطر على بلاده في الشام ، وقدر أن يشغل التتار فترة في التحقيقات التي سوف يقوم بها التتار ، والعقوبات التي سوف يوقعونها ، قبل أن يعتدوا على أراضي حلب إنتقاماً من بيبرس ، ولهذا استغل وقته في مصر . فجمع جيوشه ، وترك ابنه في مصر ومعه خمسة آلاف فارس فقط . وربما كان مخططه أن يفاجيء التتار بهجوم عليهم في بلاد الروم ما داموا متفرقين ، ولهذا غادر القاهرة في ٢٠ من محرم عام ٦٧٦ هـ (٢٥ فبراير ١٢٧٧ م)(٦) .

---

(١) ابن شداد ١٠٢/٢

(٢) ابن شداد ١٠١/٢ (٣) ابن شداد ١٠١/٢

(٤) أثنى بيبرس على تصرف مهذب الدين الحكيم في إدانته لتصرف القادة السلاجقة ، ابن شداد ١٠٠/٢ .

(٥) أوقع التتار - كما هو متوقع - عقوبات صارمة على الذين جانبوا مع بيبرس ابن شداد ١٠٢/٢ . (٦) ابن شداد ١٠٣/٢ .

ما اتخذه من احتياطات :

قبل أن يغادر بيبرس الشام فكر أن التتار ربما هاجموا بلاده عن طريق شمالي العراق ، فأرسل قوة ، لعلها من رجال البادية ، إلى الساجور ، لترابط على الفرات ، وتحرس المعابر ، لئلا يجتاز منها التتار . وفائدة هذه القوة ، بجانب الهدف الأساسي ، تأتي في صرف انتباه التتار عن حملة بيبرس الرئيسية . وقد سمع التتار بهذه القوة الصغيرة فأرسلوا إليها جماعة من عرب خفاجة فهزمتهم جماعة بيبرس(١) .

بدء الزحف :

غادر بيبرس حيلان ، الواقعة شمالي حلب ، في الثالث من ذي القعدة (الثامن من أبريل ١٢٧٧ م) ، وبدأ زحفه على بلاد الروم . وكان أول لقاء له مع جيوش التتار في التاسع من ذي القعدة (الرابع عشر من أبريل) عندما أرسل سنقر الأشقر أمامه ، على رأس قوة ، فصادفت جيشاً من التتار عدده ثلاثة آلاف فارس ، فهزمهم سنقر(٢) ، وبهذا علم التتار بزحف بيبرس ، فجمعوا قواتهم في بلاد الروم ، واختاروا مكان المعركة ، وأخبر به بيبرس ، فلما خرج من ممرات الجبال إلى صحراء الأبلستين وجد أنهم قد رتبوا عسكرهم أحد عشر طلباً ، في كل طلب ألف فارس(٣) ، وعزلوا عسكر السلاجقة خوفاً أن يكون لهم مباطنة مع بيبرس ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً .

معركة الأبلستين :

أعد بيبرس جيشه للمعركة ، فلما بدأ القتال حملت ميسرة التتار على حملة الرايات في جيش بيبرس ، وشقت صفوفهم طائفة من التتار ، وساقت الى الميمنة من جيش بيبرس ، فلما رأى بيبرس ذلك أنجدهم بنفسه ، ثم رأى ميمنة التتار وقد حملت على ميسرة جيشه حتى كادت أن تتفكك ، فأنجدها ببعض الكماه من جنده ، ثم حمل هو وجيشه حملة واحدة على التتار ، فاختاروا أن ينزلوا عن خيلهم ، ويقاتلوا راجلين ، ولكن ذلك لم يحسن من موقفهم ، وكانت المعركة ضارية ، ورغم أن التتار استسلوا فيها وصبروا

---

(١) ابن شداد ١٠٩/٢ .

(٢) ابن شداد ١٠٩/٢ .

(٣) ابن شداد ١٠٩/٢ ، الروض ١٨٦

إلا أن بيبرس كسب المعركة في النهاية (١) ، وخسر التتار كثيراً ، وكان من بين القتلى والمأسورين بعض من قواد الألف في جيشهم(٢) .

الزحف على قيصرية :

عاد البرواناة بعد الهزيمة مسرعاً إلى قيصرية ، وحذر السلطان السلجوقي غياث الدين ، المقيم هناك ، من التتار المنهزمين ، لأنه توقع أن ينتقموا من المسلمين في بلاد الروم لهزيمتهم في أبلستين ، فهرب البرواناة والسلطان السلجوقي إلى طوقات ، وهي تبعد أربعة أيام عن قيصرية(٣) .

تقدم بيبرس في الحادي عشر من ذي القعدة (أبريل ١٢٧٧ م) إلى قيصرية ، فوصلها في السابع عشر من نفس الشهر (٢٢ أبريل م) ، وهناك جلس على تخت السلاجقة ، وأعطى من التشريف والاحتفال ما كان يعطي لصاحب التخت ، وخطب باسمه يوم الجمعة ، وضربت العملة باسمه ، وأحضرت له خزائن بيت المال(٤) .

بيبرس والبراوناة :

يقال أنالبرواناة أرسل يهنيء بيبرس على نجاحه في الجلوس على تخت السلاجقة(٥) ، وأن بيبرس لما طلب منه الحضور بنفسه طلب مهلة أسبوعين ، وكان غرض بيبرس من طلب مجيئه أن يعينه من قبله على بلاد الروم نائباً للسلطان السلجوقي . ويقال أن طلب البرواناة التأجيل كان حيلة منه لأنه قد أرسل لأبغا يحثه على المجيء قبل مغادرة بيبرس لبلاد الروم ، وقد نبه بيبرس إلى هذا ، فارتحل مسرعاً(٦) .

وقد لا يكون من السهل تفسير موقف البرواناة ، فهو سبق أن أظهر أنه يعد العدة لمساعدة بيبرس ضد التتار ، فلما سنحت الفرصة للتخلص منهم لم يهتبلها ، إلا أن المرء لا يعدو الحقيقة إذا اعتقد أن ما يهم البرواناة هو مصلحة السلاجقة لا مصلحة بيبرس ، لأن البرواناة في سلطتهم كان

---

(١) ابن شداد ١١٠/٢ ، راجع أيضاً الروض ورقة ١٨٦ ب .

(٢) الروض ورقة ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) ابن شداد ١١١/٢ ، والروض روقة ١٨٨ .

(٤) ابن شداد ١١٢/٢ ، والروض ورقة ١٩٠ — ١٩١ .

(٥) الروض ١٩١ .

(٦) ابن شداد ١١٣/٢ ، والروض ١٩١ .

يعتبر الحاكم الثاني بعد السلطان ، وكان يشعر أن موقفه مع التتار مزعزع ، وأنهم يثقلون عليه بطلباتهم ، فمال إلى بيبرس ، لأنه أقل خطراً من التتار عليه ، وأمّل أن يساعده بيبرس في إخراج التتار من بلاد الروم ، ليحكمها كما يشاء ، إلا أنه لم يكن مقتنعاً دائماً بصواب فكرة الالتجاء إلى بيبرس ، وشاب موقفه حيالها بعض التردد ، لخوفه من دخول سلطة بيبرس إلى بلاد الروم . ويبدو أن أوقات التقرب من بيبرس التي أقدم عليها البرواناة كانت توحيها الصعوبات التي كان التتار يقيمونها في وجهه ، مثل ما حدث عندما أمّل في إخراج أجاي من بلاد الروم ، لأنه شعر ألا سلطة له مع وجوده . وقد فتر تحمسه لمحالفة بيبرس بعد أن استدعى أبغا أجاي إلى بلاطه . وقد أكدت هذا الشروط التي قدمها بيبرس للبرواناة مقابل مده بجيش يرابط عنده في بلاد الروم ، وهو أمر لم يكن يتوقعه البرواناة ، وقد أصرّ بيبرس على أن يدفع البرواناة نفقات إقامة هذا الجيش ، بتعهده بتمويله بإقطاعات يقطعها إياه . وقد جدت عوامل بعد حملة بيبرس الأخيرة على بلاد الروم منها أن البرواناة أدرك مدى قوة بيبرس الحقيقية ، وما يمكن أن يعرفه قواده ، من اختلاطهم بالقواد السلجوقيين ، عن بلاد الروم ، مما سوف يجعل بيبرس أخطر من التتار . ولو قرر البرواناة ، وحارب التتار ، وخضع لبيبرس ، فليس هناك ما يضمن له أن تجرى الأمور كما يريد ، فبيبرس قد يستبدله بآخر ، وقد استدل البراناة أيضاً من خفة السلاح الذي يحمله بيبرس وجنده بأنه لن يبقى طويلا في بلاد الروم ، وسيترك البرواناة وحده يتلقى نقمة التتار ، ولهذا كله فضل أن يبقى مواليا لهم ، وأكد ولاءه هذا لأبغا بنصيحته له بأن يقدم سريعاً(١) .

إنسحاب بيبرس من بلاد الروم :

الأسباب التي منعت بيبرس من البقاء في بلاد الروم متعددة ، فجيشه كبير ويحتاج إلى مؤونة كبيرة لا يتمكن بيبرس من حملها معه من بلاده(٢) ، فلو لم ينسحب لشح تموين جيشه ، وأخبار هزيمة التتار لا بد أنها قد وصلت

---

(١) ابن شداد ١١٦/٢ .

(٢) الروض ١٩١ ، وابن شداد ١١٣/٢ .

إلى أبغا ، مما قد يحمله أن يأتي ومعه نجدة ، فيواجه بيبرس صعوبات جديدة ، سوف تقلل من قيمة النصر الذي أحرزه في صحراء الأبلستين ، وقد يهاجم التتار بلاده عن طريق العراق ما داموا قد علموا بوجوده في بلاد الروم ، وهناك سبب لا يقل أهمية عما سبق وهو أن ابنه الملك السعيد في مصر ، وليس معه أكثر من خمسة آلاف جندي ، مع وجود عدد من القادة الطموحين حوله ، وبعد بيبرس لمدة طويلة قد يغريهم بإثارة فتنة ضده .

لهذا كله لم يرد بيبرس أن يشغل نفسه بعمل سوف يؤخره في بلاد الروم ، فأرسل يشعر البرواناة بعزمه على مغادرة البلاد ، معاتباً له ، ولبعض القواد السلاجقة ، على عدم وفائهم بعهودهم السابقة ، ومؤكداً لهم أنه لا يقصد الاحتفاظ بملكهم له ، وأن ما فعله ما هو إلا ليريهم أنه ليس هناك شيء يصعب عليه(١) .

وفي الثاني والعشرين من ذي القعدة من عام ٦٦٥ هـ (٢٧ أبريل ١٢٧٧م) غادر بيبرس بلاد الروم إلى بلاده ، ووصل حارم في السابع من ذي الحجة (١٢ مايو)(٢) .

وقد تبين فيما بعد أن بيبرس كان على حق عندما قرر الانسحاب بسرعة ، لأن أبغا وصل إلى بلاد الروم بعد انسحاب بيبرس ، وقرر أن يرسل خلف بيبرس جيشاً لعله يدركه قبل أن يصل إلى بلاده ، إلا أنه تبين له أنه قد عبر الحدود فأمر جيشه بالعودة(٣) . والجيش الذي أرسله أبغا كان خفيفاً مما يتوقع معه أن يصيب نجاحاً على بيبرس لو أدركه في الطريق ، إلا أن النجاح ميؤوس منه إذا كان بيبرس قد وصل إلى دياره ، واستقر في معسكره ، حيث المعدات الثقيلة ، والمؤن الوافرة ، والجند الذين لم يرهقهم السفر المتواصل . أما جيش أبغا المطارد فسوف يكون مجهداً بعد السفر الطويل ، وفاقداً لبعض خيله التي لا بد أن تموت بعد هذا الاجهاد من السفر المتواصل(٤) . وقد بلغ بيبرس خبر هذه القوة التي أرسلها أبغا ، فاستعد لها ، إلا أنه اطمأن لما علم أنها قد استعيدت(٥) .

---

(١) ابن شداد ١١٤/٢ ، والروض ١٩١ .

(٢) ابن شداد ١١٤/٢ . (٣) (٤) (٥) ابن شداد ١١٧/٢ .

وانتشر جنود أبغا في بلاد الروم ، وقتلوا خلقاً كثيراً انتقاماً ، واعتبر أبغا أن البرواناة قد غرر به عندما لم يخبره بحقيقة حجم جيش بيبرس ، ولم يقبل عذره في أنه نفسه لم يكن يعرف ذلك . ولم ينج البرواناة هذه المرة من سخط أبغا ، فلاقى حتفه بعد أن عاد مع أبغا إلى بلاطه(١) .

ومات بيبرس في سوريا بعد عودته من هذه الحملة بقليل ، فكانت هذه آخر حملة عسكرية كبرى قام بها .

(١) ابن شداد ١١٧/٢ .

(جـ) علاقة بيبرس بالأفرنج

كان بيبرس أيام أن كان في خدمة الصالح أيوب يشعر بعداوة تجاه الأفرنج ، لأنهم تحالفوا أكثر من مرة مع بعض الأمراء الأيوبيين ضد سيده الصالح الأيوبي ، فلم ينس بيبرس ذلك ، حتى أنه في وقت لاحق أنبهم على عملهم هذا(1) . وزاد من عدائه لهم الحملة التي كان قام بها القديس لويس ، والتي ساهم بيبرس في عدم نجاحها . وهذه الحملة جعلت بيبرس يدرك طموح الأفرنج ، وما يبيتونه للاستيلاء على جميع المراكز الإسلامية ،

وكانوا وحدهم ، ودون أن يتحالفوا مع التتار ، خطراً يؤمل بيبرس أن يقضي عليه . وقد أصبح الآن رئيساً للدولة ، ومسؤولا عن سلامتها ، مما يحتم عليه تحقيق استئصالهم ، خاصة وأن خطرهم في زمنه قد اشتد مع بروز خطر التتار ، وتتابع تهديدهم لبلاده . والفكرة المسيطرة على ذهنه ، منذ أن تسلم مقاليد الأمور ، هي أن الأفرنج دخلاء على بلاد الشام ، وأن لا سلامة للدولة الإسلامية مع وجودهم . فوضع مخططاً ، ونفذه بحزم وقوة ، مما جعل عهده يصبح نقطة تحول في الحروب الصليبية . وبيبرس قد يلين أحياناً مع الأفرنج ، إلا أن هذا كان فقط عندما يجد أن هذا اللين يهيء لهزيمتهم النهائية . ومن مظاهر هذا اللين المعاهدات التي وقعها مع أعدائه لأنه وجد أن هذا يخدم أغراضه . ورغم هذه المعاهدات فقد كان مطمئناً إلى أن الموقف المتوتر في الشام سوف يسمح له بإنهاء هذه المعاهدات إذا أراد ، لأن هذا التوتر كثيراً ما ينتهي باصطدام يتخذه سبباً لإنهاء هذه المعاهدات .

والمنطق الذي اعتمده هو أن الافرنج غير مرغوب فيهم في الشام ، لأنهم ليسوا أصحاب حق فيه ، وأن أي خطوة تتخذ لإخراجهم فهي عادلة في نظره . ومعرفة هذا المنطق سوف تساعد على تفسير بعض مظاهر القسوة ، ومخالفة بعض المعايير الأخلاقية التي يصفه بها منتقدوه ، هذا مع العلم أن أعماله لا تزيد عن بعض الأعمال القاسية التي ارتكبها متقدموا الصليبيين ، وهم من عرف عنهم القسوة ، وسفك الدماء ، دون مبرر . وما يقال عن

---

(1) الروض ٥٦ .

متابعة بيبرس للتاريخ قد يكون له أثر على أعماله هذه ، وأن هدفه أن يذيقهم ما سبق أن أذاقوه المسلمين(١) .

وعلى أي حال نجد أن الأسئلة التي اتهم على أساسها بعدم العدل ، قد حققت ، على الأقل ، الغرض الأساسي منها ، وليس هناك ما يدل على أن بيبرس كان يقسو لمجرد القسوة ، أو التمتع بها ، والدلائل تشير الى أن ما كان يقدم عليه هو جزء من سياسة محكمة ترمي إلى القضاء على الافرنج في الشام . وحتى أعمال القسوة المذكورة لا تبدو كذلك إلا عندما يقارن تمسك بيبرس بحقه وأخذه إياه ، بتسامح صلاح الدين في حقه وتركه إياه . والحكم على بيبرس في ضوء الظروف التي كانت تحيط به ترسم له في الذهن صورة أكثر انصافاً من تلك التي اعتاد بعض المؤرخين أن يرسمها له .

التحركات العسكرية الأولى والمعاهدات :

كان بيبرس قد اتصل وهو في مصر ببعض قادة الافرنج في الشام(٢) ، إلا أن أول اتصال مباشر لبيبرس مع الافرنج كان بعد توليه الملك ، وذلك عندما سافر مع الخليفة إلى الشام في شوال ٦٥٩هـ (أغسطس — سبتمبر ١٢٦١م) ، وكان يعطي فيما بعد هذه العلاقة حقها من الرعاية الخاطفة ، رغم أن الأمور الداخلية لمملكته كانت تستحوذ على غالب وقته . وفي هذه الرحلة(٣) عقد هدنة مع كونت يافا .

غارات ومعاهدات :

بادر بيبرس بشن غارات على بعض أراضي الافرنج(٤) موهماً أنه يمهد لهجوم كاسح ، فأخاف هذا الافرنج ، وسارعوا إلى المفاوضات معه ، ورجوا سحب المغيرين من جنده على منطقة بعلبك(٥) فشعر بضعف موقفهم أمامه ، فاشترط شروطاً لعلها كانت قاسية ، لأن الافرنج لم يقبلوها ، ربما لأن قبولهم لها فيه إذلال لهم .

---

(١) يذكر أن بيبرس كان يقول « سماع التاريخ أعظم من التجارب » النجوم ١٨٢/٧

(٢) قبل أن يغادر بيبرس مصر أرسل هو وبعض الأمراء بعض الشعير والدقيق بطريق البحر من دمياط إلى يافا . الروض ٢١ .

(٣) الروض ٢١ أ .

(٤) الروض ٢٢ ب .   (٥) الروض ٢١ ب .

لقد كان لنشاط بيبرس الحربي أثره ، في إثارة القلق في المنطقة ، فانقطع تدفق المؤن من الأراضي الافرنجية مما سبب ارتفاع الأسعار ، في بلاده ، فاضطر أن يتنازل عن طلباته ، وعقدت هدنة كانت شروطها تشبه شروط الاتفاقية التي كانت قائمة في أواخر حكم الملك الناصر(١) ، ولم يزد عليها إلا شرطاً واحداً هو إطلاق سراح الأسرى من كلا الطرفين . وقد عقدت هدنة مماثلة مع حاكم بيروت .

ولعل هذا لم يكن السبب الوحيد لتراجع بيبرس عن موقفه معهم ، وإنما كانت أيضاً رغبته في العودة إلى مصر سبباً آخر ، لأن هناك بعض الأمور المهمة التي تحتاج إلى الرعاية ، أحدها خلافه مع الملك المغيث ، حاكم الكرك ، وهو الأمير الأيوبي الوحيد الذي لم يخضع بعد لحكم بيبرس(٢) ، ولم يجد بيبرس أنه من الحكمة أن يدخل في عمليات حربية كبرى ضد الافرنج في الشام مع وجود عدو مثل المغيث في مؤخرة جيشه ، لهذا فضل الاتفاق معهم لفائدته في الوقت الراهن ، وعندما يجد أن إنهاء الاتفاق يخدم غرضه فإن تصرفاتهم في المستقبل سوف تعطيه الفرصة لإنهائهـــا (٣) .

الهجوم على أراضي بوهمند :

يبدو أن المفاوضات التي أجراها بيبرس أثناء عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م) في الشام لم تشمل صاحب طرابلس ، لأن بيبرس قد قرر معاملته معاملة تختلف عن معاملته لغيره ، وما اتفاقياته مع الآخرين إلا جزء من خطته تجاه بوهمند . وقد أصدر بيبرس منذ منتصف عام ٦٦٠هـ (١٢٦٢م) أوامره بشن الغارات على أراضي أنطاكية ، فسببت أضراراً فادحة لمينائها السويداء(٤) .

خطته لعام ٦٦١ هـ (١٢٦٢ - ١٢٦٣ م) :

كان بيبرس منشغلا في بلاده منذ أن أبرم المعاهدات مع الافرنج عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م) ، فلم يتمكن من القيام بأعمال حربية في الشام ، رغم أن المنطقة لم تخل من شكايات في هذا العام ، جاءت من جانب وبررت أسبابها من الجانب الآخر . إلا أن هذه الشكايات لا يبدو أنها ملحة

---

(١) أبرمت هذه المعاهدة في محرم ٦٥٢ (فبراير - مارس ١٢٥٤م) وأقرت للافرنج بحق حكم الأراضي الواقعة غرب شاطيء نهر الأردن ؛ السلوك ٣٩٣/١ .

(٢) راجع ما سبق ص ٣٦ .

(٣) راجع ما سيأتي ص ٨١ .

(٤) الروض ٢٧ ب .

أو تستوجب منه اتخاذ خطوات عاجلة ، ولكنها كانت مفيدة للتمسك بها في المستقبل في مهاجمة من سبق أن أبرم معهم اتفاقيه .

الإغارة على عكا :

غادر بيبرس مصر في ربيع الأول عام ٦٦١هـ (يناير — فبراير ١٢٦٣م) على رأس جيش كبير كان بإمكانه أن يغير به على الافرنج إذا لم يوجهه ضد الملك المغيث صاحب الكرك . وقد وجد أنه يستطيع أن يستغنى عن استعمال القوة معه ، فأصبح بإمكانه أن يتفرغ لقتال الافرنج فيما بعد . ولم يكن من الصعب عليه أن يجد المبرر للهجوم عليهم(١) ، فلقد تعهدوا ، حسب الاتفاقية السابقة ، ألا يبنوا حصوناً ، وألا يجددوا قديماً من الحصون ، وقد اتهمهم بأنهم خالفوا ذلك في الحالتين . ولما حاول الافرنج أن يقدموا تفسيراً لما أقدموا عليه لم يقبل ما أبدوه ، وأضاف إلى اتهامه السابق لهم اتهاماً آخر ، وهو أنهم منعوا جلب الميره من بلادهم إلى الشام ، وامتنعوا عن الحلف على نسخة المعاهدة التي حررها هو والتي حرروها هم ، وذكرهم أيضاً بمخالفتهم ما اتفق عليه من أمر الأسرى حسب نصوص المعاهدة ، في حين أنه من جانبه جمع الأسرى الذين في بلاده ، وكتب إليهم في ذلك ، ولكنهم لم يفوا بما عليهم ، وصار كل فريق منهم يحيل إلى الآخر ويسوف ، ولم يتوصل إلى نتيجة في آخر الأمر .

وقد أضاف بيبرس إلى ما اتهمهم به مسؤوليتهم عما أصاب بعض تجار المسلمين الذين ألقي القبض عليهم في أراضي الافرنج من بلاء ، وما أصاب رسله إلى الامبراطور ميخائيل من القاء القبض عليهم من قبل سلطات قبرص ، وكان الافرنج نصحوه بأن يسلكوا طريقها ، وذكر الافرنج بما تم الاتفاق عليه بينهم وبين الصالح اسماعيل من أنه يسلم لهم صفد والشقيف مقابل مساعدتهم له على الصالح أيوب مولى بيبرس ، وحيث أن تلك المملكة قد تلاشت وبيبرس نفسه ليس في حاجة إلى مساعدتهم ، فإن عليهم الآن أن يعيدوا كل هذه الممتلكات .

وقد فوجئ الافرنج بالطلب الأخير الخاص بصفد والشقيف ، إلا أنهم حاولوا أن يكسبوا رضى بيبرس ، فأكدوا له حرصهم على إبقاء الهدنة ،

---

(١) من المناسب الاطلاع على بعض الأسباب الطريفة التي التمسها قلاوون فيما بعد عندما حكم ، واتخذها وسيلة لخرق الهدنة عندما أراد أن يحاصر عكا . راجع شافع ١٢٠

وأزالوا أسباب شكوى حكامه في الشام ، وأطلقوا الأسرى ، إلا أن بيبرس كان قد رسم في ذهنه خطة معينة ضدهم ، عزم على تنفيذها على خطوات ، ولهذا رد عليهم بأنهم هم الذين طلبوا انهاء المعاهدة قبل خروجه من مصر إلى الشام ، والآن لم يعد مستعداً أن يقبل عذرهم ، بعد أن أجهد نفسه ، وحرك جيوشه إلى الشام في هذا الشتاء القارس ، وأنفق هذه النفقات الباهظـــة(١) .

من الواضح أن بيبرس ، بعد أن تكبد هذه النفقات الباهظة في اعداد هذا الجيش الجرار وتحريكه ، لن يسمح للفرصة أن تمر دون أن يوجه ضربة قوية إلى عدوه ، يكسب من ورائها ، وكانت عكا كما يبدو هدفه الأول . وكان يعرف حق المعرفة أن عكا قوية ، وأنه لن يتمكن من أخذها بسهولة(٢) ، ولكن الهجوم المتكرر عليها ، عند كل فرصة مواتية ، وتخريب البلاد حولها ، سوف يساهم في إضعافها تدريجياً ، ويمهد لاحتلالها . وكان أول عمل قام به لتحقيق هذا الهدف هو هدم كنيسة الناصره ، مؤملا أن يخرج الافرنج من عكا للدفاع عنها ، فيكر عليهم(٣) . ولكن الافرنج وجدوا أن من الحكمة ألا يخرجوا منها . وقد أردف عمله هذا بغارة على عكا نفسها ، قام بها هو ونخبة من رجاله في الرابع من جمادى الآخرة عام ٦٦١هـ (١٥ أبريل ١٢٦٣م) . ويقال إنهم توغلوا إلى أن وصلوا إلى أبوابها ، وشعثوا المنطقة المحيطة بها(٤) .

ويبدو أن بيبرس اكتفى بما قام به تجاه عكا ، وانصرف بتفكيره إلى الكرك ، لأهمية أمره في هذه المرحلة من حكم بيبرس ، لأنه قد يسبب له متاعب لو صمم على أخذه ، رغم أن صاحبه قد قبض عليه(٥) .

---

(١) الروض ٥٥ ــ ٥٦

(٢) كان قد درس تحصين عكا قبل سنتين تقريباً عندما مرّ بها مع قطز في طريقهما. لصد التتـــار . الروض ١٢ أ .

(٣) الروض ٥٧ .

(٤) الروض ٥٨ .

(٥) الروض ٥٨ .

الحالة في الشام بقية هذا العام :

عاد بيبرس في السابع عشر من رجب ٦٦١هـ (٢٧ مايو ١٢٦٣م) من هذه الحملة إلى القاهرة ، وبقي في مصر بقية هذا العام ، والذي يليه ، وصرف وقته في معالجة الأمور الداخلية لمملكته ، إلا أنه لم يهمل الاستعداد للحملات الحربية المقبلة ضد أعدائه ، فاهتم بصنع الأسلحة على نطاق واسع ، واعدادها ، ومتابعة الجند لتدريبات وافية(١) .

وفي الشام استمرت الغارات على انطاكية ، وأراضي عكا(٢) . وقام عماله أيضاً بأعمال حربية على أراضي هيثوم ، حاكم أرمينيا(٣) . أما المناطق الأخرى مثل قيصرية ، وما جاورها ، فيبدو أنها كانت هادئة .

هدنة قصـــيرة :

اقترح الافرنج في صفر ٦٦٢هـ (ديسمبر ١٢٦٣م) أن تعقد هدنة بينهم وبين بيبرس يتمكن منها أصحاب الحقول من زراعة حقولهم في أمان ، وقد أبرمت هذه الهدنة معهم على أن تدوم إلى وقت الحصاد .

وقد عدد محي الدين بن عبد الظاهر – بلهجة لا تخلو من الاعتذار – الأسباب التي جعلت بيبرس يوافق على طلب الافرنج عقد هذه الهدنة(٤) . وكان من بين هذه الأسباب : « عند استوائها تحصد سيوف الإسلام رؤوسهم قبل حصادها »(٥) وهذا يمكن أن يستدل منه على أن بيبرس يؤمل ألا تطول الهدنة إلى الأمد المضروب ، وأن تنقضي قبل نهايتها عندما يتهيأ له الظرف المناسب ، أو أن يجد العذر عندما يحين وقت الحصاد ، فيجني الثمرة . ولكن قد تكون الحقيقة هي أن عدم إعطاء الفلاحين في الأراضي الفرنجية الفرصة لزراعة محاصيلهم يعني انعدام الأقوات في الشام أو ارتفاع أسعارها ، وضرر هذا واضح علي ممتلكات بيبرس المجاورة ، والتي لا تستغني عن التبادل التجاري مع أراضي الفرنج المجاورة .

على أي حال عندما ألقى الافرنج القبض على بعض المسلمين في تلك المناطق ، وأخذوا بعض المواشي ، احتج ممثل بيبرس في الشام بأن هذا العمل حدث في أثناء سريان الهدنة . وبهذا برر احتجازه لمندوب الافرنج

---

(١) الروض ٥١ . (٢) الروض ٤٩ . (٣) الروض ٤٧ ، ٤٩

(٤) راجع أيضاً الروض ١٧٨ حيث ساق محي الدين في بيت من الشعر أسباب الهدنة مع أرمينيا . (٥) الروض ٤٣ .

عندما وصل من قيصرية . ويقال ان المقبوض عليهم من المسلمين اطلقوا على أثر ذلك(١) .

الغارات على عثليث وقيصرية :

اهتم بيبرس بترتيب مراقبة نشاط الافرنج ، ورصد تجمعاتهم وحركاتهم للتأكد مما إذا كان يقصد بها الهجوم على بلاده ، ولهذا عندما أخبره ممثله في شهر رمضان من هذه السنة (يونيه — يوليه) — ولعل ذلك بعد أن انتهت الاتفاقية المؤقتة — بأن الافرنج قد تجمعوا سراً في يافا ، وينوون الإغارة على الأراضي المجاورة(٢) تبين أن بيبرس على علم بذلك ، فأمر بالهجوم على كل من عثليث وقيصرية ، فاضطر الافرنج في يافا على أثر هذا الهجوم أن يتفرقوا ، ورجع كل منهم ليحمي ملكه(٣) .

---

(١) الروض ٥١ وما يليها .

(٢) شافع ٥٣ . (٣) الروض ٥١ .

الحملة الكبرى الأولى

كان أول هجوم حربي رئيسي قام به بيبرس في عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) ضد معاقل الافرنج في الشام ، فقد قضى معظم وقته في السنوات الأولى من حكمه ، في تنظيم أمور مملكته ، وكانت الأمور الحربية التي قام بها حتى الآن إما دفاعاً أو غارات صغيرة متقطعة .

لقد كان بيبرس ، في أول أمره ، في حاجة إلى وقت كاف ليكمل بناء جيشه ، ويحسن تدريبه ، حتى يستطيع أن يبدأ خطته الجبارة في إيقاف مد التتار وصدهم ، وإخراج الافرنج من الشام ، وما سبق أن أمر به جنده من اكمال مهارتهم الحربية(١) ما هو إلا جزء من الاستعداد للعمل الضخم الذي ينوي أن يقوم به .

ولا يعرف بالتأكيد ما إذا كان هذا هو التاريخ الذي كان بيبرس قد حدده للهجوم على الافرنج ، أو أنه في الأساس كان ينوي أن يقوم بذلك في وقت متأخر ، ولكن قدم في هذا التاريخ بسبب مهاجمة التتار للبيره ، وما سمعه من أخبار تحالف أعدائه التتار والافرنج . وبيبرس لايمكن أن يتهاون أمام هجوم يقوم به الافرنج وحدهم ، فما بالك بهجوم يتعاون فيه الافرنج مع التتار ، ويبدو أنه قد أعطى أهمية كبرى لما قام به الافرنج من مساعدة التتار فيما أشاروا به عليهم عن أنسب الأوقات للهجوم عليه(٢) ، ويدل على هذا أنه بينما كانت جيوشه تنجد البيره لتفك عنها الحصار بقي هو متمركزاً في الشام ، ومستعداً لمقابلة أي خطر قد يسببه الافرنج ، وأول ما سمع بانتصار جنده على التتار صب جام غضبه على الافرنج في الشام . وكان معه في الشام ، في هذه المره ، جيش اضطر أن يجمعه في وقت غير مناسب من السنة نتيجة ما كان يتوقعه من هجوم يقوم به الافرنج ، إلا أن هذا الهجوم لم يحدث . ولكن بيبرس لم يكن بالرجل الذي يمكن أن يعود دون أن يستعمل القوة التي كانت تحت امرته ، فاستفاد منها استفادة كاملة بأن أخضع بها على الأقل مكانين مهمين للأفرنج . وأغار على أمكنة أخرى ، وبهذا بدأ سلسلة من الفتوحات .

---

(١) الروض ٥١ .

(٢) الروض ٦٣ ، وشافع ٦٣ .

لاستيلاء على قيصرية ،

رغم أن محي الدين عمم في العبارات التي فسر بها الدوافع التي تكمن خلف قرار بيبرس في مهاجمة الافرنج إلا أن ما ذكره يوحي بأن عمل بيبرس كان انتقاماً منهم(١) ، وكان أقرب جرم ارتكبه الافرنج في حقه أن دلوا التتار على عجز بيبرس عن القتال أثناء فصل الربيع ، وهذه إحدى الدلائل فيما ذكره محي الدين ، وهناك دليل آخر قد يكون هو المقصود ، وهو ما قام به جماعة من الافرنج في عام ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) في قيصرية ، خلال الهدنة ، عندما مسكوا رجلا وبعض الماشية ، وهذا بالنسبة لبيبرس مهم ، ويكفيه سبباً لإدانتهم ، وقد أرسل من أجل ذلك رسولا إلى ملك قبرص عن طريق قسطلان يافا(٢) .

وهناك سبب استراتيجي ومهم لاختيار بيبرس قيصريه هدفاً لهجومه ، فهو إذا فاجأ قيصرية وفتحها سوف يحرم الافرنج من أحد معاقلهم المهمة في شرق البحر الأبيض المتوسط . ثم أن فتحها سوف يسهل أخذ أرسوف لأن الافرنج سوف لا يكون باستطاعتهم أن يستعملوا قيصرية مركزاً لهم .

ويرجع جزء من نجاح بيبرس إلى تفوقه على أعدائه في العدد والعدة ، وجزء أكبر يرجع إلى اتقانه للتخطيط لحملاته ، خاصة السرية التي يحيط بها تحركاته ، فقد كان حريصاً على اخفاء قصده ، وقد ضمن له ذلك نجاحاً كاملا ، كما ضمنه له في هذه الرحلة ، فهو عندما نوى أن يهاجم قيصرية لم يخبر أحداً بما نواه ، وأظهر أنه ينوي أن يتصيد فقط في غابة أرسوف ، ليقطع منها دابر الوحوش الكاسرة ، فاستطاع تحت ستار هذا التظاهر أن يقترب من هدفه الحقيقي دون أن يشتبه أحد في هدفه الحقيقي ، وتمكن من أن يعاين قيصرية وأرسوف ويستكشفهما عن قرب ، وأن يرتب محاصرتهما عن خبرة واطلاع . وفي منتصف ليلة الأربعاء الثامن من جمادى الأولى عام ٦٦٣هـ (٢٧ فبراير ١٢٦٥م) أصدر أوامره لجنده بأن يحملوا أسلحتهم ، وقبل الفجر في اليوم التاسع نقل معسكره من جوار عيون الأشاور ، وحاصر قيصرية ، ويقال أن حاميتها فوجئت بذلك(٣) . وليضمن

(١) الروض ٦٧ .

(٢) الروض ٧٥ .

(٣) الروض ٦٨ .

عدم قيام الافرنج في عكا بعمل انتحاري لنجدة قيصرية ، وليشغلهم بأنفسهم أرسل قوة من الأعراب والتركمان للغارة على أراضي عكا ، فوصلوا بغاراتهم إلى أبوابها .

وفي اليوم الأول من الحصار حمل بيبرس على قيصرية حملة عامة ، فهرب سكانها إلى قلعتها ، وكانت قلعة حصينة لتدعيم بنيانها بعمد الصوان مما يجعل محاولة تعليقها صعبة . وزاد في تحصينها أن البحر يحيط بها ، ويملأ خنادقها ، ومع هذا فقد بدئ في نقب أسوارها ، وأخذت آلات الحصار تعمل عليها ، وازداد الزحف عليها من البر والبحر ، وكان بيبرس بين المهاجمين ، وفي النهاية تسلق المسلمون أسوارها ، وأحرقوا أبوابها ، واستولوا على القلعه ليلة الأربعاء من الشهر (٥ مارس) .

ويذكر محي الدين أن حاميتها هربت في آخر لحظة(١) ، إلا أن النويري يذكر أنهم قابلوا السلطان ، وسلموا له القلعة بمحتوياتها(٢) ، ويبدو أن ما ذكره النويري بعيد الاحتمال بدليل ما اتخذه بيبرس تجاه القلعة . وعلى كل حال فمصير الحاميات عند احتلال بيبرس لقلعة من القلاع كان في الغالب موضع جدل من المؤرخين المتأخرين(٣) ، لتشابه سقوط القلاع ، وتشابه المراحل النهائية لحصار قلاع الافرنج ، ولهذا فالأفضل أن يؤخذ رأي المؤرخين المعاصرين لقربهم من زمن الواقعة ، أو لمشاهدتهم لها ، أو أخذهم ممن شاهدها .

وقد أمر بيبرس بهدم قيصرية . وهدم القلاع المفتوحة سياسة اتخذها تجاه معاقل الافرنج التي استولى عليها ، خاصة تلك التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، حتى لا يتمكن الافرنج من الاستفادة منها فيما لو قدمت إلى الشرق حملة صليبية جديدة .

---

(١) الروض ٦٩ ، وشافع ٦٤ . (٢) النهاية ٦٨/٢٨ .

(٣) راجع ما أورده مفضل ٣١٧ ، فقد ذكر أن حامية الشقيف أرسلت إلى صور في حين أن محي الدين يذكر أنها أسرت (الروض ١٠٥) ، وربما كان سبب الخطأ الذي وقع فيه مفضل هو أن بيبرس سمح للنساء والأطفال أن يذهبوا إلى صور .

الاستيلاء على حيفا :

بعد أن استولى بيبرس على قيصرية عزم أن يسير جنوباً ليهاجم أرسوف، ولكنه رأى قبل أن يقوم بذلك أن يضرب بعض حصون الشمال القريبة، حتى لا تشعر بقوة تشجعها على محاولة انجاد أرسوف، أما عكا فقد أرجفها في غاراته السابقة وجعلها تتوقع أن تكون حملة السلطان القادمة عليها، وهذا جعلها تهتم بأمر تقوية نفسها، والتهيؤ في داخلها لما قد يأتي. لهذا صرف جهده إلى حيفا، فأرسل إليها في السادس والعشرين من جمادى الأولى (١٦ مارس) ثلاثة من قواده، استولوا عليها في يوم واحد، وهدموها، وقد أسر بعض من فيها من الحامية وهرب الباقون.

الهجوم على عثليث :

تقع عثليث جنوب حيفا، وشمالي أرسوف، وكانت ملكا للديرية. وربما أن بيبرس لم يكن ينوي في هذه المرحلة أن يستولي عليها، لأنها تحتاج إلى مجهود أكبر مما كان يستطيع أن يوفره في هذا الوقت، إلا أنه كان يرى أنه لابد من اتخاذ إجراء حربي ضدها، يضلل به عن حصار جيوشه لحيفا. ومهاجمة عثليث أيضاً تجعل حامية أرسوف التي ينوي بيبرس أخذها تعتقد أنها غير مقصودة بهجوم مباشر في هذه الرحلة، وأن تيار الهجوم سوف يتجه إلى الشمال.

لهذا سار بيبرس في السادس والعشرين من جمادى الأولى (١٦ مارس) تجريدة ضد عثليث، وشعث ما حولها. ويقول محي الدين أن بيبرس لم يكن يرى أن فتحها كان مهماً في هذه الرحلة، ولهذا تركها إلى فرصة قادمة. وعاد بعد ذلك إلى معسكره في قيصرية، وكان العمل على تخريب قيصرية قائماً على قدم وساق(١).

الاستيلاء على أرسوف :

في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من هذا العام (١٩ مارس ١٢٦٥م) تقدم بيبرس إلى أرسوف، وهي ملك الاسبتارية، مخفياً وجهته كالعادة. وفي اليوم الأول من جمادى الآخرة (٢١ مارس) حاصرها. وكانت خطته أن يستولى على شبكة الخنادق حولها، فركز جهوده عليها، حتى استولى عليها، رغم استماتة المدافعين عنها لحمايتها، فأخذت جنوده

---

(١) الروض ٧٠.

في نقب الأسوار . وفي الساعة الرابعة من يوم الاثنين الثامن من رجب (٢٦ أبريل) أمر بالهجوم العام عليها ، فسقطت المدينة في يده في نفس اليوم ، واحتلت الباشورة في الساعة الرابعة من يوم الخميس من نفس الأسبوع .

ويقول محي الدين أن الافرنج طلبوا الابقاء على حياتهم ، فوافق بيبرس على ذلك ، وأعطاهم رايته أماناً لهم ، ووضع الافرنج في القيود ، وقسموا جماعات ، وضعت كل جماعة في حراسة قائد من قواد بيبرس(١) .

وسار بيبرس تجاه أرسوف على سياسته في تخريب القصور الساحلية ، فقسم أرسوف بين قواده ، وأناط بكل واحد منهم الاشراف عل هدم جزء منها ، وسخر لذلك الأسرى ، فلما تم انجاز ذلك سار إلى مصر في الثالث عشر من رجب (١ مايو)(٢) .

اشتباك مع بوهمند :

في أوائل عام ١٢٦٥/٦٦٤ حدث اشتباك بين بوهمند ورجال بيبرس في شمال الشام ، وأسباب ذلك أن حاكم طرابلس كان أراد أن يفاجيء حمص بغارة عليها ، وقيل أنه طلب مساعدة الديوية والاسبتارية في ذلك ، ولكن حاكم حمص عرف بعزمه فاستعد له ، ولهذا عندما وقع الاشتباك في الثامن من صفر من هذا العام (١٩ نوفمبر ١٢٦٥ م) انتهى الأمر بهزيمة بوهمند(٣) .

كانت هذه هي الأعمال الرئيسية التي قام بها بيبرس في الشام في هذا العام ، وهي أعمال تعتبر تمهيدية للأعمال الكبرى التي قام بها بيبرس في العام التالي عندما استعد للعودة إلى الشام ، لمتابعة خطة الفتح التي بدأها في العام السابق .

---

(١) يذكر شافع في أول الأمر أنه رغم أن الافرنج طلبوا الأمان فإنهم لم يجابوا ، ولكنه فيما بعد يشير إلى أن ما يقرب من ألف من كبارهم ممن كانوا قد جرحوا أرسلوا إلى يافا ٦٦ .

(٢) السلوك ٥٣٤/١ . (٣) الروض ٧٦ .

الحملة الكبرى الثانية

عندما هاجم بيبرس بعض ممتلكات الأفرنج في العام الماضي انتصر عليهم ، والفرصة في هذا العام مواتية ليعيد الكرة ويكسب النصر ، لأنه لا يتوقع أن يكون هناك خطر من أيلخان فارس ، لإنشغاله في صد هجوم جيوش بركه على أراضيه ، ولهذا أصبح بإمكان بيبرس أن يشن ما يريده من هجوم على الأفرنج ، خاصة وأن جيوشه قد أخذت الراحة الكافية بعد آخر حملة قامت بها في الشام .

سقوط صفد وغارات أخري :

في الثالث من شعبان عام ٦٦٤ هـ ١٠ مايو ١٢٦٦ م) توجه بيبرس إلى الشام(١) . وكان نجاحه الحربي في العام الماضي قد دفع حدوده إلى جوار عكا جنوبا ، ولكنه كان على علم تام بقوة عكا ، فلم يفكر في أخذها هذا العام ، وإنما وجه خط الفتح إلى صفد ، وهي رغم أنها أسهل من عكا إلا أنها لا تقل أهمية عنها ، فصفد إحدى معاقل الأفرنج المتغلغلة في بلاد المسلمين . يقول عنها محي الدين : « لأنها الغصه في حلق الشام ، والشجا في صدر الإسلام »(٢) .

لم يكن اهتمام بيبرس بصفد حديثاً ، وقد دل اهتمامه البالغ بها عندما ذكر الأفرنج في عام ١٢٦٣/٦٦١ أن الصالح إسماعيل أعطاها لهم مقابل مساعدتهم له على الصالح أيوب ، وقد رد بيبرس عليهم بأنه هو نفسه ليس في حاجة إلى مساعدتهم ، ولهذا فعليهم أن يعيدوها ، وقد جاء الوقت الآن ليتبع قوله الفعل(٣) .

ولتهيئة الجو لأخذ صفد أرسل بيبرس جيوشاً إلى جهات مختلفة ، لتقوم بغارات للاستيلاء على بعض الحصون محدودة الأهمية ، وركز هجومه على الجهات التي قد تحاول مديد العون لصفد عندما يحاصرها ، فأرسل قسماً من جيشه إلى طرابلس وما جاورها من أراض ، فاستولى على قصر حلبا ، وعرقا ، والقليعات ، وهدمها ، وأرسل فصيلة من القسم الثاني من جيشه

---

(١) الروض ٧٩ . (٢) الروض ٨١ . (٣) الروض ٥٦ .

إلى أراضي صور ، وأخرى هاجمت صيدا ، ، وأرسل جزءا ثالثاً إلى عثليث ، وسار بنفسه مع القسم الرابع للغارة على عكا ، فاستولى على حصن بجوارها . وبهذا يكون الهجوم قد شمل قطاعاً كبيراً يمتد من طرابلس في الشمال إلى جوار أرسوف في الجنوب(١) .

كان بيبرس في باديء الأمر قد أرسل جيشاً ليطوق منطقة صفد ، وأتبعه بالمخيم الملكي ، وأصبحت بهذا صفد مكان التجمع لجميع الجيوش المغيرة في منطقة الساحل ، ثم أرسل سراً قوة خاصة لمحاصرتها ، ومفاجأة حاميتها ، حتى تمنع صفد من طلب النجدة . وقد ساعدت غاراته على الساحل في أن يكون الحصار ذا أثر فعال ، لأن جنوده قد شعثوا تلك المناطق ، فأضعفها ذلك إلى درجة لم يتوقع معها أن تقدم نجدة سريعة لصفد . أما عكا ، وهى التي يتوقع أن تتدخل بالهجوم على جيش بيبرس العائد من صيدا لتلتقي بالجيش المحاصر لصفد ، لهذا احتاط بيبرس ، وانتظر أمام عكا حتى وصلت جيوشه المغيرة على الجهات الأخرى منطقة صفد ، ولم ينتظم عقد جيشه على صفد إلا في الثامن من رمضان (١٣ يونيه) .

ورغم أن حصار صفد بدأ مبكراً إلا أن أوامره لجنده كانت تقضي أن يحيطوا بها وألا يهاجموها ، ولم يبدأ الهجوم إلا بعد أن وصل بيبرس . وقد وصلت المنجنيقات بعده في الواحد والعشرين من رمضان (٢٦ يونيه ١٢٦٦م) ولم تبدأ الرمي إلا في السادس والعشرين (الأول من يونيه) . وفي الثاني من شوال (٧ يوليه) قرر بيبرس الزحف عليها ، وفي الثامن منه (١٣ يوليه) تعمقت الشقوق في جدرانها ، واشتد القتال في الثالث عشر (١٨ يوليه) ، فأحرق الأفرنج ستائر الباشورة ، ليمنعوا المسلمين من تسلقها ، إلا أن هذا لم يمنع المسلمين من الاستيلاء عليها في الخامس عشر من هذا الشهر (٢٠ يوليو) ، فانسحب الأفرنج إلى القلعة ، فسارع المسلمون إلى نقبها(٢) ، ففقد أهلها الأمل ، وعرضوا أن يستسلموا على أن يؤمنوا على أرواحهم ، فأجابهم بيبرس إلى ذلك ، واشترط عليهم أن يخرجوا دون أن يأخذوا معهم سلاحاً ولا نقوداً ، وألا يحدثوا بالقلعة أضراراً .

---

(١) الروض ٧٩ — ٨٠ . (٢) الروض ٨٢ — ٨٤ .

كان بيبرس يؤمل أن يفتح صفد في مدة قصيرة ، وبأقل ضرر عليها ، إلا أنه لاقى عنتاً في فتحها ، لشدة تحصينها ، ومدافعة من فيها . فاستعان ، مع الحرب ، بالخدعة والمكيدة ، وحاول أن يزرع الفتنة بين أفراد حاميتها ، فأعطى وعوداً لبعضهم بالأمان ، وأرسل منديله عنواناً على ذلك . وأعطى رسل الأفرنج الذين قدموا عليه في أول الأمر للمفاوضة هدايا وتشريفات . ويبدو أن هذه السياسة أدت مفعولها مع بعض من في الحصن ، لأن السلطات هناك رأت أن تضع حداً لهذا ، فأعادت إلى بيبرس الهدايا والتشريفات ، وربما كان ذلك مع رفض الشروط ، إلا أن بيبرس استمر في استمالة أفراد من الحامية ، وأصدر أوامره لجنده ألا يرموا إلا الديويه ، وربما أن هؤلاء كانوا قد أظهروا مقاومة أكثر من غيرهم . ويشير محي الدين إلى خطة قد دبرت مع بعض المدافعين عن القلعة ، ترمي إلى فتح البوابة ، وقد سبب هذا شيئاً من القلق ، وزرع الشك في ولاء بعض النبلاء داخل القلعة . وسرعان ما انتشر الشك بينهم ، وزالت ثقة بعضهم في بعض ، فتحطمت الروح المعنوية للحامية ، فطلبوا الأمان للمرة الثانية ، ولكن هذا أيضاً لم يتم . وخرجوا في النهاية على ضمان الأتابك ، وكان بيبرس — كما قيل لنا — سوف يحترم كلمة الأتابك لو أن الأفرنج وفوا بالعهد ، ولم يخرجوا معهم بعض الأشياء التي أشارت شروط الاستسلام إلى عدم خروجهم بها . ومن التهم الموجهة إليهم أيضاً أنهم أخرجوا معهم بعض الأسرى المسلمين ، وادعوا أنهم مسيحيون . لهذا أمر بيبرس بقتلهم(١) .

اختلفت الآراء ، كالعادة ، في استسلام الحامية ، خاصة بين المؤرخين المتأخرين من مؤرخي عصر المماليك . ولعل تشابه الطرق التي انتهت إليها هذه الحصون ، وتقارب الفترة بينها ، كانت السبب في هذا الاضطراب . ويقول «مفضل» في استسلامهذا الحصن بالذات أن بيبرس لم يحلف للأفرنج بأنه سوف يؤمن حياتهم ، ولكنه أجلس رجلا يسمى كرمون أغا مكانه ، وأوقف القواد في خدمته ، وكرمون هذا هو الذي حلف لهم . فأخذ بيبرس على الحامية أنها أخرجت معها بعض الأشياء المتفق على عدم إخراجها . ولام «مفضل» وزير الأفرنج المسيحي ، وادعى أنه خانهم(٢) .

---

(١) الروض ٨٤ — ٨٥ . (٢) مفضل ٤٩٢ .

صفد تصبح قاعدة للمسلمين :

قبل أن يتوجه بيبرس إلى دمشق أرسل ذخيرة ومؤناً إلى صفد لتكون مركزاً في هذه الجهة ، يصد غارات الأفرنج عن هذه المناطق ، وقد أدت صفد هذا الدور ،فمثلا عندما هاجمت قوة من عكا «تين شيحا» أمر بيبرس جنده في صفد أن يشعثوا الأراضي الواقعة غرب صفد إنتقاماً منهم . ولما قام الوصي هيو — وكان قد وصل حديثاً إلى عكا من قبرص — في محرم عام ٦٦٥ هـ (أكتوبر ١٢٦٦ م) بهجوم عن طريق أراضي طبرية ، كانت حامية صفد هي التي ردته ، وتقدمت إلى عكا ، وتلاقت مع الأفرنج في واد قرب عثليث ، وكان عدد الأفرنج ألف ومئة فارس تقريباً ، ودارت معركة حامية انتهت بهزيمة الأفرنج ، ويبدو أنه انضم إلى هيو في السابق ، عندما تقدم نحو الأراضي الإسلامية ، بعض فرسان الأفرنسيين في عكا ، لأن محي الدين يذكر أن من بين من قتل في هذا اللقاء عدد من أشراف الفرنسيين ، وأقيمت فيما بعد المآتم في عكا لموتهم(١) .

الحملة على سيس :

في السابع والعشرين من شوال من هذا العام (٦٦٤ هـ الأول من أغسطس ١٢٦٦ م) غادر بيبرس صفد قاصداً دمشق ليقضي بها شهرين تقريباً لتصريف أمور الشام ، ويظهر أن خطته الحربية في هذه الرحلة قد اكتملت بفتح صفد ، وبالغارات التي شنها في هذه الأثناء ، لأن جيشه بكامله معه ، ولم يكن من سياسته أن يبقى جيشاً كبيراً مثل هذا دون عمل ، لئلا يصيب أفراده الملل ، هذا زيادة عما يتطلبه بقاء مثل هذا الجيش من زيادة في المؤن والمرتبات ، وما ينال المنطقة التي يكون فيها من أضرار . أما إذا وجه إلى غارات فسوف ينشغل ، ويكسب . لهذا أصدر بيبرس أمره ، مباشرة بعد أن غادر صفد متوجهاً إلى دمشق ، بألا تدخل الجيوش المدينة ، وإنما تبقى متهيئة للرحيل ، والقصد سيس .

كان صاحب سيس دائماً يختار الوقت المناسب لمهاجمة أراضي بيبرس ، وقد وجد بيبرس الآن الفرصة مواتية لمهاجمته ، فبيبرس لا يتوقع أن يأتي

---

(١) الروض ٨٩ ورنسمان ، نفس المصدر ٣٢١/٣٠ — ٣٣٢ .

خطر من الأفرنج ، لأن بعضهم مقيد معه بهدنة ، وبعضهم في موقف ضعف لا يسمح له بالتحرك ضده ، وقد تأكد بيبرس أنه ليس هناك خطر متوقع من التتار . وقد عين الملك المنصور ، صاحب حماه ، ليكون على رأس الجيش الذي سيره إلى سيس في الخامس من ذي القعدة (٨ أغسطس) فوصلوا إلى الدربساك ، ودخلوا في ممرات الجبال هناك .

كان هيثوم قبل أن يتنازل عن العرش لابنه « ليو » قد حصن الممرات بأن بنى أبراجاً على قمم الجبال ، إلا أن بيبرس سار دون مقاومة إلى أن وصل ، على ما يبدو ، إلى مكان يسمى « مرى » حيث تقابل مع ليو الذي كان على رأس جيش من الأرمن . فهزم ليو هزيمة كبرى ، وانتهى به الأمر إلى الأسر هو وابن الكونستابل عمه ، وكان الكونستابل قد انسحب مهزوماً ، وانسحب أيضاً حاكم حموص وكان بين القتلى أخو ليو وعمه . وجعل الملك المنصور مقامه في سيس ، وأرسل اثنين من كبار قواده لتخريب البلاد ، فأكملوا ذلك . وبلغ الضرر إلى الحد الذي لم يستطع معه الأرمن بعد ذلك أن يستيعدوا تماماً سابق ازدهارهم(١) . وقد أصبح مقر الملك المنصور في سيس مركزاً لتجمع الجيوش الإسلامية المغيرة .

بعد أن حصلت الجيوش في غاراتها على مرامها أخذت تعود إلى مركزها مثقلة بالغنائم ، وكانت أخبار النصر قد بلغت بيبرس ، فسار شمالا لمقابلة جيشه المنتصر ، والتقى به حوالي منتصف الحجة (سبتمبر) ، في مكان يقع شمال أفاميه ، وعاد بعدها إلى دمشق ، ثم غادرها إلى مصر في الثاني من محرم ٦٦٥ هـ (٣ أكتوبر ١٢٦٦ م) ، ولم يصلها إلا في الثالث عشر من صفر (١٣ نوفمبر) ، وكان من أسباب تأخيره أنه عرج على الكرك ليرعى شؤونها ، وصادف أن وقع من حصانه فسبب له ذلك بعض الآلام .

نشاط بيبرس في الشام عام ١٢٦٦/٦٥ ـ ٦٧ :

يبدو أن بيبرس لم يخطط لأي هجوم كاسح على الأفرنج في هذا العام ، وفضل أن يوقف كل عنايته على إعادة بناء صفد ، وإجراء مفاوضات لإبرام معاهدات مع بعض القادة من الأفرنج . وكانت سياسته أن يهدم كل معقل يأخذه من الأفرنج في منطقة الساحل ، ليمنع استفادتهم منه فيما لو وصل

(١) رنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣٢٣/٣ .

إلى الشرق حملة صليبية جديدة . وصفد كانت في داخل الشام ، وتسيطر على أراضي الخليل ، فإذا حصنت ووضع فيها حامية قوية فسوف تحمي الجانب الجنوبي الشرقي من أراضيه في الشام من هجمات عكا وجاراتها .

وكان حجم العمل الذي ينوي أن يقوم به في صفد يقتضي حضوره ، ويستطيع أثناء إقامته هناك أن يجري بعض المباحثات مع الأفرنج ، وهو يقدر أن وجوده شخصياً ، وما يأتي به ذلك من ضغط وتهديد ، سوف يؤثر على نتائج المباحثات لما هو في صالحه ، والمرة الوحيدة التي استعمل فيها القوة في هذه الرحلة تؤكد أن ذلك كان لغرض إشعار الأفرنج بوجوده

وصل بيبرس إلى صفد في الرابع والعشرين من رجب (٢٠ أبريل) ، واستقبل رسل الأفرنج ، وقبلوا عرضه تقسيم صيدا ، وهدم الشقيف ، إلا أن المفاوضات أخفقت لاختلاف الطرفين على نقط أخرى . ولجأ بيبرس عند ذلك إلى القوة ، فهاجم نواحي عكا ، والرسل لا تزال في معسكره ، وبجانب الأضرار التي ألحقها بعكا فقد كان لهذه الغارات أثرها في إفزاع الأفرنج الآخرين الذين كانوا يفاوضون بيبرس والذين ربما اقتدوا بالآخرين الذين تشددوا في المفاوضات .

لم يصف محي الدين الهجوم الثاني على عكا في الواحد والعشرين من شعبان عام ٦٦٥ هـ (١٧ مايو ١٢٦٧ م) بأنه للأخذ بالثأر ، كما وصف الهجوم السابق الذي ربما كان حدث في أوائل هذا الشهر(١) .

كانت نتيجة المفاوضات مع رسل صور أفضل منها مع رسل صيدا والشقيف ، ففي رمضان وافق رسل صور أن يدفعوا دية للسابق شاهين ، وقد سبق أن قتله الأفرنج ، واعترفوا بحق بيبرس على هونين وتبنين والأراضي المحيطة بهما ، وعقدت هدنة مدتها عشر سنوات ، اعترف لهم فيها بحقهم في تسع وتسعين قرية(٢) .

وعقدت أيضاً بينه وبين الاسبتاريين هدنة مدتها عشر سنوات ، وافقوا فيها على أن يتخلوا عن حقهم في أخذ الجزية من الاسماعيلية ومن حماه ، وكان من بين شروطها ما يعطي بيبرس حق إنهائها(٣) .

---

(١) الروض ٩٧ .

(٢) الروض ٩٧ .

(٣) الروض ٩٧ .

كان حاكم قبرص – وهو من أقرباء حاكم بيروت – قد مسك سفينة للأتابك بحملها ، رغم وعده بعدم التعرض لها . وقد أثير هذا الأمر مع رسل بيروت ، فوعد حاكم بيروت أن يحقق إخلاء سبيل التجار ، ويعوض عن قيمة السفينة وحملها ، ولم يصل التجار الأراضي الإسلامية إلا في شعبان عام ٦٦٦ هـ (أبريل – مايو ١٢٦٨ م) (١) .

كان التنافس التجاري بين الجنويين والبندقيين قائماً ، ويحتد بين حين وآخر بسبب التجارة والميزات التي يحصل عليها أحد الفريقين . وقد استطاع البندقيون ، وهم الممولون للحملة الصليبية الرابعة ، أن يثبتوا أقدامهم في ساحل البحر الأبيض المتوسط ، إلا أن الجنويين يصرون على أن يكون لهم نصيب في تجارة هذه المناطق ، ولذا لم يترددوا في أن يلجأوا إلى السلاح عندما اقتضت الظروف ذلك . وكانت أكثر حركاتهم نجاحاً تلك التي تعاونوا فيها مع إمبراطور اليونان مايكل ، فقد ساعدوه على استعادة القسطنطينية ، فكافأهم على هذا بمنحهم امتيازاً واسعاً للتجارة في أراضي امبراطوريته ، وفي هذا تقليص لقوة البندقيين في المياه المجاورة(٢) . وقد زاد هذا من حنق البندقيين على الجنويين فأقدموا على طرد الجنويين في صور في عام ١٢٦٣(٣) ، فرد الجنويين عليهم بهجمات أحدها هجومهم عليهم في عكا في أغسطس عام ١٢٦٧ ، وعكا كانت مركز قوة البندقيين ، ولكنهم هزموا هزيمة شنعاء(٤) .

أضر هذا الخلاف القائم بين هاتين القوتين البحريتين ضرراً بالغاً بقوة الأفرنج ، فزيادة على أنه هز اقتصاد مقاطعاتهم فقد أثر على المظهر السياسي لهم ، لأنه جرهم إلى تطاحن بينهم ، إذ تحزبت كل فئة لفريق من المتنازعين(٥) وقد فتحت هذه العداوة المتزايدة مع مرور الزمن أبواب خطر جديدة على الأفرنج ، لأنه كلما انحاز الأفرنج مع فريق التجأ الفريق الآخر إلى التعاون مع بيبرس(٦) .

---

(١) الروض ٩٨ .

(٢) الدكتوره هسي : العالم البيزنطي ٧٥ . ونسمان : تاريخ البيزنطيين ٣/٢٨٦–٢٨٧

(٣) ستيفنسن : الصليبيون في الشرق ، ٣٣٧٠ .

(٤) رنسمان : تاريخ الصليبيين ، ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٥) ستيفنسن : الصليبيون في الشرق ، ٣٣٢ . (٦) الروض ، ٨١ – ٨٢

وفي عام ٦٦٥/١٢٦٦ – ٦٧ كانت العداوة قد استشرت بين الفريقين ، ووصلت إلى أسوأ ما عرف أنها وصلت إليه ، وجر ذلك السلطة في عكا إلى أن تنصرف كلية لتقابل هذا الخطر الذي أصبح يهددها من الخارج .

الحملة الكبرى الثالثة

في السنة الثالثة ٦٦٦/١٢٦٧ – ٦٨ اتبع بيبرس سياسة جديدة مع الأفرنج تجاه أخذ حصونهم في الشام . وقد غادر مصر في الثاني من جمادي الآخرة (١٨ فبراير) ، فظن الناس أنه ينوي أن يهاجم التتار ، وكان قد وصله ما يفيد أنهم يريدون الهجوم على أراضي حلب ، إلا أنه كما ذكر سابقاً(٢) لم يحصل هجوم على التتار في تلك الفترة ، وهذه الاستعدادات الضخمة التي قام بها بيبرس ، والخطوات التي اتبعها قد توحي بأن خطر المغول لم يكن إلا ابتداعاً من بيبرس ، ليتمكن بذلك من تحريك جيشه ، دون أن يفزع الأفرنج الذين كان خروجه في الحقيقة لمفاجأتهم . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد يكون قد وصل فعلا إلى بيبرس ما يفيد عزم التتار على الهجوم ، إلا أنه تلقى أخباراً لاحقة بأن عزمهم قد انثنى عن ذلك . وكانت الأوامر التي أصدرها بيبرس لقواده عن وجهتهم سرية .

إذا ترجح الرأي القائل بأن التتار كانوا قد عزموا على الهجوم على أراضي بيبرس ثم فتر عزمهم عن ذلك ، فهذا في حد ذاته قد شجع بيبرس على مقاتلة الأفرنج دون خوف من التتار أن يتدخلوا ،لأن انسحابهم لا بد وأن يكون لسبب جوهري لن يسمح لهم بالعودة ، ولا بد أن بيبرس يعرفه .

---

(١) الروض ٨١ – ٨٢ .   (٢) انظر ما سبق ص ٥٨ .

تقع يافا إلى الجنوب من عكا ، وهى إحدى مدينتين مهمتين للأفرنج في هذه الفترة ، لم يستردهما بيبرس بعد ، والثانية عثليث . ويافا إحدى ممتلكات جون ابلين ، وقد حظى بصداقة بيبرس منذ تاريخ سابق(١) وله معه هدنة استمرت طوال حياته ، ولكن يبدو أن بيبرس قرر الاستيلاء عليها بعد موت صاحبها « جون » . وكانت تهمة بيبرس لصاحبها المتوفي ، والتي على ابنه الذي خلفه أن يدفع ثمنها الآن ، هى أن جون أرسل قوة ضد قطيا ، التابعة للمسلمين ، مخفياً أفرادها في زي صيادين ، وهى تهمة بررت نقض الهدنة . ولهذا عندما اتصل قسطلان يافا باسم حاكمها الجديد ببيبرس ، يطلب تجديد الهدنة ، رفض بيبرس طلبه ، وأخذ الأهبة لمهاجمة يافا . وزيادة في عدد المبررات الموجبة لأخذها اتهم مؤلف السيرة أهل يافا بأنهم كانوا يحملون الميرة إلى عكا ، وربما دل هذا على أن الهدنة كانت تحرمه ، وأنهم فتحوا خمارة استخدموا فيها بعض المسلمات . ومن الواضح أن بيبرس قد قرر الاستيلاء عليها منذ أن كان مقيماً على صفد يرممها .

عندما قدم قسطلان يافا على بيبرس في الشام ومع القسطلان بعض من كبار رجال المدينة للمفاوضة عوقوا حتى استكملت كل الاتهامات الداعية لنقض الهدنة ، ثم بعد ذلك بدأت المفاوضات لتسليمها ، مع أنه يبدو أن العساكر الإسلامية قد بدأت محاصرتها قبل أن يصل الطرفان إلى نتيجة في المفاوضات ، وقد استولى عليها جيش بيبرس في نفس اليوم ، وهو اليوم العشرين من جمادي الآخرة ٦٦٦ هـ (٧ مارس) ، وأوصلت حاميتها إلى عكا ، وهدمت يافا مثلما هدمت بقية الحصون التي استولى عليها بيبرس في الساحل(٢) .

الاستيلاء على شقيف أرنون :

يبدو أن شقيف أرنون – قصر الديريه – كان ذا موقع استراتيجي ويشبه صفد في ذلك وفي أهميته لبيبرس ، فموقع الشقيف يجعلها تسيطر على جميع المنطقة المحيطة بها ، والقريبة منها ، ومنها الصبيبه ، إحدى الممتلكات الإسلامية . وأهميتها للأفرنج أيضاً ، بجانب كونها تهدد تلك

---

(١) الروض ٢١ .

(٢) الروض ١٠٢ .

المنطقة الإسلامية ، تكمن في أنها تكون حلقة وصل بين حصون الشمال مثل صيدون ، وحصون الجنوب مثل عكا .

ويشير محي الدين إلى أن بيبرس بدأ يفكر في الاستيلاء على الشقيف مباشرة بعد أن سقطت صفد في يده . وكان قد أمر جيوشه عند مغادرته لمصر أن تتحرك في السر ، وتحاصرها وتحفظها ، مع تفادي القتال مع من فيها(١) ، فلما سقطت يافا أرسل جزء من الجيش المصري إليها ، ثم ذهب بنفسه مع بقية جيشه(٢) .

كانت جيوش بيبرس قد بدأت غاراتها على أرض صيدا ، فأخذت صيدا تستعد للدفاع عن نفسها فيما لو عزم السلطان على مهاجمتها(٣) ، أما صور فكانت مرتبطة مع بيبرس بمعاهدة ، وهي حريصة على المحافظة عليها ، لهذا لا يتوقع أن تحصل الشقيف على نجدة من الحصون القريبة ، وعكا لو حاولت أن تساعدها بنجدة فإن حامية صفد سوف تعترض طريقها ، ومع هذا كله فقد حاولت الشقيف أن تستصرخ بعكا ، ولكن بيبرس ، على ما يقال ، اعترض طريق الرد المرسل من عكا إليها ، ووضع بدلا منه رداً مزوراً على لسان أهل عكا يخدم غرضه(٤) .

ومع أن الشقيف كانت محصنة تحصيناً جيداً ، ومجهزة بالرجال ، إلا أنه قد انقص من قوتها خروج قسم من الحامية إلى عكا(٥) .

وفي التاسع عشر من رجب (٤ أبريل) انضم بيبرس إلى جيشه المحاصر ، وبدأت المنجنيقات تضرب الشقيف ، وأدرك من في الحصن ، وكان به قلعتان ، أن عددهم لا يكفي لحمايته ، فعمدوا في الليلة الخامسة والعشرين من رجب ٦٦٦هـ (١٠ أبريل ١٢٦٨م) إلى إحراق مخازن القلعة الجديدة ، وانتقلوا إلى القديمة ، فاحتل المسلمون الجديدة ، ووجهوا القتال منها ، فأدرك الافرنج ألا قبل لهم بمقاومة هذا الهجوم ، فعرضوا أن يستسلموا على شروط . ثم رفعت أعلام بيبرس على الحصن في يوم الأحد آخر يوم من رجب (١٥ أبريل) فأرسل النساء والأطفال مخفورين إلى صور(٦) .

سقوط أنطاكية :

أتاح استسلام يافا والشقيف السريع لبيبرس فرصة توسيع نطاق نشاطه ضد الافرنج ، فجاء دور مهاجمة بوهيمند ، صاحب طرابلس ، بعد

---

(١) الروض ١٠١ .
(٢) الروض ١٠٣ .
(٣) الروض ١٠١ .
(٤) الروض ١٠٤ .
(٥) الروض ١٠١ .
(٦) الروض ١٠٤ ــ ١٠٥ .

الشقيف(٢) ، ويبدو أنه يتساوى ، في نظر بيبرس ، في العداوة مع صاحب سيس ، وملك عكا ، فبوهيمند كان قد ناصر التتار ، وتحمس لمجيئهم عندما زحفوا على الشام ، وقد انتهز فرصة الاضطراب الذي تلت مجيئهم ، فضم إلى بلاده كل ما استطاع ضمه من قلاع . وموقع بوهيمند المنيع ، وجرأته ، دفعتاه في أوائل عهد بيبرس إلى أن يهاجم الأراضي المجاورة لحمص .

لقد وجه بيبرس حتى الآن ضرباته إلى عكا وسيس ، وآن الأوان لمهاجمة بوهيمند . وكانت طرابلس أهم ممتلكات بوهيمند ، ولكنه كان يتوقع أن تقاوم مقاومة شديدة ، مثل مقاومة عكا ، ولهذا كان الهجوم على أنطاكية أنسب لأنها تلي طرابلس في الأهمية ، والاستيلاء عليها أقرب إلى التحقيق . وقد رأى بيبرس ألا يوجه إليها هجوماً مباشراً ، في أول الأمر ، حتى لا ينبه صاحبها ، لأنه قد يستميت لنجدتها ، لهذا سلك بيبرس طريقاً مضللة ، فقام في منتصف شعبان عام ٦٦٦هـ (أوائل مايو) بغارة كاسحة على طرابلس نفسها ، وسبب لها أضراراً جسيمة ، ثم تركها في التاسع والعشرين من هذا الشهر (١٤ مايو) . ولابد أن الوقت الذي قضاه هناك قد أعطى بوهيمند فكرة بأن بيبرس قد اكتفى ، على الأقل ، في هذه الفترة ، بهذه الغارة ، وهذا الضرر ، وأنه لن يكون هناك هجوم آخر على ممتلكاته الأخرى .

أما بيبرس ، فبعد أن ترك منطقة طرابلس ، لم يأت بما يدل على أنه سوف يهاجم أنطاكية ، لأنه اتجه إلى حمص ، ورتب بعض أمورها . ثم تركها إلى حلب ، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق ، قاد أحداها بنفسه ، وأرسل ثانية لتغير على أراضي أنطاكية ، ولعله أراد بذلك أن يغطي عن هدفه الأصلي في الهجوم عليها ، أو أراد حفظ الطرق المؤدية إلى الشمال ، فيما لو أرسل جيش إلى أنطاكية . والفرقة الثالثة أرسلها إلى السويدية ، التابعة لأنطاكية ، والواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، والتي ربما جاءت نجدة إلى أنطاكية عن طريقها . وكان المكان المعين لالتقاء هذه الفرق في النهاية أمام أنطاكية . وقد وصل بيبرس إلى مكان الملتقى في اليوم الأول من رمضان ٦٦٦هـ (١٥ مايو ١٢٦٨م) ، ووصلت الأحمال في الثالث من هذا الشهر (١٧ مايو) .

---

(٢) جعل بيبرس طرابلس هدفه مثلما فعل مع عكا حينما جعلها هدفاً لسلسلة من الغارات ، التي أراد بها إضعافها .

وصلت طلائع جيش بيبرس – ولعلها سبقت لتحيط بالمدينة وتحصرها – ويظهر أن كنسطبل أنطاكية ظنها قوة صغيرة ، وأن بالإمكان ردها ، فقابلها بجيش قاده بنفسه ، إلا أنه هزم وأسر(١) ، ثم طلب بيبرس ابن الكنسطبل رهينة عنده ، وعندما تم ذلك أرسل الكنسطبل ليقنع حاميتها بالاستسلام ، فلما رفضوا ذلك هاجم بيبرس المدينة في الرابع من رمضان (١٨ مايو) ، وكان سورها يمتد مسافة طويلة ، ولم يكن مجهزاً تجهيزاً كاملا بالرجال ، فتسلقه المسلمون ، وسرعان ما سقطت المدينة .

وتعرض سكان أنطاكية لمذبحة عظيمة بعد سقوطها . أما الحامية ، وعدد أفرادها ثمانية آلاف ، مضافاً إليهم عدد السكان ، فتحصنوا في القلعة ، إلا أنها كانت أصغر من أن تتحمل هذا العدد ، فشح الماء فيها ، فعرض من فيها في اليوم التالي أن يستسلموا ، وأن يؤخذوا أسرى(٢) ، فقبل ذلك منهم ، وأخليت القلعة .

وبعد أن نهبت المدينة ، أمر بيبرس بحرق القلعة ، لئلا يحاول الافرنج استعادتها .

آثار سقوط أنطاكية :

كان من آثار سقوط أنطاكية المباشرة أن حصون ديركوش وشقيف كفر دربين وشقيف تلميس أصبحت منعزلة وانقطعت بها السبل ، فاضطرت إلى الاستسلام . وهذه الحصون هي نفس الحصون التي اتهم بيبرس صاحب أنطاكية بالاستيلاء عليها بدون حق عندما هاجم التتار الشام . وفي خطاب تهكمي أرسله بيبرس إليه يخبره فيه بالاستيلاء على أنطاكية أكد بيبرس ذلك . وهذا قد يدل على أهمية هذه الحصون عند بيبرس ، وتأثيرها عليه في توجيه هذه الحملة ، ويتضح ذلك من الجملة التالية : « وهذه الحصون كانت شجا في حلقه ، وغصة في صدره »(٣) .

وبعد سقوط أنطاكية وجدت حامية بغراس ، وهو قصر الديريه العظيم الواقع شمال أنطاكية ، إنها معزولة عزلا تاماً عن بقية قلاع الافرنج ،

(١) أطلق سراحه فيما بعد عندما استولى بيبرس على أنطاكية ، واختار أن يذهب إلى سيس . الروض ١١٣ .

(٢) يذكر محي الدين أن اثنين من كبار رجال المدينة هربوا في الليل . ولعل اكتشاف هذا فيما بعد أضعف من روح الحامية . الروض ١١٠ .

(٣) الروض ١١٨ .

مما يجعلها في موقف خطر ، ولا تتوقع المساعدة من سيس ، لأن صاحب سيس نفسه كان يسعى لأن يوطد علاقات طيبة مع بيبرس ، لذلك أخلت حامية بغراس القلعة ، وتركتها غنيمة سهلة لبيبرس(١) .

ومن آثار سقوط أنطاكية في يد بيبرس أيضاً ما آل إليه أمر بوهيمند ، فقد تضعضعت عزيمته . وضعف الافرنج الآخرين ، ويأسه من أن يصل إليه مساعدة من التتار كشف الموقف الضعيف الذي يمر به . وكان قبل ذلك قد أمّل أنه باشتراك الافرنج مع التتار على حدود الشام الشرقية قد يستطيع هو وملك سيس أن يحرزا نصراً مبيناً على جيرانهما المسلمين ، بل أنه أمّل أن يهاجم أراضي بيبرس ، إلا أن الضربة التي مني بها حاكم سيس عندما أسر ابنه ، وانشغال التتار في الشرق ، قد تركت الافرنج ضعيفين ووحيدين في الميدان ، وهذه أول مرة يبدو بوهيمند مستعداً للتفاوض مع بيبرس على عقد هدنة .

مفاوضات مع هيو الثالث :

كان هيو الثاني ، ملك قبرص ، قد مات في ربيع الآخر عام ٦٦٦هـ (ديسمبر ١٢٦٧م) ، وعمره أربعة عشر عاماً . وكان الوصي على عرشه هو هيو دلو سنان ، فخلفه على العرش ، وتوج باسم هيو الثالث في ٢٧ ربيع الثاني عام ٦٦٨هـ (٢٤ ديسمبر عام ١٢٦٩م)(٢) . وعندما كان بيبرس يشن الغارات على الشام كان هيو الثالث منشغلا بتنظيم تتويجه المقبل ، إلا أنه رغم ذلك وجد الوقت الكافي لينظر في علاقته مع بيبرس . وطبقاً لرواية محي الدين فهيو الثالث ، تقديراً منه للعلاقات الودية بين صاحب صور وبيبرس ، اتصل بصاحب صور ، وطلب منه أن يتوسط في إيجاد جو سلمي بينه وبين بيبرس . وقد استقبل بيبرس رسل هيو عند عودته من فتح أنطاكية ، وكتب الأسس لمعاهدة تعقد بينهما ، وأرسلها مع رسل من عنده ، ليأخذوا موافقة هيو عليها . وكان من بين الأمور التي عرضها بيبرس على هيو أن يعترف بيبرس للافرنج بملكيتهم لعكا ، وما يتبعها من ممتلكات تبلغ واحداً وثلاثين ضيعه . وأبدى استعداده أيضاً أن يعترف لهم بحيفا وثلاث ضيعات معها ، ونصف أراضي الكرمل ، وعثليث وخمس من قراها ، وعشر من قرى القرين ، وسهل صيدا ، على أن يترك لبيبرس

---

(١) الروض ١١٩ .

(٢) الروض ١٢٢ ورنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣٢٩/٣ .

النصف الباقي من حيفا ، ونصف أراضي عثليث ، والباقي من أراضي القرين ، والأراضي الجبلية من منطقة صيدا ، ومدة الهدنة المقترحة عشر سنوات ، على ألا ينقضها قادم من خارج المنطقة ، كأن يأتي ملك من وراء البحار . وأشارت الاتفاقية إلى وجوب إخلاء سبل الأسرى . وفي الختام اشترط بيبرس أن تدخل قبرص ، وأراضي الاسماعيلية ضمن هذه الاتفاقية(١) .

وقدم رسل بيبرس مشروع هذه الاتفاقية لهيو في ٢٤ شوال عام ٦٦٦هـ (٧ يوليه عام ١٢٦٨م) ، فلم يوافق على بعض ما ورد فيها ، خاصة وأنه رغب في أن يكون لقبرص اتفاقية منفصلة ، وهذا يعني أن بيبرس سوف يضطر إلى التنازل عن امتيازات أخرى ، وعن حقه في بعض الممتلكات التي يؤمل الآن في أن يضمها إلى ممتلكاته . وكان هيو يؤمل أيضاً في أن يخرج الاسماعيلية من هذه المعاهدة ، ولعل السبب في ذلك هو حرمان بيبرس من هذه الممتلكات أيضاً . وقد أصر هيو على وجهة نظره ، واعترض على بعض أمور وردت في مشروع الاتفاقية يعتبرها بيبرس جوهرية ، ولهذا لم توقع الاتفاقية(٢) .

نشاط بيبرس عام ١٢٦٨/٦٦٧م :

شهدت السنة التالية ، وهي سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨ — ٦٩م) من بيبرس ضد الافرنج نشاطاً أقل من العام السابق ، فقد سافر إلى الشام في الثاني عشر من جمادى الآخرة (١٦ فبراير ١٢٦٩م) . وقد يكون السبب الرئيسي لهذه الرحلة قدوم رسول التتار ، وبيبرس ، بلاشك ، يفضل أن يقابله في الشام ، لأن هذا يقلل عدد الأفراد الذين يمكن أن يتصل بهم السفير ، وأقصر للمسافة التي سوف يمر بها إلى مصر ، فهذه الخطوة اتخذها بيبرس ليحول دون إمكانية اتصال الرسول بالقادة الذين قد يحاول الرسول أن يستميلهم إلى جانب التتار . وقصد أيضاً من هذه الخطوة أن يضيع الفرصة على العناصر المتذمرة بين أفراد حكومته عن أن يساوموا رسل التتار على القيام بعمل ضد بيبرس . ووجوده في الشام أيضاً يفيد فيما لو كان التتار ينوون الهجوم على هذه المنطقة ، وأرسلوا بعثتهم هذه تحذيراً وتغطية عن نيتهم الحقيقية .

---

(١) الروض ١٢٣ .

(٢) الروض ١٢٣ .

وقد سافر بيبرس إلى الشام خفيفاً دون أحمال ، وهذا يدل على أنه لم ينو أي هجوم كبير في الشام ، ولعل بيبرس كان ينوي أساساً أن يريح جنده هذا العام ، وأن يعطيهم وقتاً كافياً ، يستزيدون خلاله من التدريبات الحربية اللازمة(١) .

ومع ذلك فقد قام بحركات حربية معينة ، وهي وإن كانت صغيرة ومحدودة في الرقعة التي دارت فيها إلا أن أهميتها ظهرت فيما بعد ، وألقت بعض الضوء على نية بيبرس ، وتخطيطه للمستقبل .

لما سافر بيبرس إلى الشام ترك الجزء الأكبر من جنده في مصر ، وأخذ معه فقط بعض قواده المهمين ، لأنه قد يستفيد من استشارتهم ، أو - وربما أنه أقرب إلى الواقع - لأنه لم يرد أن يخاطر بتركهم خلفه في مصر مع الجيوش ، حتى مع وجود هؤلاء القواد المهمين في الشام معه . لقد شعر بيبرس أن عليه أن يتابع ما عليه القواد الذين تركهم في مصر ، ولهذا قرر أن يترك معسكره مختفياً ، ويسافر فجأة إلى مصر ، وأشاع في معسكره أنه مريض ، وسافر مختفياً في السادس عشر من شعبان (٢٠ أبريل) إلى مصر وليس معه إلا خمسة من كبار رجاله ، فوصلوا إليها في التاسع عشر (٢٣ أبريل) ، وبقوا هناك حتى الرابع والعشرين (٢٨ أبريل) ، ثم عاد وهم معه إلى الشام(٢) .

لابد أن أخبار مرض بيبرس قد سرت الافرنج ، وأن الغموض الذي خيم على جناح بيبرس الخاص في معسكره أعطتهم الحق في أن يعتقدوا أنه توفي(٣) ، وقد أشاع الافرنج موته ، وهو أمر لم يعجب بيبرس ، ولهذا ، ولأسباب أخرى ، قرر أن يهاجم أراضيهم ، وأهم هذه الأسباب أنه اتهم افرنج عكا بأنهم آووا أربعة من مماليكه ، وأنه عندما طلب تسليمهم له طلب الافرنج بعض الامتيازات مقابل ذلك ، وعندما رفض طلبهم نصروهم

---

(١) في أوائل محرم (سبتمبر ١٢٦٨) مثلا أعطى بيبرس أوامره للجند للتدرب على رمي السهام والرماح ، واتبع ذلك برحلة صيد قام بها للتدرب على استعمال السلاح . الروض ١٢٦ .

(١) الروض ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) شرحت عوارض مرضه للأطباء ، فوضعوا العلاج دون أن يسمح لهم برؤيته . وقبل أن يترك بيبرس معسكره في رحلته السرية هذه سمح للأمراء في أن يدخلوا عليه ، وأن يروه وهو يعاني من المرض الذي ألم به . الروض ١٢٨ .

فاقتص بيبرس من الافرنج بأن سجن رسلهم ، وأغار على بلادهم(١) ، ولم تنج صور من غضبه ، وذلك لأنه في تاريخ سابق رفض صاحبها أن يعاهد حسب مشروع معاهدة كان بيبرس قد أعده ، وبدلا من ذلك عاهد حسب مشروع معاهدة أعد شروطه هو ، ولم يحتو إلا على بعض الشروط التي وضعها بيبرس . وقد جد أمر جديد الآن أضافه بيبرس على ما تقدم ، وهو أن امرأة شكت إلى بيبرس أنها وابنتها كانتا أسيرتين في صور ، وأنهما فدتا نفسيهما ، وسمح لهما أن يغادرا صور ، فلما تركتا ، ووصلتا إلى جوار صفد أجبر الافرنج الفتاة على العودة إلى صور ، وهناك نصروها . وقد أخبر بيبرس أيضاً بأن صاحب صور قد اعتقل عدداً من الرجال كان قد أمسكهم في أراضي بيبرس ، وأن اثنين منهم قتلا ، وأن البقية سجنت ، فلما طلب بيبرس إطلاق سراح الفتاة ، تعذر الافرنج بأنها تنصرت ، أما الرجال فرفضوا تسليمهم . لكل هذا أصدر بيبرس أوامره بالغارة عليهم . ثم أمر بقطع الميرة عنهم ، وأن تصادر منتجات الأراضي المحيطة بهم (٢) .

(١) الروض ١٣٠ .

(٢) الروض ١٣٠ .

خطر افرنجي جديد

١ - أتباع ملك أراجوان في الشام :

قضى بيبرس جزء من العام التالي وهو عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩ - ٧٠م) في توجيه بعض نشاطه الحربي ضد الافرنج والاسماعيلية . وقد وصل صدى نجاحه المتواصل ضد الافرنج إلى أوربا ، فعزم الملك جيمز الأول ، ملك أراجون ، على أن يبحر إلى الشرق ، فغادر برشلونه في الثامن من محرم (أول سبتمبر) ، ومعه جيش كبير ، وقابلت أسطوله عاصفة عاتية ردته وجزء كبير من جيشه . ولم يستطع أن يواصل الرحلة إلى عكا إلا جزء صغير من جيشه ، وكان على رأس هذا الجزء ابنيه غير الشرعيين : فرناندو سانشز وبدرو فرنانديز(١) .

وفي ربيع الأول (أكتوبر - نوفمبر) ، بينما كان بيبرس في مصر ، سمع بأن فرقاً من جيش ملك أراجون قد وصلت إلى عكا ، وأن هناك هجوماً موحداً سوف يقوم به الافرنج والتتار في وقت واحد على أراضي بيبرس(٢) . وفي الوقت الذي وصلته فيه هذه الأخبار هاجم التتار الساجور ، قرب حلب ، واستولوا على بعض مواشي الأعراب في تلك المنطقة(٣) .

سار بيبرس في الحال إلى الشام ، وأخذ معه جزء من جيشه ، ورتب أن تذهب أجزاء أخرى إلى حدود الشام ، وتبقى بعض الفرق في مصر للاستفادة منها لو احتاج الأمر . ووصل إلى دمشق في السابع من ربيع الثاني (٤ ديسمبر ١٢٦٩م) .

ويبدو أن وصول حتى هذه الفئة القليلة من أوروبا قد رفع الروح المعنوية لدى الافرنج في عكا ، فهم ، زيادة عن أنهم دعم أكيد لقوتهم ،

---

(١) الروض ١٣٩ ورنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣/٣٣٠ - ٣١ .

(٢) الروض ١٣٨ .

(٣) الروض ١٣٨ وابن خلدون العبر ٥/٣٩٠ .

قد رفعوا أمل الافرنج بالأخبار التي جلبوها معهم عن حملة ملك أراجون . وقد وصف محي الدين فرحتهم بأنها بلغت بهم أنهم خرجوا من عكا مع الوافدين الجدد ، ونصبوا معسكرين خارج المدينة . وقد سمعوا بوصول بيبرس إلى الشام ، ولكنهم لم يكونوا يتصورون أنه يهاجمهم وليس معه إلا هذه القوة الصغيرة . وقد يكون ما ذكره محي الدين عن فرحتهم بالقادمين الجدد صحيحاً ، ولكن قد تكون الحقيقة غير ذلك ، فقد يكون الافرنج في عكا قد أجبروا على مجاراة الافرنج الجدد ، ومشاركتهم شعور الحماس الذي قدموا به ، واضطروا إلى إظهار فرحة هي في الحقيقة مصطنعة ، وأن يتخلوا عن سياسة الحذر التي اعتادوا عليها مع بيبرس ، وهي ثمرة خبرة سنوات طويلة .

والمسؤولون من الافرنج في الشام يعرفون جيداً قوة عدوهم ، وضعف موقفهم أمامه ، ولكن الوافدين الجدد كثيراً ما يحرجونهم ، فهم إذا تركوا سياستهم ، رغم إيمانهم بها ، ونزلوا عند رغبة هؤلاء الذين وصلوا حديثاً ، بما يمتلئون به من حيوية ونشاط ، وروح عالية ، فهم يعلمون ، بصورة قاطعة ، أن أمرهم سينتهي بهم إلى كارثة تحل بهم . أما إذا قاوموا رأي الوافدين الجدد ، وروحهم المتوثبة ، وخططهم الغريبة عن هذه المنطقة ، وأصروا على خططهم التي ألفوها ، فإن هؤلاء سوف يتهمونهم بالتقاعس والجبن ، وعدم الحرص على بلوغ الهدف . وقد ينفرد هؤلاء بمعالجة الموقف ، فتأتي النتيجة أسوأ ، ويتحمل سكان عكا وما جاورها نتائجها . ويبدو أن هذا هو الوضع القائم الآن بسبب هؤلاء الوافدين الجدد إلى عكا ، وأن روح السكان المعنوية لهذا قد ارتفعت بشكل لم تستطع معه السلطة إلا أن تخضع لهذا الشعور العام . ولعل الافرنج القدامى قدروا أنهم بمسايرتهم لهذا الشعور يستطيعون — على الأقل فيما بعد — أن يحدوا من غلواء شعور الصليبيين الجدد ، ومع هذا فعندما وقعت الواقعة ، ونزلت بهم الكارثة ، لم يستطيعوا أن ينقذوهم منها .

الموقعة بينه وبين الأفرنج :

وصل بيبرس إلى الشام متظاهرا أنه سيقوم برحلة صيد إلى مرج برغوث ، وكان في الحقيقة يخطط لهجوم على الافرنج ، وأكمل استعداداته ،

في الواحد والعشرين من ربيع الآخر (١٨ ديسمبر ١٢٦٩م) ، فتقدم للهجوم عليهم ، وأوقف فصيلة من جيشه كميناً لفريق من الافرنج ظن المسلمون أنهم قد ذهبوا للغارة على أراضي بيبرس ، وكان هؤلاء الافرنج في الحقيقة هم الفوقة الفرنسية ، وعلى رأسها أوليفر ترمز ، والسنشال روبرت كرسك ، وعند عودتهم وقعوا في الفصيلة التي وضعها بيبرس كميناً لهم . وذكر محي الدين أن أوليفر نفسه كان قد كمن لجيش المسلمين إلا أنه وجد نفسه محاطاً بالجيش الإسلامي . وكان القتال شديداً وتماسك الناس فيه بالأيدي ، وانتهى الأمر بهزيمة الافرنج هزيمة تامة . وقد قتل في هذا القتال أخو أوليفر ، وابن أخ ملك أراجون ، ووقع عدد من فرسانهم البارزين في الأسر ، وكان عدد الأسرى عالياً . وقيل أنه لم يؤسر مثل هذا العدد إلا في وقعة المنصورة(١) .

كانت هذه الوقعة مهمة ، لأنها أوقفت نشاط الصليبيين الجدد ، وأكدت لبيبرس أنه لو أراد أن يقوم بنشاط حربي آخر ضد الافرنج في الشام فإن بإمكانه أن يقوم به دون أن يخشى تدخلا من الجهات الأخرى . وكان ينوي أن يهاجم المرقب ، فبقي في حمص منتظراً تحسن الطقس ، إلا أن الطقس لم يتغير ، وأجبره الجو الممطر أن يتراجع مرتين كلما هم بالمهاجمة . وقد استفاد من وقته في مناورات قام بها على حصن الأكراد ، ولعل الغرض الرئيسي كان للاستكشاف ، تمهيداً لأخذها في المستقبل ، وترك خيل المسلمين ترعى في مراعي الحصن ، إضعافاً له ، وتمهيداً لأخذه .

٢ ــ حملة الملك لويس الصليبية :

انشغل بيبرس بأمر الاسماعيلية فترة من الزمن ، ولكن أخباراً وردت عن عزم الصليبيين على القيام بحملة لم تعرف وجهتها أقلقته . وعلم أن قائد الحملة هو ملك فرنسا لويس التاسع ، فخشي أن تكون وجهة الحملة مصر فغادر الشام إليها في أواخر رجب ٦٦٨هـ (٢٥ مارس ١٢٧٠م) واهتم اهتماماً خاصاً بتقوية الموانيء المصرية ، وتأكد من تخريب أسوار عسقلان القوية ، وكان القديس لويس قد استفاد منها في حملة سابقة(٢) .

---

(١) الروض ١٣٩ ورنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣٣١/٣ .

(٢) الروض ١٤٣ وفي النجوم تفاصيل عن الاحتياطات التي اتخذت ١٤٩/٧ .

في هذه الفترة كان أبغا منشغلا في الشرق ، معطياً بيبرس بذلك فرصة ليقوي نفسه إلى الحد الذي أزعج أبغا ، مما جعله يفكر في التحالف مع البابا ، فيرسل إليه بعثة لهذا الغرض ، وهذه محاولة لمحاربة بيبرس بالسلاح الديبلوماسي ، وهو السلاح الذي سبق أن استعمله بيبرس معه عندما اتصل ببركة ، رأس القبيلة الذهبية ، وألبه ضد الأيلخانات . وقد أرسل البابا بعثة أبغا هذه إلى فرنسا وانجلترا وأسبانيا . وما سمعه الآن بيبرس عن الحملة الجديدة كان نتيجة هذه المساعي من أبغا(١) .

كانت الحملة الصليبية موجهة ضد بيبرس ، إلا أن شارلز أوف انجو ، أخو القديس لويس ، كان صديقاً لبيبرس ، ويعتقد أنه سعى ليحول مجرى الحمله إلى ما يخدم مصلحته هو ، فعلاقته مع حاكم تونس كانت سيئة ، وشارلز يتهم حاكمها أنه في عام ١٢٦٧م (٦٦٦هـ) آوى ثوار صقلية وأعانهم ، ولهذا فأخذ تونس يشفي غله ، ويمكن أن يعتبره الآخرون الخطوة الأولى لأخذ مصر(٢) . وهناك أيضاً حادثة لعل شارلز استفاد منها لتحقيق غرضه في تحويل الحملة الصليبية إلى تونس ، ذلك أن حاكم تونس قد طالب عدداً من تجار الافرنج بدفع ضرائب على بضائعهم ، فقاموا بتزوير بعض النقود التونسية ، ودفعوها من جملة ما دفعوا من الضرائب ، فلما اكتشف حاكم تونس هذا الغش اعتقل الجنويه ، وهم من أغنى تجار الافرنج ، وصادر ممتلكاتهم ، فطلب الجنويه مساعدة لويس على حاكم تونس لما جرى منه عليهم(٣) .

بقي بيبرس ستة شهور تقريباً في حالة استعداد يترقب ظهور الحملة الصليبية ، وجمد لذلك نشاطه الحربي في الشام مؤقتاً . وأخيراً في محرم من عام ٦٦٩هـ (أغسطس — سبتمبر ١٢٧٠م) وصلته الأخبار بأن القديس لويس نزل على تونس ، وهزم حاكمها . وبينما بيبرس يستعد لمساعدة حاكم تونس بلغه ما سره ، وهو موت ملك فرنسا(٤) ، وانسحاب جيوشه(٥) .

---

(١) م . برون ، امبراطورية المغول ص ٣٧٠ .

(٢) بويك ، الملك هنري الثالث واللورد ادوارد ٥٩٨/٢ .

(٣) اليونيني ، الذيل ٤٥٥/٢ .

(٤) مات في الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠ (٦٦٩/١/٦ هـ) جوانفيل ٢١٦ — ٢١٧ .

(٥) الروض ١٤٥ .

حملة بيبرس الرابعة الكبرى وبعض نشاطه

١ – الهجوم على طرابلس :

بعد أن علم بيبرس بما انتهت إليه الحملة الصليبية على تونس أصبح بإمكانه أن يكمل العمل الذي بدأه ضد الأفرنج ، واضطر إلى ايقافه لما بلغته الأخبار عن الحملة الصليبية . وفي العاشر من جمادى الآخرة (٢٤ يناير) غادر بيبرس مصر إلى الشام ، وهناك أمر بشن الغارة على مناطق طرابلس ، لعله أراد بهذا أن يخدم غرضين . الأول : إضعافها ، والثاني : إيهام صاحبها أن بيبرس يخطط لهجوم شامل عليها ، وهذا سوف يجعل صاحبها يفكر في مصير مدينته بدلا من أن يفكر في نجدة الآخرين مثل حصن الأكراد الذي هو الآن في الحقيقة هدف بيبرس .

٢ – الاستيلاء على صافيثا :

صافيثا هي حصن الديرية ، وكانت حصناً قوياً ، ذا موقع مسيطر على المنطقة ، وبواسطته يمكن الضغط على طرابلس ، وقد حاصرته الآن جنود بيبرس ، وكان عدد حاميته سبعمئة رجل تقريباً ، فأبدوا بعض المقاومة ، ولكنهم في النهاية وافقوا على أن يسلموا الحصن ، نزولا على رأي رئيسهم ، وبعد الاستسلام أوصلوا إلى مأمنهم .

٣ – سقوط حصن الأكراد :

لم يبق أمام بيبرس إلا الهدف الأساسي من رحلته ، وهو الاستيلاء على حصن الأكراد ، وهو حصن الاسبتارية المشهور . بدأ بيبرس أولا بتشعيث نواحي طرابلس ، ثم حاصر حصن الأكراد في التاسع من رجب (٢١ فبراير) وفي العشرين من الشهر (٤ مارس) نصب عدداً من المنجنيقات وفي السابع من شعبان (٢١ مارس ١٢٧١م) سقطت الباشورة ، فركز القتال على القلعة ، فتشقق في السادس عشر من شعبان أحد أبراجها ، فلجأ الافرنج إلى القلعة فاستولى المسلمون على الأبراج ، وشددوا القتال

على القلعة ، فاستسلم الافرنج ، وخرجوا يوم الثلاثاء ٢٤ من شعبان (٧ أبريل) ، فأوصلوا آمنين إلى الأراضي الافرنجية .

أضاف سقوط حصن الأكراد إلى سمعة بيبرس سمعة جديدة ، لأن المعروف عن هذا الحصن أنه قد قاوم هجوم الحكام السابقين ، ومن بينهم صلاح الدين ، فبيبرس بالاستيلاء عليه قضى على المعقل الحصين للاسبتاريه ، وأصبح يستطيع به أن يعزل طرابلس ، وأن يضيق عليها ، وسيكون الاضرار بها هو هدف خطواته المقبلة ، فيستولي على مزيد من الحصون ليضعف طرابلس .

٤ ـ عقد اتفاق مع الديرية والاسبتارية :

انتهز بيبرس فرصة وجوده في هذه المنطقة ، فأجرى محادثات مع الديرية أصحاب انطرسوس ، والاسبتارية أصحاب المرقب ، وانتهت هذه المحادثات بمعاهدة اعترف بيبرس فيها بحق الديرية على انطرسوس ، وحق الاسبتاريه على المرقب ، على أن يسلموا البلدة مقابل ذلك ، هي وما يتبعها ، وكل الأراضي التي أخذها الديريه والاستباريه في أيام الملك الناصر . وعليهم أيضاً أن يتخلوا عن حصتهم في خراج تلك الأراضي ، وكان قبل ذلك يقسم بينهم وبين المسلمين . وأكدت المعاهدة على الافرنج عدم تحصين المرقب(١) .

ورغم ما يبدو من عدم التكافؤ في هذه المعاهدة ، إلا أن الافرنج في الغالب وقعوها بنفس راضية ، إذ لابد أنهم كانوا في رعب مما كان ينوي بيبرس أن يقوم به ومعه في الشام هذا الجيش اللجب ، وما تنازل عنه الافرنج ، رغم ضخامته ، هو أقل ضرراً عليهم من الضرر الذي يمكن أن يحدثه بيبرس فيما لو أخفقت المفاوضات .

٥ ـ فتح حصن عكار :

بعد أن استولى بيبرس على حصن الأكراد ، وفي نشوة النصر ، قرر أن يتبع هذا بأخذ حصن عكار ، وكان محصناً تحصيناً جيداً ، وموقعه العالي ، في رأس الجبل ، يزيد من قوته ، ويلفت محي الدين النظر إلى أنه كان مصدر أذى كبير لأراضي بيبرس ، فالمتسللون منه ينزلون ،

---

(١) الروض ورقة ١٤٧ .

ويهاجمون المسلمين ، ثم ينسحبون بسلام إلى حصنهم المنيع إذا ما طوردوا . وفي السابع عشر من رمضان (٢٩ أبريل) حاصر بيبرس الحصن ، وفي آخر يوم من الشهر (١٢ مايو) استسلم الحصن ، وأوصلت حاميته إلى مأمنها(١) .

٦ ــ عقد معاهدة مع بوهمند :

استمرت غارات بيبرس على طرابلس ونواحيها ما أمكن ذلك ، وكان الغرض من هذه الغارات إضعاف قوة بوهيمند ، وتمهيد الطريق لأخذ المدينة نفسها في المستقبل . ويبدو أن بيبرس كان في موقف يسمح له بأن يهاجم طرابلس هجوماً عاماً يحاول به أخذها ، لأنه يتوقع أن تكون روح الافرنج قد خارت بعد الضربات العديدة التي وجهها إليهم . أما روح جيشه المعنوية ، فكانت في الذروة من الارتفاع ، لأنه زيادة عن أنه قد انتصر في حركاته في الفترة الأخيرة ، فإنه قد وصلته أيضاً أخبار مشجعة في شعبان تفيد أن الحملة الصليبية الموجهة إلى تونس قد عادت أدراجها إلى أوروبا(٢) . وبيبرس يتوقع أيضاً أن روح بوهيمند المعنوية لابد أنها تأثرت بما أبرمه بيبرس أخيراً من اتفاقيات مع الديريه والاسبتاريه عن انطرسوس والمرقب . وفي هذا ما يعفي بيبرس من الخوف من أي تدخل في تلك الجهات إذا هو هاجم منطقة طرابلس .

لقد غادر بيبرس معسكره في الأرزونية في الرابع من شوال (١٦ مايو) وترك الاثقال هناك ، واتجه نحو طرابلس بسلاح خفيف ، ولعله كان يؤمل أن يفاجىء طرابلس فيطوقها قبل أن يحضر بقية الجيش لمحاصرتها ، إلا أن مخططه توقف لأن أخباراً وصلته بأن ادوارد ، الأمير الانجليزي ، قد وصل إلى عكا ، وكان ذلك في رمضان (١٢ مايو)(٣) .

٧ ــ حملة إدوارد الصليبية :

المفروض أن ينضم الأمير ادورد إلى الحملة الصليبية السائرة إلى تونس ، ولكنه وصل إلى هناك متأخراً ، فلم يشترك فيها ، فاتجه إلى الشرق حتى

---

(١) الروض ورقة ١٤٨.

(٢) الروض ورقة ١٤٩ .

(٣) الروض ورقة ١٤٩ .

ير بيمينه(١) . ويبدو أن وصوله في هذا الظرف أنقذ طرابلس من الخطة التي أعدها بيبرس لأخذها ، ومع هذا فقد عرض بيبرس على بوهيمند شروطاً مذلة ، ورفضها بوهيمند(٢) ، مما اضطر بيبرس ، وقد بلغته أخبار ادورد ، أن يخفف شروطه . وقد أدرك بوهيمند مدى أثر وصول ادورد على بيبرس ، فطمع في شروط أفضل مما عرض مؤخراً ، إلا أن بيبرس هدد أن يشعث أراضيه ، وربما كان بإمكان بيبرس تنفيذ هذا التهديد .

انه من الصعب أن يعرف شعور بوهيمند الحقيقي تجاه مجيء ادرود ، والأمل الذي ربما كان أمله من هذا المجئ ، وربما كان مسروراً داخلياً للعرض الذي قدمه بيبرس مؤخراً ، لأنه لم يكن متأكداً من الكسب الذي سوف يجنيه من التعاون مع ادورد ، لأنه تعود مثل غيره أن يجد أن الصليبيين الجدد غالباً ما يجلبون الأذى للافرنج المتوطنين الذين ، عادة ، يقع عليهم عبء القتال بعد أن يعود هؤلاء الوافدون الجدد إلى أوربا .

لقد وقع بيبرس وبوهيمند معاهدة مدتها عشر سنوات ، وتفرغ بيبرس لمقابلة أي حركة قد يقوم بها ادورد . وأصبح باستطاعته الآن أن يستولي على بعض الحصون التي كان من الأساس ينوي أن يقوم بالاستيلاء عليهـــا(٣) .

٨ ـ إحتلال القرين :

كان القرين الحصن الوحيد في الساحل للفرسان التيوتونيين ، وكان من أكثر الحصون مناعة في هذه المنطقة ، وكان يهدد صفد تهديداً عظيماً ، ولهذا قرر بيبرس أن يحاصره ، ثم استولى في أول يوم من شهر ذي القعدة (١١ يونيه) على المدينة الخارجية . وفي اليوم الثاني سقطت الباشورة ، فاضطرت حاميته إلى التسليم ، وأرسلت إلى مأمنها(٤) .

---

(١) بويك ، الملك هنري الثالث ، ٥٩٩/٢ .

(٢) مفضل ، النهج السديد ، ٥٣٥/١ .

(٣) الروض ورقة ١٥٠ ، ومفضل ، النهج ٥٣٤/١ .

(٤) الروض ١٥١ .

٩ ـ محاولة للهجوم على قبرص :

بعد أن قام بيبرس بما قام به ، ووصلت حالة الافرنج إلى ما وصلت إليه في الشام ، أصبح بإمكانه أن يعود إلى مصر . وتوقع أن يهاجم أفرنج عكا جيوشه في طريق عودتهم إلى مصر ، ولهذا أمر الأسطول الإسلامي ، وكان مكوناً من ١٧ سفينة ، أن يبحر لمهاجمة قبرص . وقد توقع أن تساعد قبرص ادورد في عكا . لهذا رأى أن في هجوم أسطوله على قبرص ما يصرف نظر افرنج عكا عن القيام بهجوم في البر ، وسوف يتمكن جنده ليس فقط من المرور بأراضي عكا بسلام ، بل ربما أحرزوا نصراً على عكا نفسها ، حيث يقيم الأمير ادورد . إلا أن أسطول بيبرس انكسر في ميناء النمسون في قبرص ، ولم ينج منه إلا ست قطع عادت سالمة(١) .

١٠ ـ المعاهدة مع صور :

دارت مفاوضات ، عندما كان بيبرس قريباً من صور ، وقبل أن يعود إلى مصر ، بينه وبين صاحبها ، انتهت فيما بعد باتفاقية بينهما ، توجب إبقاء عشر قرى من أراضيها لهم ، وتعطي بيبرس الحق في اختيار خمس أخرى ، ويقسم ما يبقى من قراها مناصفة بينهما . ولعل وجود الأمير ادورد في الشام كان السبب في السرعة في إبرام هذه الاتفاقية ، لأن بيبرس كما يبدو كان يسعى إلى حجب جميع مصادر المساعدة عنه . وصاحب صور ، مثل صاحب طرابلس ، قد سره أنه استطاع أن يبرم مثل هذه الاتفاقية ، لأنها معقولة(٢) ، وسوف تعطيه حجة في عدم مساعدته لادورد إذا ما طلب منه ذلك(٣) .

١١ ـ عودته إلى مصر :

وصل بيبرس إلى مصر في الثاني عشر من شهر ذي الحجة (٢٢ يوليه) ، فانتهز الافرنج في عكا فرصة سفره فأغاروا على منطقة الشاغور والبعنه ، في العاشر من ذي الحجة (٢٠ يوليه) ، ونهبوا بعض المحصولات ، وأحرقوا بعضها(٤) .

---

(١) الروض ١٥١ ومفضل ، النهج ، النهج ١/٥٤١ .

(٢) هذا إذا ما قيست بالاتفاقيات التي اعتاد بيبرس أن يطلب عقدها معهم .

(٣) الروض ١٥٣ . (٤) الروض ١٥٢ .

١٢ – سفره إلى سوريا :

قرر بيبرس ، في أوائل عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) أن يسافر إلى سوريا . ويبدو أن هناك على الأقل أربعة أسباب أوجبت سفره : الأول اعتداء الافرنج في عكا على أراضيه(١) ، والثاني أنه وصلته أخبار عن عزم بعض رؤساء القبائل الهرب إلى التتار ، لأنه أخذ أبناءهم رهائن ، والثالث ما سمعه من أن التتار يقومون باستعدادات حربية ، والرابع أن لديه أعمالا مع الاسماعيلية لم ينهها بعد(٢) . هذه الأمور كلها تستدعي رعايته التامة ، لهذا غادر مصر في السابع والعشرين من محرم عام ٦٧٠هـ (٤ سبتمبر ١٢٧١م) . وقد أخرته ، في الطريق ، بعض الأعمال الادارية ، فلم يصل إلى دمشق إلا في ١٣ من صفر (٢٠ سبتمبر) . وأول ما بدأ به إنهاء موضوع القبائل العربية التي تنوي الالتجاء إلى التتار ، ثم التفت إلى المفاوضات مع الاسماعيلية(٣) .

٣ – التحالف بين الأفرنج والتتار :

هجـــوم التتار :

لقد أدرك الأمير ادورد ، منذ أن وطئت قدماه أرض الشام ، أنه لن يدرك نجاحاً على بيبرس ، ما لم يضمن مساعدة التتار ، ولهذا أرسل بعثة تطلب من أبغا مساعدته . وكان أبغا عندما وصلته البعثة منشغلا في قتال مع التتار الآخرين في الشرق ، فوعد أنه سوف يرسل جيوشاً لمساعدته في أول فرصة يتمكن فيها من ذلك(٤) . وكانت الأخبار التي وصلت إلى بيبرس عن استعداد التتار الحربي لمهاجمة بلاده تعني هذه المساعدة التي وعد بها أبغا الأمير ادورد . وقد قام التتار فعلا ، في الخامس عشر من ربيع الأول (٢١ أكتوبر) بهجوم على أراضي بيبرس ، وتوغلوا إلى حارم(٥) ، فأسرع بيبرس بارسال جيش لصد المغيرين ، فانسحب التتار لأن القوة التي أرسلوها لم تكن إلا قوة مغيرة لا تستطيع أن تصمد أمام الجيش الإسلامي(٦) .

---

(١) الروض ١٥٣ . (٢) الروض ١٥٦ .
(٣) الروض ١٥٥ .
(٤) بويك ، الملك هنري الثالث ، ٦٠١/٢ – ٢ .
(٥) الروض ١٥٦ . الروض ، ٥٦ – ٥٧ .

هجـــوم الأفرنج :

هاجم الأمير ادورد قلعة قاقون بمجرد أن سمع أن التتار هاجموا أراضي بيبرس في الشمال ، وأن بيبرس قام باستعدادات كبرى لصد هجوم التتار . ويبدو أن أدورد أحرز بعض النجاح في أول الأمر فمثلا قتل في المعركة أستاذ دار بيبرس ، واثنان من قواده ، ولكن جيشه في قاقون بمساعدة جيش من عين جالوت استعاد مركزه ، ورد الافرنج على أعقابهم ، وركب ساقتهم ، وارتجع منهم بعض التركمان الذين كانوا قد أسروهم من قبل(١) .

وقد وصلت أخبار هجوم الافرنج على قاقون إلى بيبرس في نهاية ربيع الثاني (٤ ديسمبر) ، فتحرك بسرعة ، وبطريقة سرية جنوباً إلى دمشق ، أملا في أن يفاجيء افرنج عكا . ولكن المطر الغزير عاقه ، فقرر أن يعيد نوابه إلى مناطقهم ، وعاد هو إلى مصر ، فوصل إلى قلعتها في ٢٣ من جمادي الأولى (٢٦ يناير ١٢٧٢م)(٢) .

الانتقام من الأفرنج :

بلغ بيبرس أن هناك خطراً آت من التتار يهدد بلاده ، فتوجه في الثالث من شعبان ٦٧٠هـ (٥ مارس) إلى الشام ، ونصب معسكره في الرياض التي بين قيصريه ، وأرسوف(٣) ، ومن هناك أخذ يوجه الغارات على أراضي عكا(٤) ، انتقاماً من الافرنج لغارتهم على قاقون في أوائل العام .

الصلح مع عكا :

ترك انسحاب التتار الافرنج وحيدين أمام انتقام بيبرس ، إلا أن مجرد وجود ادورد في عكا ربما جعل بيبرس يعتقد أن ما قد يأتي من التتار من هجوم سوف يكون خطيراً ، لأنه سوف يضطر أن يقاتل على جبهتين ،

---

(١) الروض ١٥٧ .

(٢) الروض ١٥٨ .

(٣) الروض ١٥٨ .

(٤) الروض ١٥٨ .

وعكا هي البلدة الافرنجية الوحيدة التي بقيت دون أن يكون لبيبرس معها اتفاقية . ففكر أنه إذا استطاع أن يبرم معها اتفاقية فسوف يتمكن من توجيه كل قوته إلى التتار . هذه الفكرة عند بيبرس سهلت مجرى المفاوضات مع أفرنج عكا ، وأسرعت بإبرام اتفاقية في ٢١ رمضان (٢١ أبريل) ، اعترف فيها بيبرس بسلطة الافرنج على ثمان ضياع ، مع اثنتي عشرة ضيعة أخرى كان قد اعترف بها لهم من قبل . واعترف أيضاً بتبعية شفرعم لهم ونصف اسكندرونه ، ونصف ضيعة تابعة لها . ومدة الاتفاقية عشر سنوات ، وعشرة شهور ، وعشرة أيام ، وعشر ساعات . وأعطى بيبرس عهده لملك عكا ، وحلف أيضاً لمقدمي بيوت الافرنج يميناً منفردة(١).

محاولة اغتيال الأمير إدوارد :

يذكر محي الدين أن ادورد لم يرضه أن يعقد الافرنج اتفاقاً مع بيبرس ، لهذا صمم بيبرس على القضاء عليه ليحول دون كيده ، وأمر واليه على الرملة أن يدبر اغتيال ادورد ، فاتفق الوالي مع فدائي قام بالهجوم عليه في السادس عشر من يونيه ، فأصابه بخمسة جراح ، ولكن ادورد لم يمت ، وبمجرد أن برئت جراحه ، وأصبح قادراً على السفر ترك الشرق في ١٥ صفر (٢٢ سبتمبر ١٢٧١)(٢) .

إحتلال القصير :

لم يقم بيبرس ، منذ هذا الوقت حتى وفاته ، بأي هجوم كبير على الافرنج . والاحتلال الوحيد الذي قام به في هذه الفترة هو استيلاؤه على القصير .

---

(١) الروض ١٥٨ .

(٢) الروض ١٥٩ وبويك ، الملك هنري الثالث ٦٠٣/٢ . وبعض المؤلفين يرى أن ادوارد أدرك أنه لن يضيف كثيراً إلى المسيحية عن طريق الحرب ، وأن إبرام اتفاقية مع بيبرس سوف ، على الأقل ، تطيل بقاء المسيحيين قليلا . والسبب الذي أدى إلى محاولة الاغتيال هو ما فهم من أن ادوارد ينوي العودة إلى الشرق بجيش كبير ، إذا فقتله سوف يقفل باب هذا الخطر . راجع رنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣٣٧/٣ – ٨ .

وقد أشير سابقاً إلى علاقة بيبرس بصاحب القصير ، وقد آن الأوان لبيبرس أن يأخذها ، لأن موقعها يهدد منطقة الفوعه ، أما المبرر الذي ساقه محي الدين عن أخذها فهو أن السلطة فيها غشت بيبرس عند تقسيم محصول أراضي القصير ، والمعاهدة المبرمة سابقاً تعطيه الحق في نصف ريعها(١) ، وأن أهلها باعوا خمراً على جند بيبرس عندما كان في طريقه لغزو سيس ، رغم التنبيه عليهم بألا يفعلوا ذلك ، وأنهم احتفلوا على شرفات القصر بوصول التتار إلى حارم ، ونصبوا أنفسهم مرشدين لهم . وفي ١٥ شوال ٦٧٣هـ (١٣ أبريل ١٢٧٥م) قبض على حاكم القصير بحيلة وشدد الحصار على الحصن حتى استسلم في ٢٣ جمادى الأولى ٦٧٤هـ (١٤ نوفمبر ١٢٧٥م) بعد أن نفذ ما في خزائنه(٢) .

النزاع على اللاذقية وبيروت :

شملت علاقة بيبرس مع الافرنج في هذه الفترة جهتين . الأولى : اللاذقية ، والثانية بيروت . فبيبرس كان حريصاً على استرداد قلاع المسلمين من الافرنج ، ويعطى الأولوية منها ما كان أخذ الافرنج له حديثاً ، فاللاذقية استولى عليها بوهيمند في غياب حاكمها(٣) أثناء هجوم التتار على مملكة الناصر في الشام(٤) ، ولهذا لم يعتبرها بيبرس داخلة في المعاهدة التي أبرمها مع بوهيمند ، وطلب في عام ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) من بوهيمند السابع ، ابن صاحبها السابق ، أن يسلمها(٥) . ويعطي « شافع » صورة أوضح عن الوضع عندما يذكر أن بيبرس اكتشف بعد أن أبرم المعاهدة مع بوهيمند أن اللاذقية قد أخذها الافرنج عندما زحف التتار على الشام(٦) . وكان

---

(١) انظر الروض ورقة ١١٨

(٢) الروض ١٨٠ – ١٨١ .

(٣) الروض ١٨١ .

(٤) شافع ، حسن المناقب ، ١٣٨ .

(٥) الروض ١٨١ .

(٦) شافع ، حسن المناقب ، ١٣٨ .

بوهيمند نفسه قد مات في التاسع من رمضان (٨ مارس)(١) . وقد أفزع هذا الطلب حكومة اللاذقية ، فاتخذت الاحتياطات لتحصينهاإلا أن الأمر سوى في النهاية بوساطة هيو الثالث ، ملك قبرص . ولم يتر هذا الأمر إلى أن تم استردادها بعد وفاة بيبرس(٢) .

أما بيروت فإن الأميرة إزابيلا ، وهي ابنة جون أوف إبلين ، والوارثة لبيروت ، وكانت قد تزوجت في أكتوبر ١٢٧٢م هامو لاسترانج ، أحد بارونات الأمير ادورد . ولأن هامو لا يثق بالملك هيو ، وضع ، قبل موته ، زوجته واقطاعها في حماية بيبرس(٣) . ولهذا عندما سمع بيبرس أنها نقلت إلى قبرص نبه الملك هيو إلى أنها في حمايته ، وأنها اعتادت عندما تعزم على السفر إلى أي مكان أن تترك بلادها تحت رعايته . وحيث أنها لم تخبره في هذه المرة عن أنها تنوي السفر ، فقد داخله الشك ، وطلب المبادرة بإعادتها إلى بيروت ، ليتمكن ممثله من مقابلتها ، وإذا لم يتم هذا فإن لبيبرس الحق في وضع يده على اقطاعها .

وقد أثار هذا الطلب دهشة هيو ، وهو الحريص على إبقاء العلاقات الطيبة بينه وبين بيبرس ، واتهم الديريه بمساعدة بيبرس عليه(٤) . وكان هيو قد أبعد إيزابيلا عن ملكها لما تحقق على زوجها من ديون(٥) . ولما ذكر هيو بيبرس بأن بيروت داخلة في الاتفاقية التي عقدها معه ، رد بيبرس بأن بينه وبين بيروت معاهدة ، وقد أحيل النزاع فيما بعد إلى اللكاط البابوي (نائب البابا في عكا) لمعرفة الرأي المسيحي الديني في هذا الأمر ،

---

(١) شافع حسن المناقب ١٣٨ ، أما النويري فيذكر أن الاتصال تم بين بيبرس وبوهمند أثناء حياة بوهمند ، النهاية ٨٩/٢٩ .

(٢) شافع ، حسن المناقب ١٣٨ .

(٣) يذكر محي الدين أن هامو مات « جوا البحر » أي أنه كان خارج الشام وفي الغالب في أوروبا . الروض ١٨٢ .

(٤) الروض ١٨٢ .

(٥) شافع ، حسن المناقب ، ١٣٨ .

ولم يتم في أمرها شيء حتى استولى السلطان خليل بن قلاوون عليها فيما بعد ، أيام حكمه(١) .

عدا هذه الأمور المحدودة لم يحدث تقريباً بين بيبرس وبين الافرنج أي نزاع في هذه الفترة التي بقيت من حياته ، وكانت الأمور في أراضي الافرنج تسير في الطريق المتفق مع مصالحه ، فماريا صاحبة أنطاكية قد نازعت هيو الثالث أحقيته في عرشه ، وادعت أحقيتها لملك القدس ، وعندما لم تنجح حجتها في الشام سافرت إلى أوروبا ، فلقيت عطفا على قضيتها من البابا جورج العاشر ، ومساندة تامة من شارلز أوف أنجو . وقد اتفق فيما بعد على أن تبيع ماريا ما تطالب به من حق في مملكة القدس إلى شارلز ، مما جعله يبادر بالتلقب بهذا اللقب(٢) ، ويرسل نائباً عنه إلى الشام هوروجرز أوف سفرينو ، كونت أوف مارسيكو ، ومعه قوة عسكرية ، استطاع معها أن يثبت سلطة شارلز في عكا(١) . وهذا إجرا برضاه بيبرس ، لأنه يطمئن إلى ممثل صديقه شارلز أوف أنجو .

بعد أن وقع بيبرس كل هذه الاتفاقيات ، وأوصل أعداءه المقيمين على حدوده إلى هذه الحالة من الضعف ، ووطد علاقته مع الأشخاص الأقوياء في أوروبا وغيرها ، أصبح قادراً على أن يلتفت كلية إلى التتار واثقاً من استراتيجيته ، وقوته الحربية .

---

(١) شافع ، حسن المناقب ، ١٣٨ . انظر أيضاً ما ساقه رنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣٤٢/٣ من أن هيو اضطر إلى إعادة ايزابيلا إلى بيروت ، حيث وضع بيبرس حرساً من المماليك لحمايتها .

(٢) رنسمان ، تاريخ الصليبيين ، ٨٩/٣٨٢/٣ .

(٣) رنسمان ، تاريخ الصليبيين ، ٣٤٥/٣ — ٤٦ .

(د) علاقة بيبرس بالاسماعيلية

ما اتخذه بيبرس ضد الاسماعيلية قد يوحي بأنه حريص على أن ينظر إليه على أنه حام للسنّة ، إلا أن طبيعة الأعمال التي قام بها تجاه الاسماعيلية ، والهدف الحقيقي لها ، تنفي ذلك . ويبدو أن هدفه الحقيقي ليس خاصاً بالمذهب وإنما هو استراتيجي واقتصادي ، لأنه عندما تحقق له هذان الهدفان أوقف حركاته ضدهم .

كان يهدد حدود بيبرس عدوان خطيران : التتار والافرنج . ووجود الاسماعيلية داخل أراضيه يجعل منهم خطراً عليه ، ونشاطهم قد يكون دامغاً له فيما لو تحركوا في وقت يكون فيه منشغلا مع أعدائه(١) . ومع أنه لا يتوقع أن يتعاون الاسماعيلية مع التتار ، لما فعلوه معهم في بلاد فارس ، إلا أنهم سوف يساعدون الافرنج مساعدة تامة ، رغم تعاون الافرنج مع التتار عند مجيئهم إلى الشام ، وهو العمل الذي كان قد أثار ثائرة الاسماعيلية حينئذ . على أي حال لم يجازف بيبرس ، وسعى لعمل ما فيه صالحه ، ووجد أنه إذا أخضع الاسماعيلية ، وهم دافعوا جزية للافرنج ، فإن ذلك سوف يضيف إلى بلدانه بلداناً وقلاعاً جديدة ، وسوف يضرب فئة الاسبتاريه في سمعتهم واقتصادهم ، وأهمية الاسماعيلية لا تقتصر على الجزية التي يمكن أن يدفعوها ، وإنما تأتي أهميتهم أيضاً من المحصول التي تنتجه بلادهم . وزيادة على هذا فإنهم إذا لم يخضعوا ، فإن طرق تموين جيوش بيبرس لن تكون آمنة .

لو كان هدف بيبرس من سيطرته على الاسماعيلية هو محاربة الشيعة والانتصار للسنة لسعي للقضاء على مذهب الاسماعيلية ، وعذب اتباعه ، وأعلن عن ذلك ، لأن مثل هذا قد يكون خير عمل يرضي السنة(٢) .

---

(١) يقال أن بوهمند اتفق مع جماعة من الاسماعيلية على قتل بيبرس . الروض ١٤٦ .

(٢) ولن يكون مثل هذا هو الأول من نوعه ، فقد تعرض الاسماعيلية لمثل ذلك من قبل ، وفي أيام ملوك سابقين ، راجع مثلا : ابن الأثير ، الكامل ١٩٥/٩ ، ١١٦/١٠ ، ١١٩ ، ٢٦٠ .

إلا أن بيبرس لم يقدم على شيء من ذلك ، بل أن الملاحظ أنه قد أغضب الشافعية ، وهم أصحاب أكثر مذاهب السنة أتباعاً في مصر في ذلك الوقت؛ فالشافعية قد زادت أهميتهم في مصر بعد القضاء على الفاطميين ، فكان رئيس القضاء شافعياً ، ويعين نوابه في نواحي مصر ، إلا أن بيبرس عندما استولى على الحكم في مصر وجد أن الشافعية قد حصلوا على امتيازات اعتبرها الجميع من حقهم ، وكان بإمكان بيبرس أن يعضدهم ليكسب محبتهم ، إلا أنه بدلا من ذلك استرّجع منهم بعض ما لهم من اختصاصات فعين مثلا أربعة رؤساء للقضاة في مصر ، لكل مذهب رئيس قضاة ، وأصبح الشافعي واحداً من بينهم(١) . واعتبر الشافعية أن هذا تعد على حقوقهم .

ولعل بيبرس قد فكر أن إضعاف قوة الاسماعيلية سوف يزيد من سمعته ، لأنه نجح فيما أخفق فيه الحكام الذين سبقوه ، وهذا أقرب إلى أن يكون الواقع ، خاصة عندما نتذكر أن كاتب سيرته كثيراً ما يقارن بين انجازات بيبرس وانجازات صلاح الدين الأيوبي . وما قيل عن حب بيبرس إلى الاستماع إلى حوادث التاريخ يجعل المرء محقاً في اعتقاده أن بيبرس يؤمل في أن ينجح فيما لم ينجج فيه صلاح الدين . وهذا يؤكد أن عمله ضدهم حربي بحت ، وألا دخل له بمعتقداتهم .

لم بظهر بيبرس ، وهو سني ، أي شعور ديني ضد الاسماعيلية ، أمالأن العاملين : العسكري والاقتصادي هما المسيطران على علاقته معهم ، أو لأن مثل هذا الشعور الديني لم يقم أصلا(٢) .

لم يطلب بيبرس في يوم من الأيام ، على ما يظهر ، مساعدة حربية مباشرة من أي جهة غير مسلمة ، وهذا خلاف ما عمله من سبقه من الحكام

---

(١) شافع ، حسن المناقب ٧٩ .

(٢) والأمر الوحيد الذي ورد عن عقيدتهم في سيرته ، قد يكون ذكره المؤلف نتيجة لتحمسه هو ولم يكن وروده عن بيبرس نفسه .

المسلمين . واتصفت حركاته الحربية بروح الجهاد ، وطلب من الإسماعيلية تجهيز فرقة منهم مع جيوشه ، واستعان بفدائيين منهم ، مما يدل دلالة واضحة على أنه لا يكن أي شعور عدائي ضد معتقداتهم .

موقفهم معه عندما تولى الملك :

استولى التتار في عام ١٢٥٦/٦٥٤ على مركز قوة الاسماعيلية ، « الألموت » في فارس ، وعلى جميع قلاعها(١) ، وقد قتلوا شيخهم ركن الدين خورشاه ، وحطموا قوتهم . وكان تأثير ذلك على الإسماعيلية في سوريا عظيماً ، فزاد خوفهم من زحف التتار السريع غرباً ، وكان من الطبيعي في هذه الظروف أن يلين جانب الإسماعيلية لبيبرس ، فقد قام بجزء كبير من المجهود الذي أدى إلى هزيمة التتار في عين جالوت ، وأظهر العداوة للأفرنج ،وهم من صداقتهم للتتار سبق أن أغضبت الإسماعيلية . وفي هذه الفترة المبكرة لم يظهر من بيبرس أي تهديد لمصالح الإسماعيلية ، ولم يتبين منه طموح لأخذ أراضيهم .

أول اتصاله بهم :

كانت صلة بيبرس بالإسماعيلية في أول سنة من حكمه محدوده ، فكان هو منشغلا بتدبير أمور مملكته الداخلية ، وكانوا هم يرقبون مدى استطاعته الوقوف على قدميه ؛ فقد تقضي عليه الصعوبات التي واجهها في أول الأمر ، فلا يستدعي الأمر حينئذ إقامة علاقة تربطهم به . ولكنهم بمجرد أن أدركوا تمكنه من الحكم انتهزوا فرصة مجيئه إلى الشام عام ١٢٦٣/٦٦١ ، فأرسلوا بعثة من بين أفرادها ولد كبيرهم ، ومعه هدية ، رمزاً لصداقتهم ؛ فأكرموا، وأعيدوا إلي بلادهم(٢) .

اصطدامه معهم :

كانت الفترة التي تجاهل فيها بيبرس الإسماعيلية قصيرة ، فما أن وطد ملكه أصبح واضحاً للاسماعيلية أنه سيطول،وأن عليهم أن يقرروا نوع العلاقة التي يجب أن تكون بينه وبينهم ، وفكروا في الأمر ، فوجدوا أنه

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٣٠/٣ وما بعدها . جروسي ، تاريخ الصليبيين ٥٦٧/٣ . وتاريخ الصليبيين ، نشر ستن ١٣٠/١ .

(٢) الروض ب ٢٧ .

قد مرت سنوات الآن منذ أن هزم التتار ، وأن خطرهم قد تلاشى ، وهذا يدعوهم إلى التركيز على مصالحهم في الأراضي الإسلامية ، فاتصل كبيراهم : الرضى أبو المعارف ، ونجم الدين الشعراني ، وطلبا من بيبرس الاعتراف بما لهم من رسوم ، وتسليم ضياعهم التي كانت بأيديهم أيام الناصر ، ويقال أنه قد صاحب هذا الطلب تهديد منهم له(١) .

لم يذكر ابن شداد ، عندما أشار إلى هذا الموضوع ، نص خطاب الإسماعيلية الذي يقال أنه احتوى على تهديدهم لبيبرس . وقد فقد من كتاب الروض الزاهر لمحي الدين الجزء المتصل بالموضوع وكان بالإمكان أن يلقى أضواء على علاقتهما ، إلا أن هناك جزء باقياً من خطاب أرسل على لسان بيبرس للإسماعيلية يشير إلى رده على تهديدهم . والكاتب يشير إلى قوة الإسماعيلية الماضية ، وكيف أصبحت ضئيلة إذا ما قورنت بقوة بيبرس ، ويؤكد أن سيوفه أحد من سكاكينهم(٢) . وهذا الجزء من الرد قد يشير إلى حد ما إلى نقط النزاع ، وإلى لهجة التهديد المذكور ، لأن الكاتب يفند ما يبدو أنه وجهة نظر الإسماعيلية(٣) .

لقد احتل كره التتار نفس بيبرس ، وكما غضب على الأفرنج الذين أظهروا صداقتهم لهم يتوقع أن يعرض بيبرس صداقته على الإسماعيلية ، لمعارضتهم العلنية للتتار ، وجميع الظروف تشير إلى أن الإسماعيلية في موقف يؤملون معه أن ينشئوا علاقات وطيدة معه ، إلا أنهم بدلا من ذلك عمدوا إلى إثارته بطلباتهم وتهديداتهم . ورجل مثل بيبرس لا يمكن أن يخضع لمثل هذا التهديد ، ولعله عند هذا الحد من الطريق بدأت علاقة بيبرس تتغير معهم ، وأخذت طور العداء . وليس هناك شك في أنه منذ البداية كان بيبرس ينوي الإستيلاء على حصونهم ، إلا أن تصرفهم هذا أسرع في تقديم

---

(١) ابن شداد ، التاريخ ١٩١ . ومفضل ، النهج السديد ٤٣٣/١ . واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٥٨/١ ، ١١٤/٢ ، ولعل عداوة الاسماعيلية هذه كانت لسبب آخر معقول ، وغير مستبعد ، فبيبرس في عام ١٢٦١/٦٥٩ أقطع بعض أراضيهم لأحد قواده ، فإذا كانوا قد علموا بذلك ، فهذا يبرر غضبهم ، راجع الروض ٢١ .

(٢) الروض ٧٥ .

(٣) أسلوب الخطاب يشبه إلى حد كبير أسلوب محي الدين ولعله من إنشائه .

تاريخ أخذها ، وقد وضعهم الآن داخل مخططه العام للفتح ، واعتبرهم مصدر خطر كبير .

أول حركاته ضدهم :

ويبدو أنه لم يتوان في أخذ خطوات ضدهم بعد تدهور العلاقة معهم مباشرة ، فعيرهم لعدم تحديدهم موقفهم مع الأفرنج ، ويذكر مؤلف سيرته أن ردهم جاء مشيراً إلى أن السبب هو قربهم من الأفرنج ، وضعفهم أمامهم ، ولو كانت جيوش بيبرس قريبة لهاجموا الأفرنج(١) .

بدأ بيبرس يتخذ الخطوات ضدهم تدريجياً ، مهيئاً لإنهائهم كلياً ، وقد ورد ذكر مكيدة دبرها لهم أدت إلى احتكاك بينهم(٢) . وبدأ يريهم أنه لا يعتبرهم مهمين أو خطرين . وعندما أرسل لهم بعض الحكام هدايا(٣) ، واحتاج الأمر كالعادة أن تمر ببلاده أمر أن تؤخذ عليها الرسوم المعتادة .

وانقلب موقفه معهم بالتدريج عدائياً . وفي عام ١٢٦٦/٦٦٤ عندما كان محاصراً لصفد ، وصلت رسلهم إليه ، فأنبهم على مساعدتهم للأفرنج بالعناية بمواشيهم عندما هاجم طرابلس ، وتناسوا ما سبق أن وعدوه به من هجوم على الأفرنج . وبكتهم أيضاً على دفعهم جزية للأفرنج ، كان يجب أن يدفعوها للمسلمين . وطالبهم بالمساهمة في الجهاد بتجهيز فرقة ، أو دفع مال لتجهيزها(٤) . ويقال أنه أردف ذلك بتهديدهم بأنه سوف يدفنهم في حصونهم(٥) .

---

(١) الروض ٨٢ .

(٢) عين بيبرس ابن ثابت ، الرسول الذي بعثه رئيسا الاسماعيلية بالتهديد والطلبات ، في مكان الرضي ، بعد أن أخبره بيبرس أن الرضي قد مات ، فلما عاد ابن ثابت إلى الشام وجد الرضي حياً ، ولكن الرضي مات بعد عشرة أيام ، فخلفه ابن ثابت ، فلم يقبله الاسماعيلية وقتلوه . ابن شداد ، التاريخ ١٩١ ، ومفضل ، النهج السديد ٤٣٣/١ وما بعدها ، وأيضاً اليونيني ، ذيل المرآة ٤٥٨/١ و ١٦٢/٢ وما بعدها .

(٣) كانت الهدايا في هذه المرة من الامبراطور الفونسو أوف سفيل ، ومن حاكم اليمن . شافع ، حسن المناقب ٨٠ .

(٤) الروض ٨٢ .

(٥) شافع ، حسن المناقب ٨٧ .

وقد اجتمع على الإسماعيلية هذا الطلب ، والظرف الذي قدم فيه ، فبيبرس كان حينئذ محاصراً لصفد ، وهى أقوى حصون الأفرنج في الشام ، ويمكن لجيشه العظيم المحاصر أن يلحق بهم ضرراً كبيراً . ومبادرة جمال الدين نفسه بزيارة بيبرس في معسكره تدل على تقديرهم لخطورة الموقف . وليمعن بيبرس في إهانتهم رفض الهدية التي أحضرها معه رئيسهم ، محتجاً بأنها غير مناسبة ، وعندما غادر جمال الدين المعسكر وعد بهدية مرضية(١) .

دفع الجزية لبيبرس :

نتيجة لموقف بيبرس الحازم بدأ الإسماعيلية منذ عام ١٢٦٧/٦٦٥ يدفعون إليه الجزية التي كانوا يدفعونها حتى الآن للأفرنج الاسبتارية(٢) . أما ما دفعوه قبل ذلك فيمكن أن ينظر إليه على أنه هدايا ، ودلائل مجاملة من الضعيف للأقوى ، ولهذا فطبيعتها تختلف عن الجزية السنوية التي لا تدل فقط على اعترافهم به سيداً عليهم ، ولكن تدل أيضاً على اعترافهم بأنه أقوى حاكم في المنطقة ، وأن الاسبتارية لم يعودوا قوة يخشى منها .

وأصبح بيبرس الآن ينتظر الفرصة ليخضع حصون الإسماعيلية ، ولعله اعتبر وجوده في الشام في عام ١٢٧٠/٦٦٨ فرصة مواتية لإخضاعهم لولا أن اضطرته للتأجيل أخبار الحملة الصليبية التي يقودها سنت لويس . واكتفى باتخاذ خطوات محددة لإضعافهم . وعندما نصب معسكره في هذا العام قريباً منهم ، لم يكتف نجم الدين الشعراني بأن يتجاهل أن يزور بيبرس ، وإنما ، على ما قيل ، أرسل يطلب تخفيض الجزية السنوية التي فرضها عليهم . وكان بيبرس منذ مدة قريبة قد تصالح مع الرئيس الآخر للإسماعيلية صارم الدين بن الرضى ، واتفق معه على تسليم مصياف ونواحيها ، لتكون إقطاعاً للسلطان ، وعندما وصل صارم الدين ، ومعه الجزية السنوية ، عينه بيبرس نائباً له على الكهف والخوابي ، والمنيقة ، والعليقة ، والقدموس ، والرصافة ، مقابل تسليمه مصياف . وصدر له مرسوم بذلك(٣) وبهذا أصبح نجم الدين معزولا من الناحية النظرية ، لأن بيبرس لم يتملك حصونهم بعد ،

(١) الروض ٨٢ .

(٢) الروض ٩٣ ، وشافع حسن المناقب ٩٦ .

(٣) السلوك ٥٨٧/١ .

وإن كان له سلطة عليهم فهي محدودة ، إلا أن مجرد ضعفهم أمامه له أهميته الكبرى . لقد صعق نجم الدين عندما علم بزيارة صارم الدين لبيبرس ، وبالسهولة التي تم بها تسليم مصياف ، إحدى مراكز قوتهم في الشام . فقدم على بيبرس ، في معسكره ، وكان عمره حينئذ تسعين عاماً ، فرحمه بيبرس لكبر سنه ، وسامحه عن سابق أخطائه ، وعينه شريكاً لصارم الدين ، وانتهى الأمر بفرض مئة وعشرين درهماً سنوياً يدفعها نجم الدين ، وألفي دينار سنوياً يدفعها صارم الدين(١) .

إخضاع حصونهم نهائياً :

كان بيبرس مصمماً على أن يتابع نجاحه ضدهم ، وألا يدعهم يقفون عقبة في طريقه ، لهذا احتفظ بسيف الدين ابن نجم الدين ، رهينة عنده في بلاطه . ثم في تاريخ لاحق اتهمه بمراسلة الأفرنج فسجنه في مصر(٢) . ويقال أن نجم الدين عندما كان بيبرس محاصراً حصن الأكراد اعتذر عن الذنب الذي ارتكبه ابنه ، فانتهز بيبرس فرصة شعورهم بالذنب ، وزاد طلباته منهم مقابل غفرانه لهم . ودخل معهم في مفاوضات انتهت بالاتفاق على تسليم حصونهم ، ومغادرة كل من الوالد والولد الشام إلى مصر ، وهناك وعد بيبرس أن يمنح شمس الدين إقطاعاً بأربعين فارساً(٣) . وقد أبقى بيبرس نجم الدين عنده في المعسكر ، بينما ذهب ابنه إلى حصن الكهف ، للنظر في أمورها ، على أن يعود بعد عشرين يوماً .

ويبدو أن بيبرس غضب على صارم الدين ، رئيس الإسماعيلية الثاني ، لأننا نجد أنه سجنه في مصر ، وهي الخطوة الأولى لأخذ حصونه ، وقد سقطت العليقة في يد بيبرس في الحادي عشر من شوال عام ٦٦٩ هـ (٢٣ مايو ١٢٦٢ م)(٤) ، والرصافة استولى عليها نوابه في نفس الشهر(٥) .

---

(١) الروض ١٤١ .

(٢) الروض ١٥٠ ، ١٥٥ .

(٣) الروض ١٥٥ .

(٤) النويري ، النهاية ٦٣/٢٩ والروض ١٥٠ .

(٥) الروض ١٥٣ .

عندما وصل شمس الدين إلى حصون الإسماعيلية شعر بمناعته فيها ، فكتب إلى بيبرس يطلب امتيازات أخرى مقابل تسليمه للحصون ، فأجابه السلطان إلى طلبه ، ولكن عندما ذهب ممثلو بيبرس ، لتسلم الكهف ، قابلهم أهلها بمعارضة شديدة ، وبدا أنهم قد اتفقوا على ذلك مع شمس الدين ، وقد توجه شمس الدين إلى معسكر السلطان في ٢٦ صفر ٦٧٠ هـ (٣ أكتوبر ١٢٧١ م) ، أملا في أن يبعد عن نفسه الشبهة ، فرحب به بيبرس ، ولكنه فيما بعد اعتقله ، وأرسله إلى السجن في مصر ، لأنه أخبر بيبرس بأن أهل الكهف قد أرسلوا فدائيين لإغتيال بعض قواد السلطان ، وربما أراد شمس الدين بإخبار بيبرس بذلك أن يسدي إليه معروفاً ، أو لعله أراد أن يحطم معنوية قواد بيبرس ليضغطوا عليه حتى يكون أسمح في سياسته معهم(١).

أصبح رؤساء الإسماعيلية الآن سجناء عنده ، وحصونهم في يد نوابهم ، ولكن بيبرس استطاع في النهاية أن يستولى على بقية حصونهم أما بالتهديد ، أو الإغراء ، أو المضايقة ، فاستسلمت الخوابي والقليعة في ١٢٧١/٦٧٠ ، والمنيقة في الثالث من شهر ذي القعدة (٢٢ مايو) ، والقدموس في الثامن من هذا الشهر (٢٧ مايو) ، والكهف في الثاني والعشرين من الحجة ٦٧١ (١٠ يوليه ١٢٧٣) .

استطاع بيبرس بأخذه حصون الإسماعيلية ، والقضاء على سلطتهم في الشام أن يكمل ما بدأه التتار في فارس ، فقد أصبح الإسماعيلية خاضعين له ، واستفاد من فدائييهم ضد أعدائه(٢) ، فمثلا هاجم أحد الفدائيين الذين أرسلهم أحد نواب بيبرس الأمير إدورد بأمر من بيبرس نفسه(٣) .

---

(١) الروض ١٥٥ .

(٢) ابن شداد ، التاريخ ٢٢٢ وراجع أيضاً الروض ١٥٦ .

(٣) الروض ١٥٩ .

(هـ) علاقة بيبرس بمايكل الثامن بليولوقس

تولي مايكل الحكم :

استرد مايكل القسطنطينية من اللاتينيين في يوليـــه من عام ١٢٦١ م (رمضان – شوال ٦٦٤ هـ)(١) . وبهذا أصبح يحكم إمبراطورية جزء منها في آسيا الصغرى والجزء الآخر في أوروبا . واستعادته للأراضي المحتلة وسعت مملكته النيقية في آسيا الصغرى ، مما زاد في أعدائه الممثلين حالياً بالصرب والبلغار على حدوده الشمالية ، وباللاتينيين الذين طردهم عن ممتلكاتهم بعد أن بقيت في أيديهم ما يقرب من سبعة وخمسين عاماً . ويدخل في هذا العداء أيضاً البابا ، لاهتمامه بالكنيسة اللاتينية في أراضي الإمبراطور الإغريقية ، وكذلك منفرد ، صاحب صقلية ، ويأتي معه في وقت لاحق شارلز أوف أنجو ، وهما عدوان للإمبراطورية الإغريقية قويان ، خاصة شارلز ، لطموحه في التوسع في أوروبا ، وإصراره على احتلال القسطنطينية . وهناك أيضاً العدو التقليدي في آسيا الصغرى ، السلاجقة ، وهؤلاء لا ينتظر منهم أن يتركوا نيقيا في آسيا الصغرى تنعم بالسلام بعد أن أبعد مركز إمبراطورها إلى القسطنطينية . ويزيد أمل السلاجقة انشغال مايكل بالحروب على حدوده الشمالية ، وإن كان لديهم من العوامل المثبطة ما لا يجعلهم يبعدون في هذا الأمل .

إلى جانب الصعوبات السياسية التي أوجدتها هذه القوى المتعددة ، لعبت العوامل الاقتصادية دوراً هاماً في مساعدة هذه الإمبراطورية الجديدة أو عرقلتها ، فقد كان البندقيون هم الممونون الأساسيون للحملة الصليبية الرابعة ، فحصلوا مقابل ذلك على امتيازات واسعة في الممالك اللاتينية في الشرق فأزعج هذا منافسيهم الجنويين ، وقد أدرك مايكل هذا ، ولأنه يحتاج لاسترداد القسطنطينية إلى قوة بحرية تسانده ضد اللاتينيين الذين يعضدهم البندقيون عرض على الجنويين مساعدته ، فقبلوا ذلك على أن يمنحهم امتيازات هامة في أراضيه ، ووقعوا معه اتفاقية بهذا المعنى في

(١) فاسيلييف ، تاريخ الامبراطورية الرومانية ، ٥٣٨ .

مارس ١٢٦١ (ربيع ٦٥٩)(١) . لقد كان من المنتظر أن تثير الامتيازات التي أعطاها مايكل للجنويين ثائرة البندقيين ، وأن يندفعوا لمقاومة هذا التطور ، في عالم التجارة ، فدفعهم ذلك إلى أن ينضموا إلى صفوف أعدائه .

مصالح متبادلة :

صادف استرداد مايكل للقسطنطينية تولي بيبرس الحكم في مصر والشام ، وموقف كل منهما يشبه الثاني في أن كلا منهما محاط بأعداء أقوياء ، وأنه قد استرد حديثاً بعض الممتلكات التي ينوي المحافظة عليها ، وتوسيع رقعتها . وكلاهما لجأ إلى الوسائل الدبلوماسية ، واستفاد منها فائدة تامة . ولهذا أدت بهما مصالحهما المتبادلة إلى علاقة اختلفت قوة وضعفاً حسب تأثير الظروف السياسية الخارجية عليها .

الصليبيون في الشرق عدو طبيعي لكل من بيبرس ومايكل ، وهدف كليهما تقليص هذا العدو لتثبيت قوتهما . واستمرار بيبرس في تهديده لممتلكات الأفرنج في الشام يشغل الأفرنج عن مايكل ، ومايكل من جانبه يقف عقبة في طريق أي حملة صليبية قد ترسل من أوروبا ضد بيبرس ، وتمنعها من المرور بالأراضي الإغريقية . ويبدو أيضاً أنهما ، منذ أوائل حكمهما ، قد رأيا ضرورة مقاومتهما معاً للتتار ، لأن اراضي الامبراطورية الإغريقية في آسيا الصغرى تقع على طريق التتار ، ومعرضة لخطرهم عند مرورهم للهجوم على ممالك آسيا الصغرى .

ويكون مايكل حلقة اتصال بين بيبرس وبين حليفه الرئيسي رأس القبيلة الذهبية ، الذي هو مصدر تهديد دائم لأيلخانات فارس ، أعداء بيبرس الألدين . وعن طريق أراضي مايكل كانت رسله تذهب إلى حليفه رئيس القبيلة الذهبية وتجيء(٢) . ولم يكن هذا يخلو من فائدة لمايكل لأهمية صداقة القبيلة الذهبية له ، فهم كذلك تتار ويبحثون عن أراضٍ جديدة يحتلونها .

---

(١) هسي ، العالم البيزنطي ، ٧٥ ورنسمان ، تاريخ الصليبيين ، ٢٨٦/٣ — ٧ ، وفاسيلييف ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ٥٣٧ .

(٢) راجع مثلا لهذا الروض ٢٦ و ١٢٤ .

أوائل الاتصال بينهما :

أدرك كل من بيبرس ومايكل موقفه من جيرانه المعادين له . وحاجتهما إلى حلف يربط بينهما . كذلك وصلا سريعا إلى توطيد علاقات الصداقة بين قطريهما . ويبدو أن مايكل كان أول الاثنين بدء بالاتصال ، وكان ذلك عام ١٢٦١/٦٦٠ — ٦٢ ، عندما أرسل إلى بيبرس يعرض عليه القيام بما يستطيعه من مساعدة(١) ، ويطلب إرسال بطريق للنصارى الملكيين في بلاده(٢) . ولا بد أن هذا العرض قد سر بيبرس ، وسره أيضاً أن يكون بإمكانه أن يلبي طلب الامبراطور . وقد سارع بيبرس إلى الرد ، وأرسل بعثة إلى مايكل ، ومعها البطريق المطلوب ، وهدايا كان من بينها الزراف الذي يبدو أنه أعجب الامبراطور(٣) . وقد أكرم مايكل رسل بيبرس ، وزيادة في توثيق عرى الصداقة بين بلديهما ، أطلعهم على مسجد أبقاه مراعاة للسلطان ، وذكر محي الدين أن بيبرس اعتبر هذا تكريماً خاصاً ، حيث أن صلاح الدين لم ينل هذا في زمنه(٤) .

وقد حافظ كلا الطرفين على هذه الصداقة لمدة سنتين إلى أن وجدت أمور كادت تقضي على هذه العلاقة .

توتر العلاقة بينهما :

تغيرت العلاقة في نهاية عام ١٢٦٣/٦٦١ بين عدد من الممالك ، واستلزم الأمر أن تتخذ خطوات من حكامها تجاه بعضهم بعضاً ، فقد دخل هولاكو ، أيلخان فارس ، في عراك عنيف مع ابن عمه بركه ، حاكم القبيلة الذهبية ، مما جعل هولاكو يصرف جهده عن التوسع غرباً ، فقل خطره على أراضي الامبراطورية الاغريقية في آسيا الصغرى . والنزاع بين بركه وهولاكو أعطى بيبرس أيضاً الفرصة ليقوي نفسه . وقد حاول هولاكو أن يحسن علاقته مع الأفرنج ، أعداء بيبرس ، ومع حليفه مايكل ، مؤملا بذلك أن يضعف

(١) الروض ١٠ . (٢) الروض ٢٦ .

(٣) مايكل كان من بين الحكام الذين كانت أراضيهم في آسيا الصغرى عرضة لهجوم التتار ، فقد كانوا أعداءه حينئذ ، ولهذا أرسل إليه بيبرس بعض أسرى التتار بسلاحهم وخيلهم ، رمزاً لصداقته . الروض ١٠ ، ٢٤ .

(٤) الروض ٢٦ .

قوة بيبرس أحد أعدائه ، خاصة وأنه لم يكن قد أخضع تركمان آسيا الصغرى بعد ، وهم مصدر قلق له(١) . لأن خطرهم يتضح أكثر فيما لو استعان بهم السلاجقة ، وهم من لا يشك التتار في عدم ولائهم ، فإذا كسب التتار مايكل إلى صفهم فإن هذا سيقلل من أهمية خطر التركمان ، لأنه سوف لا يحركهم ضد التتار ، وإنما سيكون هو مصدر تهديد في مؤخرة صفوفهم .

ولعل فكرة عقد اتفاقية مع التتار قد راقت لمايكل ، لأنه لم يكن متأكداً من أن النزاع بين هولاكو وبركه سوف يدوم ، فإذا ما انتهى هذا النزاع فإن مايكل سوف يندم على إضاعة فرصة تقرّب هولاكو منه . وكان قد أفزعه ما يقوم به هولاكو من محاولة لتقوية علاقته بالأفرنج ، مما يجعل مايكل ، لو تم التقارب ، بين حليفين . أما إذا أبرم اتفاقية مع هولاكو ضمن أنه والأفرنج لن يقوما بعمل مشترك ضده ، وسوف لا يقدم الأفرنج على القيام بأي عمل عدائي على صديق حليفهم .

وليس من الواضح ، على وجه الدقة ، أي الحاكمين بدأ باقتراح التحالف ، فأول اتصال سمعنا عنه ، في هذا الصدد ، هو ما قام به هولاكو من إرسال بعثة إلى مايكل في النصف الثاني من عام ١٢٦٢/٦٦١ — ٦٣(٢) .

كان لا بد أن يغضب تحالف مايكل وهولاكو بعض الحكام ، وبما أن هذا التحالف كان في صالح أيلخان فارس فمن الطبيعي أن يكون في غير صالح عدويه بيبرس ، وحاكم القبيلة الذهبية . وإذا لم يعترضا الآن فإنه لا بد أن تتضارب المصالح فيما بعد ، مما يجعل من الصعب على مايكل أن يستمر في تحالفه مع كلا الطرفين . وسرعان ما حدث هذا التضارب عندما أرسل بيبرس رسلا إلى بركة ، فوصلوا إلى القسطنطينية في وقت كان مايكل يحتفل فيه برسل هولاكو ، ولم يرد مايكل أن يعلم رسل هولاكو برسل بيبرس أو هدفهم ، وكان مايكل حينئذ منشغلا في حرب على حدوده

---

(١) رنسمان ، تاريخ الصليبيين ٣١٩ .

(١) الروض ٥٢ ، ومفضل ، النهج السديد ٤٥٤ ، واليونيني ، ذيل المرآة ٥٣٧/١ — ٣٨ .

الشمالية ، مما اضطره أن يؤخر رسل بيبرس في القسطنطينية ، مدة تقرب من السنة والنصف ، حسب ما تقوله بعض المصادر(١) .

وقد أغضب تعويق رسل بيبرس كلا من بيبرس وبركه ، وبدأ كل منهما باتخاذ خطوات ضد مايكل لما فعله ، فأرسل بركه جيشاً ضد القسطنطينية ، ولم يستعده إلا بعد أن أكد له فارس الدين ، رسول بيبرس ، أن التأخير كان رغبة منه هو ، وذكره أيضاً بأن بين بيبرس ومايكل حلفاً ، مما يوجب على بركه مساعدة الامبراطور(٢) .

ويبدو أن تدخل فارس الدين أنقذ مايكل مما قد يأتيه من المشاكل ، من جاره القوي ، ولكن هذا لم يتم دون بعض التضحيات ، فقد اضطر مايكل أن يدفع لبركه سنوياً ما قدره ثلاثمئة ثوب من الحرير الصيني .

كان ركن الدين السلجوقي قد هزم أخاه عز الدين ، الحاكم السابق لجزء من آسيا الصغرى ، فلجأ عز الدين إلى مايكل ، فأدخله مايكل فيما بعد السجن ، متهماً إياه بالتآمر(٣) . ويبدو من بعض الحوادث والأدلة الأخرى (٤) أن مايكل قد وعد عز الدين بأن يقبله لاجئاً ، لأن كليهما كان عدواً للتتار في آسيا الصغرى ، ولكن مايكل وجد بعد اتفاقه مع التتار أن بقاء عز الدين سوف يفسد صداقته معهم . أما إذا سجنه فإن التتار لن يعودوا يخافون منه أن يجمع جيشاً يهاجم به أخاه ركن الدين الخاضع لهم . أما بركه فما زال عدو هولاكو اللدود ، وحريصاً أن تبقى آسيا الصغرى مهددة ، ولهذا طلب بركه من مايكل قبل أن يسحب جيشه أن يطلق سراح عزالدين ، وأن يسلمه إليه .

في هذه الأثناء جمع بيبرس كبار رجال المسيحيين ، وأطلعهم على نسخة من يمين مايكل له ، وحكموا بأن ما اطلعوا عليه يعتبر نقضاً للعهد ،

(١) اليونيني الذيل ٥٣٧ ـــ ٣٨ ، ومفضل ، النهج السديد ٤٤٥ ـــ ٦ .

(٢) اليونيني الذيل ٥٣٨ .

(٣) ابن شداد التاريخ ٣٣ ـــ ٣٤ .

(٤) اليونيني الذيل ١٦٠/١ .

ويخرج صاحبه من الملة(١) . ورغم خطورة ما أقدم عليه مايكل ، من تأخير الرسل إلا أن بيبرس لم يكن مستعداً أن يقطع علاقته به ، ومع أنه عاتبه بشدة على تصرفه(٢) ، إلا أنه كان حريصاً أن يبقى على الصداقة التي بينهما ، وعرض أن يتوسط بينه وبين بركه ، وفعلا أرسل إلى بركه شيئاً بهذا المعنى(٣) .

تحسن العلاقة بينهما :

سرعان ما مرت العاصفة ، وأخذ مايكل يقوي الصلات التي بدأها ، فزوج إحدى بناته إلى أيلخان فارس ، وليعادل الأمر زوج أخرى لنوغاى ، قائد جيوش القبيلة الذهبية (٤) . واستمرت بعثات بيبرس تأخذ طريقها عبر أراضي مايكل حتى عام ١٢٦٨/٦٦٧ — ٦٩ عندما أغضبه مايكل بتعويق رسله مرة أخرى ، وقد أدى هذا إلى نزاع استعمل فيه مايكل كلمات قاسية مع بيبرس ، أجاب عليها بيبرس بالمثل ، إلا أن بيبرس على ما قيل تسلم في عام ١٢٦٧/٦٦٧ — ٦٩ ، وبعد رحلته إلى الشام ، خطاباً يتراجع فيه مايكل عن موقفه العدائي السابق ، ويعتذر فيه عن تأخير رسله ، ويبين أن السبب هو ما سمعه عن وفاة بركه(٥) مما جعله غير متأكد من نتائج هذا الحدث .

وفي هذه الأثناء ، وفي نفس الخطاب ، فاتح مايكل بيبرس ، باقتراح دخول بيبرس في حلف مع أبغا ، وكان أبغا قد أصبح الآن أيلخان فارس ، ويرى نمو قوة بيبرس ، ولكنه لا يستطيع أن يحد منها للصعوبات التي يواجهها مع أبناء عمه . وسوف يستفيد أبغا فائدة عظمى إذا استطاع أن يتجنب الخطر الذي يهدده من جانب بيبرس بإبرام حلف معه يمكن نقضه عندما يتخلص من الأمور التي تشغله . وربما يكون أبغا هو الذي ابتدأ

---

(١) الروض ٥٢ — ٥٣ .

(٢) السلوك ٥١٤/١ .

(٣) السلوك ٥١٤/١ ، راجع أيضاً ما سبق ص ٥٠ .

(٤) برودن ، امبراطورية التتار ، ٣٧١ .

(٥) الروض ١٢٤ .

باقتراح هذا الحلف على مايكل ، فلقي منه ترحيباً . أو لعل مايكل عندما رأى ما فيه أبغا من موقف انتهز فرصة قابليته لقبول مثل هذه الفكرة ، فاقترحها عليه(۱) . وقد رفض بيبرس هذه الفكرة ، لأنه خير من يعرف الصعوبات التي يعانيها أبغا(۲) .

ويبدو أن العلاقة الطيبة بين بيبرس والامبراطور استمرت منذ عام ١٢٦٩/٦٦٨ — ٧٠ حتى وفاة بيبرس ، لأن الرسل استمرت تأخذ طريقها عبر بلاد الامبراطور ، وأصبحت القسطنطينية منفى لمن يعتبره السلطان ، سياسياً ، خطراً عليه .

---

(۱) راجع ما سبق ص ٥٩ . .

(۲) الروض ١٢٤ .

(و) علاقة بيبرس بالنوبة وجيرانها

بلاد النـــوبة :

يصف المؤلفون العرب بلاد النوبة بأنها تقع مباشرة بعد حدود مصر الجنوبية ، وأنها تنقسم إلى قسمين : علوا والمقرا(١) ، و « علوا » هى الجزء الجنوبي ، وتبدأ حدودها الشمالية عند مجموعة من القرى تسمى الأبواب(٢) ، في منطقة الشلال السادس(٣) . و « المقرا » تمتد شمالا من الأبواب إلى قرية تسمى تافا ، على مرحلة إلى الشمال من أسوان(٤) . وكانت دنقلة هى المدينة الرئيسية في الجزء الشمالي من بلاد النوبة ، وكان الجزء الشمالي من « المقرا » يسمى « ماريس » ، ويوصف بأنه حد النوبة(٥) . ويبدو أن اتصال المسلمين كان بالمقرا حيث يسلم البقط « العبيد »(٦) .

ويقيم ملك النوبة في دنقلة ، المدينة الرئيسية في الجزء الجنوبي من شمال المملكة ، وينيب عنه في أقصى الشمال حاكماً يعرف بصاحب الجبل ، ربما لأن المنطقة التي يحكمها جبلية(٧) ، ويعتبر من أهم نواب ملك النوبة لقربه من الحدود الإسلامية . ومن أهم أعماله أنه يقوم بمراقبة الداخلين من البلاد الإسلامية إلى بلاد النوبة . ولا يسمح لأحد بالمرور من الشلال الثاني إلا بعد

---

(١) اليعقوبي ٢١٧/١ .

(٢) الاسم الحديث لها كبوشيه .

(٣) المقريزي المواعظ ٢٥٨/٣ . راجع أيضاً ترمنجهام ، الإسلام في السودان ٧٢ وماك مايكل ، تاريخ العرب في السودان ١٧٠/١ .

(٤) المقريزي المواعظ ٢٥٨/٣ ، انظر أيضاً (٢٥٢) حيث يروي المقريزي أن عبد الله بن أحمد بن سالم الأسواني يذكر أن هناك قرية تدعى القصر ، تبعد عن أسوان بخمسة أميال هى مبتدا بلاد النوبة .

(٥) المقريزي الموعظ ٢٥٨/٣ ، والمسعودي المروج ٣١/٣ .

(٦) اليعقوبي التاريخ ٢١٧/١ .

(٧) برمنجهام ، الإسلام في السودان ٦٤ حاشية ٤ .

الحصول على إذن منه(١) . ويتردد التجار المسلمون على الجزء الشمالي من ماريس ، بل إن بعض المسلمين يقيمون في هذه المناطق ، وبعض التجار المسلمين ممن يتردد على هذه المناطق قد تملك عقاراً وضياعاً هناك(٢) .

أول اتصال المسلمين بالنوبة :

اختلف مؤرخو العرب في تاريخ بدء الاتصال بين المسلمين والنوبة ، فبعضهم يذكر أن عبد الملك بن أبي السرح هزم النوبة عام ٣١/٦٥١ — ٥٢ . أيام عثمان بن عفان ، وأجبرهم على طلب الصلح(٣) . وبعضهم يذكر أن النوبة اتصلوا بعبد الله يطلبون الصلح ، فعقد معهم اتفاقاً . ولعل هذا الاختلاف بين المؤرخين ناتج عن أن كل رواية تخص حملة على النوبة مختلفة عن الأخرى ، فجاءت نتيجة كل واحدة تختلف عن الأخرى . على كل حال كان من شروط الاتفاقية أن يقدم النوبة للمسلمين عدداً من العبيد (البقط) مقابل إعطائهم من الميرة ما يساوي قيمتهم(٤) .

استمر النوبة يقدمون العبيد مقابل ما يدفع لهم من مؤونة اقتضتها الاتفاقية ، إلا أن هذا تعرض للتوقف عدة مرات ، وقيل أن ذلك بسبب عجز النوبيين عن تقديم العدد الذي حددته الاتفاقية من العبيد ، مما أوجب إيقاف تسليمهم القمح والحبوب الأخرى التي أعطتهم إياها الاتفاقية ، ولم يكتف المسلمون بهذا بل حاربوهم(٥) . ويبدو أن النوبيين أنفسهم بدأوا العدوان ، في بعض الحالات ، لأنهم لم يكتفوا بالامتناع عن دفع البقط ، ولعل الحاجة هي التي دفعتهم إلى العدوان،وشجعهم عليه إنشغال الحكومة المصرية بأمور في الشمال ، وبمجرد ما كان المسلمون يتخلصون مما كان يشغلهم يرسلون جيوشاً لتأديب النوبة ، فمثلا أرسل الأخشيد جيشاً ليوقف هجمات النوبة في عام ٣٤٥/٩٥٦ — ٦٧(٦) .

---

(١) المقريزي المواعظ ٢٥٤/٣ ، وبرمنجهام الإسلام في السودان ٦٥ .

(٢) المقريزي المواعظ ٢٥٣/٣ .

(٣) المقريزي المواعظ ٢٥٣/٣ .

(٤) الروض ٢٥٣/٣ .

(٥) المقريزي المواعظ ٢٩٤/٣ .

(٦) المقريزي المواعظ ٢٨٣ . ابن الفرات تاريخ ٤٥/٧ .

وأرسل الفاطميون جيشاً لإيقاف غارات النوبة على جنوب مصر . وكانت هذه الغارات مقلقة إلى الحد الذي وجد معه الفاطميون أن الحاجة تقتضي ترتيب حامية في السودان(١) . وأرسل صلاح الدين بعد أن أصبح حاكماً لمصر حملة في عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) ، بقيادة أخيه توران شاه ، وربما كان السبب في ذلك أن النوبة آووا بعض جنود الفاطميين السود الذين فروا أمام عسكر صلاح الدين(٢) .

قبائل البجـــة :

وتشترك قبائل البجه مع النوبة في علاقتهم بالمسلمين . وتقع أراضيهم في الجنوب الشرقي لأسوان ، في منطقة بين النيل والبحر الأحمر ، على حدود بلاد النوبة ، وأقرب نقطة على حدودهم قرية تعرف بالخزبه ، تقع في الصحراء ، على بعد ثلاث مراحل من مدينة قوص . وأبعد نقطة في الجنوب حدود الحبشة(٣) .

وتنقسم البجه إلى قسمين رئيسيين : الحدارب ، والرنافج ، وأهم القسمين الحدارب . ويسكنون الجزء الشمالي من البلاد ، وقربهم من البلاد الإسلامية جعلهم على صلة بالمسلمين في أسوان وعيذاب عن طريق التجارة والغزو . وكانوا متقدمين على الرنافج ، مما جعلهم يبرزون عندما هاجرت القبائل العربية إلى تلك الجهات . ونتيجة لهذا الاتصال صار الحدارب أقرب للتزاوج مع العرب ، وللدخول في الإسلام . أما الرنافج ، فكانوا يسكنون المناطق الجنوبية لهذه البلاد ، وهم أكثر عدداً من الحدارب الذين كانوا في يوم من الأيام خاضعين لهم . أما الآن فقد كسب الحدارب خبرة حربية من جراء مناوشاتهم مع النوبه والمسلمين ، فأنزلوا اخوانهم الرنافج ، وهم سكان الجنوب إلى منزلة أدنى منهم . ويروى أن الرنافج يزودون الحدارب بالحرس ، ويهدون لهم المواشي ، وأن كل رئيس قبيلة من الحدارب يخدمه مجموعة من الرنافج ، وعندما يتوفى يرثهم خلفه مثلما يورث العبيد(٤) .

---

(١) المقريزي ، المواعظ ٢٨٥/٣ . ابن الفرات ، التاريخ ٤٥/٧ .

(٢) ابن الفرات ، التاريخ ٤٥/٧ . برمنجهام الإسلام في السودان .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ٢١٧/١ . المقريزي ، المواعظ ، ٢٦٧/٣ ، ابن الفرات تاريخ ٤٩/٧ . المسعودي ، المروج ، ٣٢/٣٠ . دائرة المعارف الإسلامية (مادة بجه) .

(٤) المقريزي ، المواعظ ، ٢٧٢/٣ .

كان النوبيون في الأصل أقوى كثيراً من البجه ، ولكن مناجم الذهب والزمرد جذبت بعض القبائل العربية ، خاصة ربيعه ، فقد سكنت هناك ، وتزاوجت مع البجه ، ويبدو أنهم بعد ذلك تقووا إلى حد مكنهم من القيام بالغارات على النوبه(١) .

اتصال المسلمين بالبجة :

لم يكن البجه أقوياء عندما قام المسلمون بحملتهم على النوبة ، يدل على هذا تجاهل عبد الله بن أبي السرح لجموعهم التي اجتمعت على شاطىء النيل عند عودته من حملته على النوبة ، ويروى أنه عندما رآهم وسأل عنهم ، لم يجد أنهم يستحقون أن يقف عندهم ، ويعقد معهم اتفاقية(٢) .

إلا أن البجه سرعان ما نبهوا مصر إلى وجودهم بتتابع غاراتهم على أراضي مصر ، ولكن حكومة مصر أوقفتهم عند حدهم بمجرد أن انتهت مما كان يشغلها عنهم ، وبعد عدة وقعات وصلت معهم إلى اتفاق في عام ٢٤١هـ (٨٥٥ — ٨٥٦م)(٣) .

وفي هذا الوقت اشتهرت أراضي البجه بمناجم الذهب والزمرد ، واشتملت الاتفاقية على شرط يسمح للمسلمين بالعمل في المناجم . ويمثل هذا نقطة تحول في علاقة البجه بجيرانهم المسلمين ، لحاجة البجه إلى مساعدة القبائل العربية . ويبدو أنه لم يعد هناك معارضة جديدة لتوطن العرب هناك . ونمت علاقة جيدة تأكدت بين الجنسين بما تم من زواج بين رجال القبائل من ربيعة ببنات رؤساء قبائل البجه . ولأهمية أبناء البنات عند قبائل البجه سرعان ما انتقلت حكومة قبائل البجه إلى الجيل الثاني من ربيعه(٤)

وهذا التطور الجديد في بلاد النوبه أدى مع الوقت إلى إحلال السلام مع المناطق الإسلامية المجاورة(٥) .

---

(١) المسعودي ، المروج ، ٣٢/٣ .

(٢) المسعودي ، المروج ، ٣٢/٣ .

(٣) البلاذري ، الفتوح ، ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٤) المسعودي ، المروج ، ٣٢/٣ ، والمقريزي ٢٦٧/٣ و ٢٩٧ .

(٥) المقريزي ، المواعظ ، ٢٧٧/٣ .

علاقة بيبرس بالنوبة :

لم يكن يقصد بأي نشاط حربي وجه ضد النوبه ، حتى عصر المماليك ، إدخال سلطة الدولة الإسلامية إلى بلاد النوبة ، وإنما كانت الغارات على بلادهم فقط لمعاقبتهم على غاراتهم على أسوان ، أو لعدم تقديمهم البقط . وأول عمل يمكن أن يطلق عليه اسم حملة هو ما قام به أخو صلاح الدين عندما توغل إلى أبريم ، وتطلع إلى أن يضع حامية من الأكراد هناك ، إلا أن عسكره أجبر على الانسحاب(١) . ولم يتم اخضاع النوبه إلا في أيام بيبرس (٢) .

وليس هناك ما يدل على أن بيبرس كان يخطط لفتح النوبة ، والاشتباكات التي كانت تجري بين آن وآخر أدت به إلى أن يقرر اخضاع النوبه . ولم يضع وقتاً أو فرصة في متابعة نشاطه السياسي أو الحربي لأخذ النوبه ، محافظة منه على سمعته الحربية ، فإنه لا يمكن أن يترك عملا بدأه دون أن يتمه ، لهذا فإنه لم يكتف بأن يصد هجوم النوبه ، وإنما تعدى الأمر إلى اخضاعها .

أمن طريق التجارة :

كان بإمكان بيبرس أن يشدد على بلاد النوبه لأخذ خيراتها ، كما يفعل عادة مع البلدان المفتوحة حديثاً ، إلا أن بلاد النوبه لا يمكن أن يؤخذ منها ما يكفي تكاليف الحملة التي ترسل إليها . وحتى العبيد الذين يمكن أن تقدمهم بلاد النوبه لا يبرر الحصول عليهم نقل جهود بيبرس من الشمال ، حيث التتار والصليبيين ، إلى بلاد النوبه . لهذا فإن ما دعى بيبرس أن يلقي بحمله عليهم لم يكن الطمع في أرضهم أو مالهم ، وإنما حماية سمعته ، ودفع الخطر الذي أصبح يهدد أحد مصادر دخل مصر ، وهذا المصدر هو أحد أسباب ازدهارها التي مكنتها من تحمل الأعباء المالية التي تطلبتها الأعمال الحربية الضخمة في سوريا . ووسائل الازدهار هذه هي تجارة التوابل من الشرق إلى موانئ البحر الأحمر الغربية ، وطرق التجار هذه

---

(١) برمنجهام ، الإسلام في السودان ، ٦٨ — ٦٩ .

(٢) ابن الفرات ، التاريخ ، ٤٥/٧ .

تمر بعد ذلك عبر أراضي البجه والنوبه إلى صحراء عيذاب(١) ، ولإدراك بيبرس لأهمية دور هذه التجارة في ازدهار مصر حرص على احلال السلام في هذه الأراضي التي تمر بها .

أعراب أعالي مصر :

وتتبين درجة أهمية هذه التجارة من العمل الجاد الذي قام به بيبرس تجاه الأعراب الذين تسبب عصيانهم في أعالي مصر في بطء حركة هذه التجارة ، وفي وقت من الأوقات أوقفتها كلية ، فاتخذ بيبرس ما يحمي سمعته بطريقة أكيدة جعلت التجار يشعرون بالأمان عندما عادوا إلى المرور من هذه المناطق التي لم تعد تحتاج حتى إلى حاكم . واطمئنانهم هذا شجعهم على القيام برحلتين في السنة بدلا من الرحلة الواحدة المعتادة ، واعتبر هذا في ذلك الوقت شيئاً خارقاً للعادة في تاريخ التجارة في هذه المناطق(٢) .

حاكم سواكن ودهلك :

لم يكن هذا هو كل ما اتخذه بيبرس لحماية مصالح تجارة التوابل ، بل أنه تدخل مرة أخرى عندما ظهر في أقاصي الجنوب خطر جديد يهدد التجار ؛ فقد اعتاد عدد كبير منهم أن يمر بسواكن ودهلك ، وقد وصلت إلى بيبرس عدة شكاوى تتهم حاكميهما(٣) ، لأنهما اعتادا أن يستوليا على أموال من يموت في الطريق من التجار . فأرسل بيبرس في عام ٦٦٢هـ (١٢٦٣ — ١٢٦٤م) إليهما يحذرهما(٤) . وقد انصاع حاكم دهلك لطلب بيبرس لأنه لا يبدو أن بيبرس اضطر إلى اتخاذ أي إجراء آخر غير هذا معه . أما حاكم سواكن علاء الدين اسبعاني فالأمر معه يختلف ، لأنه لم يلق بالا لتحذير بيبرس . ولعل الذي شجعه على ذلك هو انشغال بيبرس في الشمال عن المبادرة في تنفيذ التهديد . وفي عام ٦٦٤هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٦م) أمر بيبرس حاكمه في قوص أن يتوجه بجيش ضد حاكم سواكن ، فقام هذا بطرد الاسبعاني من سواكن ، وعين فيها رجلا من قبل بيبرس(٥) .

---

(١) المقريزي ، المواعظ ٢٩٩/٣ — ٣٠٠ .

(٢) الروض ٢٦ — ٢٧ .

(٣) ولعلهما من نسل بعض الأفراد الذين تسلسلوا نتيجة التزاوج بين العرب والبجه .

(٤) الروض ٤٤ .

(٥) الروض ٧٨ .

ولكن حاكمها الأول عاد واصطلح مع بيبرس ، فأعاده إلى مركزه حاكماً باسم بيبرس(١) .

ما قام به بيبرس تجاه هذين الحاكمين يدل على أن اهتمامه كان منصباً فقط على تحقيق سلامة التجار ، فهو لم يتخذ ضد حاكم دهلك أي إجراء غير الانذار الأول ، لأن الحاكم المذكور أزال أسباب الشكوى . أما حاكم سواكن فإنه لم يلجأ معه إلى القوة إلا عندما وجد أنه لا مناص له منها . واحتلال جيش بيبرس لسواكن لا يدل على أنه كان يقصد احتلال أراض جديدة ، وما كان عمله ذلك إلا ليزيل وهم صاحب سواكن من أن بيبرس لا يتبع القول العمل .

ومما يؤكد أن بيبرس لا يريد إلا سلامة التجار سرعة إعادة حاكم سواكن إليها ، لأنه أعرف رعيته ، وأقدر على حكمهم عن أي واحد قد يعينه بيبرس . وزيادة على هذا فإنه إذا لم يصالح فإنه سوف يتحين الفرص لاستعادة عرشه المفقود ، ويشغل بيبرس عن أمور أهم . وكلما أسرع إنهاء الموضوع فهو أحسن للتجارة ، لأنها كانت تعاني من عدم وضوح أمن الطريق . وكون الاسبعاني الآن أعيد إلى عرشه ولكنه يحكم باسم بيبرس لا يناقض ما قيل من أن بيبرس لا يقصد توسعة رقعة ملكه ، فما اتخذه من إجراء كان لابد منه لحماية سمعته عند انسحاب جيشه من مدينة قد افتتحها ، وربما اتفق على دفع مبلغ لبيبرس لهذا الغرض أيضاً .

إخضاع بلاد النوبة :

لا يبدو أن نظرة بيبرس إلى بلاد النوبه ، والرغبة عن ضمها إلى بلاده ، تختلف عن نظرته إلى كل من حاكم دهلك وحاكم سواكن ، ولكن نظرته اختلفت فيما بعد لسبب معين ، فحالة بلاد النوبة الملاصقه لبلاده ، وموقف النوبه معه ، وطريقته مع أعدائه كانت وراء ذلك .

وقد بدأ اتصاله بهم في عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨ – ١٢٦٩م) عندما أصيب أبو العز ، حاكم بلاد النوبة ، بالعمى ، فأنزله ابن أخيه عن عرشه ، وبعث داود إلى بيبرس يخبره بهذا التغيير ، وأرسل مع رسله هدية إلى بيبرس ، رمزاً لصداقته . فرد عليه بيبرس مطالباً بالعودة إلى دفع البقط ، الذي ربما كان قد أوقف قبل قيام دولة المماليك(٢) .

---

(١) شافع ، حسن المناقب ، ٨٤ .	(٢) الروض ١٢٥ .

لعل داود كان يؤمل أن يحظى برضى بيبرس ، ومساعدته ، عندما اتصل به بهذه الطريقة ، وأخبره عما اتخذه مع الحاكم السابق ، الذي كان قد قصر في دفع البقط ، مما استوجب عدم رضى مصر . ولعله أيضاً اعتقد أن بيبرس سوف يرضى بالهدية التي أرسلها إليه ، وأنه لن يثير أمر البقط . وقد يكون بيبرس نظر إلى اتصال داود به ، بهذه الطريقة ، على أنها علامة ضعف ، يجب أن تستغل . وهناك تفسير آخر ، وهو أن بيبرس ، منذ تاريخ سابق ، كان قد قرر ألا يقبل أقل من الجزية الأصلية ، مع التأكيد على أمان منطقة أسوان ، والطرق الأخرى . أياً كانت صورة الحال ، فطلب بيبرس قدم بطريقة لم تعط داود أملا في المساومة ، ولهذا ، ولأسباب اقتصادية ، لجأ داود إلى سياسة العدوان ، فهاجم أراضي بيبرس .

ويروى أن داود قام ، في محرم ٦٧١ (أغسطس ١٢٧٣م) على رأس قوة ، بغارة على عيذاب ، وقتل قاضيها ، وحاكمها ، وعددا من التجار ، فرد عليه نائب بيبرس بقوص بغارة خرب فيها مناطق النوبة المجاورة(١) .

وفي عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥ - ١٢٧٦م) ، قام داود بهجوم آخر ، ولكن على أسوان ، ومن جملة ما قام به تخريبه بعض المطاحن ، وانسحب سالماً قبل وصول نائب بيبرس ، إلا أن النائب استعاض عما فاته بأسر نائب داود (ولعله صاحب الجبل) وبعض أتباعه ، فأرسلوا إلى مصر ، حيث قتلوا(٢) .

في نفس العام (٦٧٤هـ) ، وفي الغالب ، عندما كان بيبرس يفكر بطريقة تجدي تجاه داود ، وصل إلى بلاطه رجل يدعى شكندا ، قريب لعز الدين الذي عزله داود(٣) ، واستنجد ببيبرس على داود ، فأعطى بذلك بيبرس الفرصة لاتخاذ خطوة ثابتة للقضاء على داود ، فأرسل بيبرس معه ثلاثة آلاف فارس ، تحت قيادة أكفأ قواده ، موصياً إياه بأن يعين

---

(١) ابن شداد ، التاريخ ، ١٦/٢ .

(٢) النويري ، النهاية ، ٨٩/٢٩ . وابن الفرات ، التاريخ ، ٤٥/٧ .

(٣) يذكر ابن شداد (التاريخ ٧ (أنه ابن عم داود ، إلا أن المقريزي (السلوك ٦٢١/١) والنويري (النهاية ٨٩/٢٩) يذكر أنه ابن أخت داود .

شكندا نائباً لبيبرس على دنقله ، عاصمة النوبه ، عندما يستولي عليها ، فلما وصل جيش بيبرس خارج دنقله ، خرج إليهم داود ، ومعه رجاله ، على ظهور الجمال ، وليس معهم من السلاح إلا الرماح ، وليس معهم تروس تحميهم ، فأضحوا لقمة سائغة لرماة النبل في جيش بيبرس ، وهزموا هزيمة شنيعة(١) .

وهرب داود ، ولكن عائلته . بما في ذلك أمه وأخته ، أسرت في المطاردة(٢) ، ولجأ هو إلى صاحب الأبواب ، ولما يحمله له هذا من سابق ضغينة ، أرسله إلى بيبرس في ٢ محرم ٦٧٥هـ (١٦ يونية ١٢٧٦م) ، فسجن في مصر(٣) .

وأصبح شكندا حاكماً لبلاد النوبة باسم بيبرس مقابل ما قام به من مساعدة له في استيلائه على الحكم . وعقدت اتفاقية تضمنت أن يفرض جزية على النوبيين ، بمعدل دينار على كل ذكر بالغ ، وأن يقسم دخل البلاد إلى قسمين ، قسم يسلم لبيبرس ، وقسم ينفق لإصلاح البلاد وحمايتها من هجمات الأجانب(٤) ، وأن تفرد المنطقة المجاورة لأسوان ، وتكون ربع بلاد النوبه ، إقطاعاً خاصاً لبيبرس(٥) .

وتلا ذلك اتخاذ اجراءات لتقدير هذا المصدر الجديد للدخل ، وتنظيمه . وعين موظفون ليقوموا بجمع الجزية والخراج ، والإشراف على ذلك .

ودخلت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة مرحلة جديدة ، بعد هزيمة داود ، وتعيين شكندا . وقد تحطم الحاجز الذي قاوم المسلمين عدة قرون . وتوغل تجار المسلمين داخل بلاد النوبة . وإذا كانت بلاد النوبة الآن عاجزة عن تقديم العبيد ، كما كانت تفعل في الماضي ، فإنها الآن تملك ثروات جديدة ، وأصبحت باباً إلى مناطق أبعد ، استطاع التجار فيما بعد أن ينفذوا إليها آمنين . وأصبحت مقراً للمسلمين .

---

(١) ابن شداد ، التاريخ ، ٧٦/٢ ، وابن الفرات ، التاريخ ٦٤/٧ .

(٢) النويري ، النهاية ، ٨٩/٢٩ ، وابن شداد ، التاريخ ٧٧/٢ .

(٣) ابن شداد ، التاريخ ، ٧٧/٢ .

(٤) ابن شداد ، التاريخ ، ٢/ ٧ .

(٥) ابن الفرات ، التاريخ ، ٤٧/٧ .

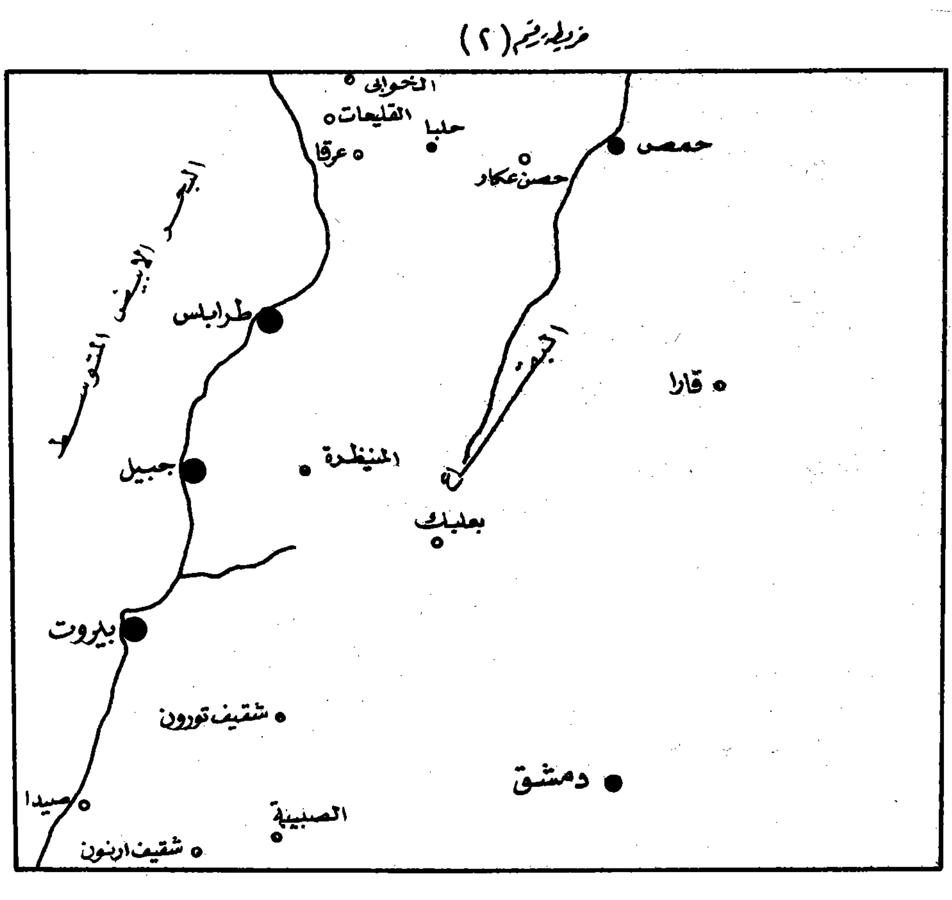
خريطة رقم (١)

سوريا الجنوبية

عواصم المماليك في الأقاليم
ممتلكات الفرنج
١٠٠٠ - ٣٠٠٠ قدم
٣٠٠٠ - ٦٠٠٠ "
١٠ صفر ١٠ ٢٠ ميل

صيدا
الصبيبة
مرج عيون
شقيف أرنون
صور
بانياس
حوران
صفد
عكا
حطين
طبريا
حيفا
نهر اليرموك
الناصرة
عتليت
قيسارية
زرعين
عين جالوت
بيسان
جنين
قاقون
نهر الأردن
البحر الأبيض المتوسط
ارسوف
نابلس
وادي الزرقاء
يافا
الرملة
يبنه
السلط
القدس
عسقلان
البحر الميت
الخليل
غزة
الكرك
الشوبك

خريطة رقم (٢)



سوريا الوسطى

عواصم المماليك فى الأقاليم

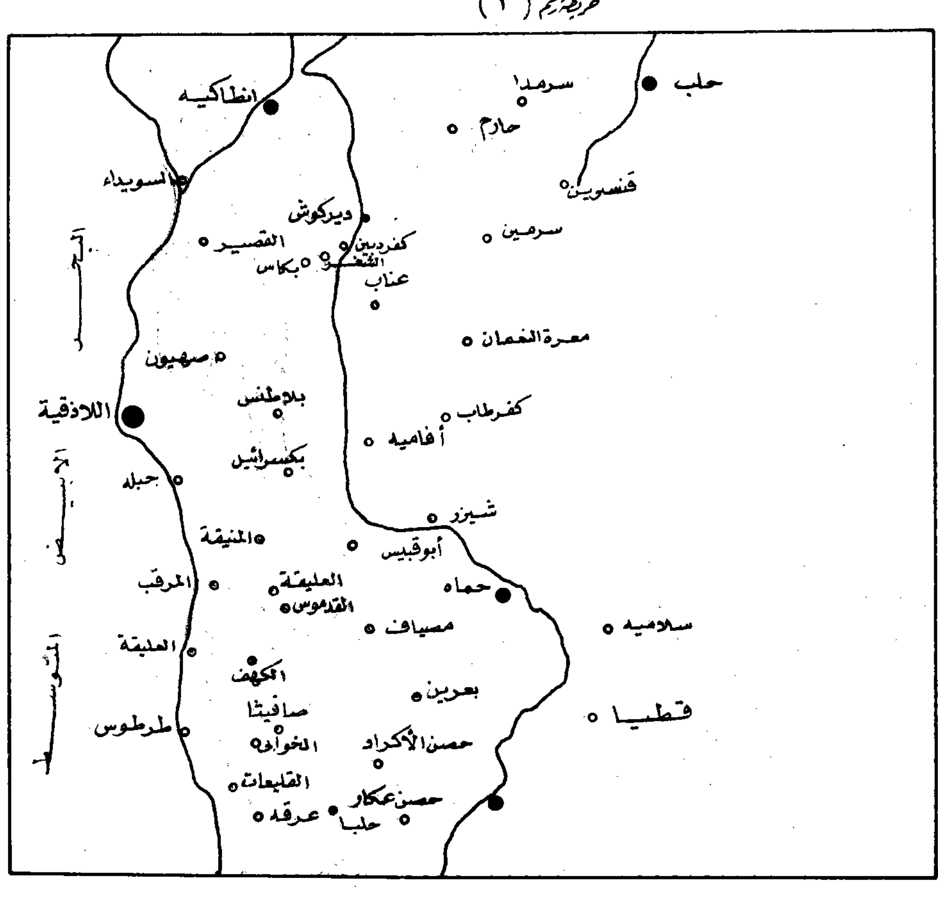
ممتلكات الإفرنج

١٠٠٠ - ٣٠٠٠ قدم

٣٠٠٠ - ٦٠٠٠ «

١٠ صفر ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ميل

خريطة رقم (٣)



حصون الاسماعيلية

عواصم الأقاليم في دولة المماليك

ممتلكات الإفرنج

١٥٠٠ - ٣٠٠٠

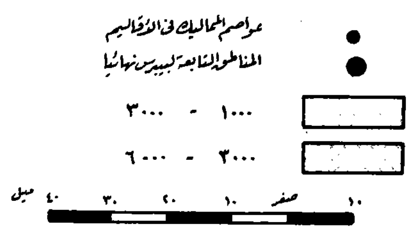
٣٠٠٠ - ٦٠٠٠

٥٠ صفر ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ميل

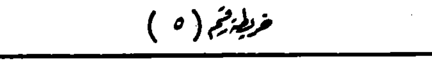
خريطة رقم (٤)

مرعش
نهر
بدندون
عمودين
عين زوربا
صرفندكار
دلوك
قلعة الروم
عين تاب
تل حمدونة
المصيصة
جيحان
الفرات
تل باشر
نهر الساجور
خليج اسكندرونة
دربساك
اسكندرونة
بغراس
البحر الأبيض المتوسط
منبج
بزاعة
ارتاح
انطاكية
سرمدا
حارم
الأثارب
حلب
السويداء
القصير
سرمين
ميركوش
قنسرين

الحدود الشمالية



خريطة رقم (٥)


سميساط
رعيان
قلعة الروم
البيرة
حلب
بالس
الرقة
الرصافة
حماه
حران
حملين
دارا
نصيبين
حصن كيفا
عرقة
سنجار
الموصل
أربيل
كركوك
نهر الخابور
رحبه
الجزيرة
تكريت
عانه
حديثة
بغداد
كوردستان
نهر دجلة
نهر الفرات
سوريا الشمالية والعراق
المناطق التي كانت في حوزة بيبرس مؤقتاً
عواصم المماليك في المناطق
المناطق التي استولى عليها بيبرس نهائياً
٥٠ صفر ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ميل



ثبت المواضيع

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

المراجع العربية

(أ)

المصادر القديمة

عز الدين بن علي بن الأثير : الكامل في التاريخ (مصر ١٢٩٠م)

جعفر بن ثعلبة الأدفوي : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٩١٤ م)

يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخ — تكملة لسعيد البطريق (نشر كراتشفسكي وفاسيلييف) .

محمد بن أحمد بن إياس : تاريخ مصر (القاهرة (١٣١١ هـ)

عبدالله بن عبدالعزيز البكري : المغرب في تاريخ المغرب (باريس ١٩١١)

أحمد بن يحي البلاذري : فتوح البلدان (القاهرة ١٩٣٢ م)

جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهره (القاهرة ١٩٣٨م) .

جون أوف جوانفيل : حياة القديس لويس (ترجمه إلى الانجليزية رين هيج . لندن ١٩٥٥م)

أحمد بن علي بن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنه (حيدر أباد ١٣٤٨ هـ) .

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر (القاهرة ١٨٦٧م)

فضل الله رشيد الدين : جامع التواريخ (طبعة علي زاده ١٩٥٧م)

شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد — دكن ١٩٥٢م) .

عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ١٩٠٧م)

محمد بن عبد الرحمن السخوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ١٣٥٤ هـ) .

جلال الدين عبدالرحمن السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
ذيل طبقات الحفاظ للذهبي (دمشق ١٣٤١ هـ) .
نظم العقيان في أعيان الأعيان (نيوبورك ١٩٢٧ م).

عبدالرحمن بن اسماعيل أبوشامه :	الذيل . تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧ م) .
	كتاب الروضتين في أخبـــار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ م) .
غرس الدين خليل بن شاهين :	زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٤ م) .
بهاء الدين بن شداد :	النـــوادر السلطانية والمحاسن اليوســفية (القاهرة ١٣١٧ ﻫ) .
عز الدين محمد بن شداد :	الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (دمشق ١٩٥٦ م) .
	تاريخ الملك الظاهر (الجزء الثاني مخطوطة أدرنه . المكتبة السليمانية رقم ٢٣٠٦) .
خليل بن أيبك الصفدي :	الوافي بالوفيات (اسطنبول ١٩١٣ — ١٩٣٥ م) .
شافع بن علي بن عباس :	حسن المناقب السريه المنتزعة من السيرة الظاهرية (مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس رقم : عربي ١٧٠٧) .
صفي الدين بن عبد الحق :	مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (لايدن ١٨٥٩ م) .
جرجوريوس ابن العبري :	تاريخ مختصر الدول (١٨٩٠ م) .
عمر بن أحمد بن العديم :	زبدة الحلب من تاريخ حلب . (دمشق ١٩٥١ — ١٩٥٤ م) .
عبد الحي بن العماد . :	شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥١ ﻫ) .
اسماعيل أبو الفدا :	تاريخ البلدان (طبعة زينولد ودوسلان . باريس ١٨٤٠ م) .
	المختصر في تاريخ البشر (اسطنبول ١٢٨٦ م) .
محمد بن عبدالرحيم بن الفرات :	تاريخ (بيروت ١٩٤٢ م) .
مفضل بن أبي الفضيل :	النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (نشر بلاشي . باريس ١٩٢٠ م) .

عبد الرزاق بن أحمد الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في الفئة السابعة (بغداد ١٩٣٢ م) .

حمزه بن أسد بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ترجمة هـ. أ. ر. جب . لندن ١٩٣٢ م) .

أبوالعباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في فنون الانشا (القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩ م) .

محمد بن شاكر الكتبي (الصلاح الكتبي) : فوات الوفيات (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .

عماد الدين اسماعيل بن كثير : البداية والنهاية (القاهرة ١٣٥٨ هـ) .

محمد بن الحسين كشغرى : كتاب ديوان لغة الترك (اسطنبول١٣٣٣)

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس ١٩١٤ م) .

محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب (بيروت ١٩٥٥ م) .

مؤيد الدولة أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار (برنستون ١٩٣٠ م) .

أحمد بن على المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (القاهرة ١٩٥٥ م) .

كتاب إعانة الأمة بكشف الغمة (القاهرة ١٩٤٠ م) .

كتاب الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥ م) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء (القدس ١٩٥٩ م) .

كتاب السلوك في معرفة دول الملوك (القاهرة ١٩٣٦ م) .

(ترجم جزء منه إلى الفرنسية كاترومير . باريس ١٨٣٧ م) .

الأسعد بن مماتي : كتاب قوانين الدواوين (القاهرة١٩٤٣م)

أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون العرب (الأجزاء من ١ – ٨ القاهرة ١٩٢٣ – ١٩٣٥ م .

	الجزء ٢٩ مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس رقم إضافة عربي ٧٣٩) .
محب الدين محمد الواسطي	: شرح القاموس – تاج العروس (القاهرة ١٣٠٦ ﻫ) .
محمد بن سالم بن واصل	: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس : عربي ١٧٠٢ و ١٧٠٣) .
محمد بن عمر الواقدي	: فتوح الشام (كلكتا ١٨٥٤ م) .
شهاب الدين ياقوت الحموي	: معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦ م) .
حسن اليافعي	: جامع التواريخ (مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس ، رقم عربي ١٥٤٣) .
أحمد بن جعفر اليعقوبي	: تاريخ (ليدن ١٨٨٣ م) .
قطب الدين موسى اليونيني	: ذيل مرآة الزمان (حيدر أباد – دكن ١٩٥٤ م) .

المراجع الاوربية

(ب)

Ahmad, M.H.M. :
Studies on the Works of Abu Shama 599 - 665 A. H. (1203 — 1267) (Ph. D. Thesis, University of London, June 1951).

Allen, W.E.D. :
A History of the Georigian People (London 1932).

Ayalon, D. :
Studies on the Structures of the Mamluk Army 11 (Bulletin of S. O. A. S., Vol. XV, Parts 2 - 3, 1953 and Vol. XVI, 1954).

Al-'Azzawi, 'A. :
Al-Ta'rif bi '1-Mu' arrikhin fi 'Ahd al-Mughul wa al-Turkuman (Baghded 1957).

Berchem, Max Van:
Materiaux Pour Un Corpus Inscriptionum Arabicarum. (Paris 1903).

Browne, E. G. :
A Literary History of Persia (Cambridge University Press, 1928).

Cahen, C. :
Le Syrie Nord A L'Epoque Des Croisades et La Principaute Franque D'Autioque. (Paris 1940).

Dozy, R. P. A. :
Dictionaire Detaille Des Noms des Vetements Chez Les Arabes (Amsterdam, 1845).
Supplement aus Dictionaire Arabe (2nd Ed., 1927).

Gibb, H. A, R. :
"The Armies of Saldin" **Cahiers d'Histoire Egyptienne** (Cairo, 1951).
Wiener Zeitachrift fur die Kund des Morgenlands (Wien 1954)

Grosset, Rene:
Histoire des Croisades et ud Royaume France de Jerusalem. Vol. III (Paris 1936).

Richard Hartmann and Helmuth Scheel:

Bitrage Zurarabistik Semitistik Islamwissenchaft (Leipsig, 1944).

Howorth, H. H. :

A History of the Mongols (from the 9th to the 19th Century Part II and III (London 1888).

Hussey, J. M. :

The Byzantine World. (London, 1957)

Kindermann, Hans :

Schiff in Arabischen (Swickan Sa, 1934).

King, E. J. :

The Knight Hospitallars in the Holy Land (London 1931).

Lane-Poole, Stanley:

A History of Egypt in the Middle Ages (London 1925).

Lovoix, Henni:

Catalogue des Monnaies Musulmanes des Bibliotheque Nationale (Egypt et Syrie) (Parie) 1896.

Le Strange, G. :

The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge 1930).

Palestine Under the Mongols (London 1890).

Lewis, Bernard:

The Origins of Isma'ilism (Cambridge, 1940).

Mayer, L. A. :

Bibliorgaphy of Mumismatics (London, 1954).

Mamluk Costume. (Geneve 1952).

Morgan, Jacques de :

Histiore De Peuple Armenien Depuis Les Temps Les Plus Pecules De Ses Annales Jusqu'a Nos Jours (Paris 1919).

Muir, Sir William :

The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (London 1896).

MacMichael, H. A. :

A History of the Arabs in the Sudan (Cambridge 1922).

Oman, Sir C. W. C. :

A History of the Art of War in the Middle Ages (London 1924).

Poliuk, A. H. :

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon 1250—1900 (London 1939).

Pottar, W. :

Egypt and Syria under the Circussian Sultans (University of California Press 1955).

Powicke, F. M. :

King Henry III and the Lord Edward (Oxford 1947).

Prawdin, M. :

The Mongol Empire, Its Rise and Legacy (Translated by Eden and Cedear Paul London 1940).

Runciman, S. :

A History of the Crusades Vol. III (Cambridge 1955).

Sadeque, S. F. :

Baibars The First of Egypt (Pakistan 1956).

Setton, K. H. : (Ed. by):

A History of the Crusades Vol. I (Philadelphia 1955).

Spuler, B. :

Die Mongolen in Iran (Berlin 1955).

Sterenson, W. B. :

The Crusaders in the East (Cambridge 1907).

Surur, M. J. :

Al-Zahir Baibars wa Hadaratu Misr fi 'Asrih (Cairo 1938).

Trimingham, J. S. :

Islam in the Sudan (Oxford University Press 1949).

Uzuncarsili, I. H. :

Osmali Devleti Teskilatina Medhal (Istanbul 1941).

Vasiliev, A. A. :

History of the Byzantine Empire (324—1453) (Oxford 1952).

Vernadsky, C. :

An Introduction to the Chronicle Called Mufarrij al-Kurub, by Jamal al-Din Ibn Wasil (Ph. D. Thesis, London University, 1934).

Weil,

Geschichte Der Chalifen, Vol. IV (Manheim 1846—51).

Wiet, G. Sauvaget, J. Et. Combe:

Repertoire Chronologique D' Epigraphie Arab-Publication de L' Institut Francais d 'Archeologie Orientale (Cairo 1941 — 2).

Wiet, G. :

L 'Egypt Arabe De La Conquete Arabe A La Conuqet Ottomone, 642 — 1517 De L 'Ere Chretienne (Gabrial Hanotaux Histoire De La National Egyptienne Tome IV, Paris 1937).

The Encyclapacdia of Islam 1st Edit. (Leiden 1931 — 38) also Snd Edit.

Cambridge Medirvil History (Cambridge 1931—36).

(١)
ثبت الاعلام

(٢)

ثبت الأماكن

٣٦ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٨١ .